
عبد الوهاب مطاوع
طائرُ الأحزانِ
الدار المصرية اللبنانية

طَائِرُ الأحزَانِ

مطاوع ، عبد الوهاب
طائر الأحزان / عبد الوهاب مطاوع
.ـ ط1.ـ القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، 2008
248 ص ؛ 21 سم .
تدمك : X ـ 380 ـ 427 ـ 977
1 ـ القصص الاجتماعية 2 ـ القصص العربية
أ ـ العنوان 813,01

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة .
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ـ ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

رقم الإيداع : 4091 / 2008
الطبعة الثانية والطبعة الأولى : للدار المصرية اللبنانية
رجب 1429 هـ ـ يوليو 2008 م

عبد الوهاب مطاوع

طَائِرُ الأَحزَانِ

الدار المصرية اللبنانية


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

"أنا لا أعرف شيئًا عن أسرار الله.. لكنى أعرف بعض عذاب البشر" عبارة قديمة قالها الحكيم "بوذا" منذ آلاف السنين وأستعيدها الآن مرةً كلَّ أسبوعٍ على الأقل!

فلقد اعتدت طوال السنوات الثلاث عشرة الماضية، أن أنقطع عن الحياة وأعتكف فى بيتى يوم الأربعاء من كل أسبوع لأقرأ رسائل المهمومين والمعذبين وأختار منها ما أنشره وأعلق عليه فى بريد الجمعة. وأفعل ذلك فى جلسة متصلة مرهقة تبدأ من ظهر يوم الأربعاء.. ولا تنتهى قبل ظهر يوم الخميس حين يجىء مندوب من الأهرام ليتسلم منى مقالى.

وقد لاحظت مع مرور السنوات أننى فى يوم الأربعاء من كل أسبوع أنهض من نومى شبه مكتئب، ربما لإحساسى بأنى مُقْدم على "واجب حزين" لا يعدنى بالسرور، وأننى أظل طوال ذلك اليوم شبه

صامت.. وشبه غائب الذهن.. لا أتحدث إلا قليلاً.. ولا أستجيب لمحاولات أحد لاستدراجي للحديث أو المشاركة فى أى نشاط عائلى، كما أننى أصبح مع استغراقى فى قراءة رسائل المهمومين ومعايشة آلامها، ضيِّق الصدر سريع الاستجابة لأى انفعال عابر، حتى عرف عنى أهلى ذلك بطول المعاشرة.. وتجنبوا الجدال معى فى شىء فى ذلك اليوم..

ولست أرى فى ذلك شيئًا غريبًا، ففى هذا اليوم من كل أسبوع أعرف شيئًا جديدًا عن "عذاب البشر".. وأفيق بأشياء جديدة فى طبائع بعض البشر..، ولا أفقد رغم كل ذلك إيمانى الراسخ بخيريّة الحياة ومسئوليتنا نحن البشر عن تخفيف بعض عنائها عن المعذبين وتضميد جراح نفوسهم.

فالحياة حافلة بصور المعاناة الإنسانية، لكن مسئوليتنا نحن البشر هى أن نحاول قدر الجهد والطاقة، أن نفيق من دوائر الأنانية والفردية والقسوة والظلم الإنسانى فيها، وأن نوسِّع ونعمِّق دوائر المشاركة.. والتكافل.. والعطاء للآخرين فيها، وكلما جلست إلى مكتبى لأكتب بريد الجمعة أجد فى سمعى صدى كلمات الحكيم بوذا، حاولت على الناحية الأخرى أن أستعيد كلمة أمير القصة القصيرة أنطون تشيكوف والتى يقول فيها: "لو أن كل إنسان فعل ما فى وسعه لتجميل رقعة الأرض التى يقف عليها لأصبح كوكبنا فتنة للأنظار".

وتجميل رقعة الأرض التى يقف عليها الإنسان لا يقتصر فقط على تجميل المكان.. وإنما يتعداه إلى تجميل النفوس.. ومحاولة تخفيف أسباب الشقاء الإنسانى.

لقد عرفت الكثير عن "عذاب بعض البشر" خلال السنوات الثلاث عشرة الماضية.. لكنى عرفت الكثير أيضًا عن جمال النفوس.. وقدرتها على تخفيف الآلام.. وتجميل الحياة.

وفى هذا الكتاب صور واقعية من هذا وذاك أحلم بأن يستفيد بها من يقرؤها بأن يزداد كراهية لصور الغدر والشر.. والخديعة.. ويزداد إيمانًا واحترامًا لقيم الخير والوفاء والعطاء والعدل الإنسانى.. وشكرًا.

عبد الوهاب مطاوع

سيدى والله إنى لا أدرى ما الذى دفعنى للكتابة إليك لأروى لك قصتى مع الحياة، كما لا أعرف إذا ما كان فيها ما يستفيد به الآخرون أم لا؟. لكنى رغم ذلك أشعر برغبة ملحة فى أن أحكيها لك. نشأت فى أسرة طيبة بإحدى مدن الوجه البحرى ولأب يُعدّ من الأعيان لأنه يملك 50 فدانًا، لكنه فى الواقع من متوسطى الحال لأن الأرض كلها كانت مؤجرة ولا يتقاضى عنها إلا إيجارًا زهيدًا. وحين بلغت المرحلة الثانوية بدأ تعثرى فى الدراسة، ورسبت سنتين متتاليتين فى الثانوية العامة، فقررت أسرتى أن ترسلنى للإقامة مع خالٍ أعزب يُقيم بالقاهرة لألتحق بإحدى مدارسها وأخضع لإشرافه خاصة أن شخصيته كانت جبارة وصارمة. وشاءت الظروف أن تتكرر نفس الظروف مع ابنة إحدى خالاتى التى حصلت على الإعدادية بمجموع ضعيف لا يؤهلها للالتحاق بالثانوى العام، ولم يكن فى بلدتنا مدرسة ثانوية خاصة فرأت أسرتها أن ترسلها أيضًا إلى خالى الصارم بالقاهرة لتلتحق بمدرسة خاصة تحت رعايته.

وهكذا جمعتنا الدراسة فى شقة خالى الأعزب تخدمنا سيدة مسنَّة ويتابع خالنا بشدّته المعروفة انتظامنا فى الدراسة وتحصيلنا الدراسى، وفى ظروف الغربة عن أهلنا.. والشكوى

من شدة خالى وصرامته وجدنا نفسيْنا أنا وبنت خالى نتبادل الحب فى هذه السن الصغيرة.. ولا أعرف هل كان حبًا حقيقيًا أم حب مراهقة، لكننا رغم ذلك تعاهدنا على الزواج وتعاملنا مع هذا الأمر الخيالى بجدّية غريبة، ومضى العام الدراسى ونجحتُ فى الثانوية العامة بما يشبه المعجزة وبمجموع ضعيف، ونجحت ابنة خالتى أيضًا وتيسَّر نقلها إلى المدرسة الثانوية ببلدتنا فانتقلت إليها وعادت لتقيم مع أسرتها. أما أنا فقد التحقت بالمعهد العالى للتربية الرياضية واجتزتُ الاختبارات الرياضية بالتوصية والواسطة لأنى لم أمارس فى حياتى أية لعبة رياضية، وانتظمت فى الدراسة ومن حين لآخر أزور أسرتى فى بلدتنا.. وأجدّد العهد مع ابنة خالتى على الزواج إلى أن وصلت إلى السنة الثالثة بالمعهد ووصلت فتاتى إلى الثانوية العامة. وكثرُ خطَّاب فتاتى وتعدّدوا فهى جمال وأسرة ومال، وكلما تقدم لها خاطب رفضته انتظارًا لى، إلى أن تقدم لها خاطب ممتاز من كل الجوانب فأرغمتها الأسرة على قبوله، وحاولت هى الاعتراض بكل وسيلة فلم تثمر محاولاتها سوى تأجيل القران إلى ما بعد أدائها لامتحان الثانوية العامة. وواجهنا الكارثة التى تهددنا بالفراق حتى نهاية العمر.. وتشاورنا فيما نفعل فيها وحدثتنا عقولنا ونحن فى هذه السن الصغيرة إلى قرار خطير هو أن نضع الأسرتين أمام الأمر الواقع، وأقدمنا على ما نويناه رغم الأهوال التى تنتظرنا وصارح كل منا أهله بأنه لن يتزوج

سوى الآخر مهما حدث ولو دعانا ذلك إلى ارتكاب أى حماقة يتصورونها.. وانهال علينا اللوم والسباب والإهانة وبعد خفوت العاصفة اجتمعت الأسرتان وقررتا تزويجنا تجنبًا لاتساع المشكلة مع مقاطعتنا فى نفس الوقت.

وكان الحل الذى توصلت له الأسرتان هو أن نرحل عن البلدة ونقيم فى شقة صغيرة بالقاهرة تنازل لنا عنها أحد أقاربنا، وأن يعطينى أبى مبلغ عشرة جنيهات فقط كل شهر ويعطى والد فتاتى ابنته عشرة جنيهات مماثلة لنعيش بهذا الدخل البسيط فى القاهرة ونتحمل مسئولية حياتنا و"إجرامنا" فى حق الأسرتين!

وتم الزواج وكان الفرح كالمأتم الحزين وسعدنا بذلك رغم الإهانات والاحتقار فالكل فيه مقطّب ومتجهِّم فى وجهينا.. وأنا وفتاتى مترددان بين الابتهاج باجتماع الشمل وبين الحزن لما نحسه من رفض الأهل وازدرائهم لنا.

وانتقلنا إلى الشقة التى تم تجهيزها فى أضيق الحدود مراعاة لظروف أبى المالية وواجهنا واقعنا الجديد كعروسين مغضوب عليهما من الأهل ومحرَّم عليهما العودة إلى البلدة إلى أجل غير مسمى، وبدخل شهرى يأتينا بالبريد أو مع أحد الأقارب قدره عشرون جنيهًا لا غير. ومع ذلك فلقد سعدنا باجتماع شملنا.. ولم تمض أسابيع حتى دب

جنين الحب واندفاع الشباب فى أحشاء زوجتى وفكرت فى مستقبل هذا الجنين ونحن لا نكاد نستطيع أن نلبّى حاجتنا من الطعام. وقررت مع زوجتى أن نبيع ذهبها وأشترى به سيارة أجرة مستعملة وأتعلم القيادة لأعمل سائقًا عليها بعد الدراسة فى المعهد، واشتريناها وبدأت أعمل عليها بعد الظهر وفى أيام الأجازات، وقررت مع زوجتى أن نتوقف عن قبول المساعدة الشهرية من أبى وصهرى..لكى نستعيد بعض احترامنا فى أعين الأهل الذين احتقرونا. وتحسنت أحوالنا بعض الشىء.. ووضعت زوجتى حملها فإذا به توءم من ولدين بدلاً من ولد واحد.. وترددت لحظات بين الفرحة بهما وبين استثقال مؤنتهما لكنى طردت الهواجس على الفور وسعدت بهما سعادة طاغية.. وبعد شهرين من مجيئهما للحياة حملت زوجتى مرة أخرى واستقبلت عامى الأخير بالمعهد وقبل أن تعلن نتيجة البكالوريوس وضعت زوجتى حملها الثانى فإذا به توءم ومن ولدين أيضًا.. ولله فى خلقه شئون وتخرجت وعملت مدرسًا بمدرسة بإحدى المحافظات القريبة من القاهرة وعمرى 24 سنة وزوج وأب لـ 4 أطفال ذكور! وحين كان زملائى بها يسألوننى عن حالتى الاجتماعية وأجيبهم بالحقيقة كانوا يندهشون ويتعجبون كيف أواجه مسئولية أسرتى الكبيرة بمرتب لا يزيد وقتها على 23 جنيها، لكنى كنت أجيبهم بأننى أكافح لإعالة أسرتى بعد العمل بسيارة أجرة.. وتهون كل مصاعب

حياتى حين أعود إلى بيتى الدافىء بالحب وأجد فيه "أم العيال" بنت العشرين!

شيء واحد كان ينغِّص علينا حياتنا هو أن الأهل ظلوا على موقفهم منا رغم استغنائنا عن معونتهم. وحملت زوجتى للمرة الثالثة ولم أكن راغبًا هذه المرة فى حملها ولا هى أيضًا لكنها إرادة الله ونحن صغيران لا ندرى الكثير عن أمور الحياة ولم تكن وسائل تنظيم الأسرة شائعة كما هى الحال الآن، ولو كانت شائعة لما عرفنا عنها الكثير فأنا أدور فى طاحونة من السادسة صباحًا حتى منتصف الليل وكذلك زوجتى، ولا أعرف حتى الآن كيف كنت أقوم بتدبير نفقات الولادة ولبن الأطفال.. والمهم أن زوجتى قد وضعت حملها الثالث ولو ساورك الشك فيما سأرويه لك عذرتك لكن هذه هى الحقيقة التى لا أملك لها تبديلا.. فقد وضعت زوجتى للمرة الثالثة توءمًا أيضًا ومن ولدين، وأصبحت أنا وزوجتى وأطفالنا الستة حديث الأقارب وموضع إشفاق بعضهم، ورغم كل ذلك فقد استمرت الأسرتان فى موقفهما منّا وهو موقف يمثل شبه مقاطعة وخاصة معى أنا بالذات. وضاعف من عناء حياتنا أن تأجيل تجنيدى كان قد انتهى، فتقدمت لأداء الخدمة العسكرية بعد حرب أكتوبر وانقطع جزء كبير من دخلى من السيارة لكنى تحملت مع زوجتى كل شيء وانتهت فترة الخدمة بعد عناء شديد ووجدت العبء قد أصبح ثقيلاً على كاهلى.. وأنا أتكبد نفقات السفر بالأتوبيس كل يوم إلى المدرسة التى أعمل بها

وأعود متأخرًا منها فأستريح ساعة واحدة فى البيت للغداء ثم أخرج بسيارتى الأجرة لأكسب رزق الأسرة الأساسى حتى منتصف الليل وأرجع لأنام مرهقًا وأنهض من نومى فى السادسة صباحًا، وزوجتى التى نشأت فى العزّ ولم تعرف الفقر أصبحت تفصل من فساتينها القديمـة ملابس للأطفال الرضَّع. وبدأت ملابسها التى جاءت بها من أسرتها "تدوب" من كثرة الاستعمال ولا تستطيع شراء غيرها. وقد اخشوشنت يداها من غسيل ملابس الأطفال الرضع كل يوم عدة مرات وخدمتهم الشاقة طول النهار.. والطهو والكنس والنظافة الخ.. وكلما أشفقت عليها مما تتحمله من عناء هوّنت علىَّ مصاعب حياتنا وبشَّرتنى بالبشرى التى مازلت أعجب حتى الآن كيف كانت قادرة على إمكان تخيُّلها وسط ظروفنا اليائسة تلك، فلقد كانت تقول لى إننى سوف أصبح "أحسن واحد" فى الأسرة، وسوف تثبت الأيام لكل من ازدرونا واحتقرونا أنها اختارت الاختيار الصحيح! فأدعو لها بالصحة وطول العمر جزاء محاولتها رفع روحى المعنوية. والمهم أننى وجدت نفسى عاجزًا عن الاستمرار فى العمل كمدرس فى تلك المحافظة لما أتكبده من نفقات فى السفر إليها فقدمت لمسابقة لتعيين مشرفين رياضيين بإحدى جامعات القاهرة.. ولم أكن أفضل المتقدمين ولا أحسنهم، لكن الله سبحانه وتعالى أراد لى النجاح ربما لأننى وأنا أتقدم بالطلب استحضرت فى خيالى عيون زوجتى وأطفالى الستة حين أرجع إليهم بالنتيجة وتسألنى زوجتى بلهفة عما فعلت، فلم يشأ

الله أن يخذلها وعينت مشرفًا رياضيًا بالجامعة واتسعت أمامي ساعات العمل على سيارة الأجرة.. وتخففت من بعض متاعب حياتى. لكن "الأولاد" كبروا سريعًا ياسيدى وزادت نفقاتهم ومطالب الحياة والمدارس.. ولم أجد مخرجًا لى من ظروفى سوى التعلق بالأمل فى العمل فى الخارج، وكلما جاء موسم الإعارات أو أعلن عن مسابقة للعمل فى الخارج أتقدم بطلبى فلا يكون لى نصيب فيها، وأعود لمواصلة حياتى وزوجتى تطالبنى بالصبر إلى أن تقدمت عقب إعلان للعمل برعاية الشباب بإحدى دول الخليج وتحقق الأمل الصعب وتم اختيارى وسافرت مع زوجتى وأطفالى الستة إلى هناك بعد أن بعت سيارتى الأجرة، واستقرت حياتنا هناك وتفانيت فى عملى الجديد ثم حدث بعد فترة أن كنت فى أحد مطارات هذه الدولة لأركب الطيران الداخلى عائدًا إلى مقر إقامتى فتصادف جلوسى بجوار شخص مصرى قادم فى زيارة، فطلب منى أن أعطيه بعض عملة الدولة المحلية لأنه فقد ما كان معه منها مقابل أن يعطينى قيمتها مما بقى معه من الجنيهات المصرية، فقدمت له ما أراد ورفضت أن آخذ منه مقابلها المصرى مؤجلاً ذلك إلى حين أن أرجع لمصر فى أجازتى السنوية، فنظر إلىّ شاكرًا ثم أعطانى بطاقة باسمه وعنوانه وخلال انتظارنا للطائرة روى لى أنه توجد قطعة أرض مبانٍ بالهرم تباع بألف وخمسمائة جنيه للقيراط وأوصانى بالشراء منها عند عودتى لمصر لأنها فرصة طيبة لى، وجاءت الطائرة وذهب كل منها إلى حال سبيله، ثم جاءت الأجازة

الصيفية بعد شهور وعدت لمصر.. وتوجهت إلى عنوان هذا الشخص فاستقبلني بترحاب كبير وسدَّد لى ما أخذه منى، ثم اصطحبنى إلى صاحب الأرض التى حكى لى عنها وقمت بشراء قطعة ممتازة بمبلغ ستة آلاف جنيه، وأصبحت مالكًا لقطعة أرض للمرة الأولى فى حياتى! وبعد أيام من إقامتنا فى شقتنا القديمة بالقاهرة التى شهدت أيام العناء الطويلة استخرت الله وقررت أن أسافر إلى بلدتى التى لم أدخلها منذ أكثر من عشر سنوات لأصالح أبى وأمى وأسترضيهما خاصة بعد أن أصبحت أنا وزوجتى أسرة من ثمانية أفراد وذهبت واسترضيت أبى وأمى وسألتهما العفو عن اندفاع الشباب والرضا عنى، وفعلت نفس الشىء مع أسرة زوجتى طالبًا الصفح عن كل ما كان.

وعُدنا من بلدتى إلى القاهرة راضين وسعداء.. وانتهت الأجازة سريعا وعدنا لمقر عملى.. فلم تمض شهور حتى جاءنى نبأ وفاة أبى فحزنت عليه وحمدت الله كثيرا أن مات صافحًا عنى، وفى نفس العام أيضًا مات والد زوجتى وكان تاجرًا كبيرًا فتعجبت من حكمة القدر، وفى صيف العام التالى عُدْنا إلى مصر فى الأجازة فوجدنا ثروة كبيرة تنتظرنا أنا وزوجتى من ميراثى وميراثها وتذكرت أيام الحرمان والشقاء وليالى الضيق الطويلة التى لم يخففها عنا سوى حبنا وتعجبت من تغير الأحوال ولم أملك إلا أن أشكر ربى على نعمته.

ولقد مضت سنوات العمر بعد ذلك يا سيدى وبلغتُ الآن الثامنة والأربعين من عمرى ومازلت أعمل فى الخارج.. وقد حدثت تطورات مهمة فى حياتى فحصل التوءم البكر على الثانوية العامة معًا والتحقا بكلية الطب فعادت معهما زوجتى لترعاهما.. وبقيت أنا مع الأولاد الأربعة الآخرين لرعايتهم، وفى العام التالى نجح التوءم الأوسط والتحقا أيضًا بكلية الطب وانضما إلى فرع الأسرة فى القاهرة وبقيت أنا مع التوءم الأصغر حتى يحصل على الثانوية العامة.. وقد حصلا عليها أيضًا والحمد لله بعد عامين وعادا لمصر والتحقا بكلية الهندسة وأصبحت أعود إلى مصر مرتين فى السنة لأرى أولادى وزوجتى وأعيش معهم أجمل أيام عمرى، وقد أصبح لنا والحمد الله بيت جميل تم بناؤه فى قطعة الأرض التى اشتريتها فى الهرم والتى تضاعف سعرها بعد ذلك أضعافًا مضاعفة وكان شراؤها توفيقا من الله.

وفى العام الماضى زوَّجت التوءم البكر لمن أحبا رغم صغر سنهما ولم أفكر فى الاعتراض أو التأجيل مادمت قادرًا على تكاليف زواجهما وقد وفرت لهما كل شيء، وفى الصيف القادم إن شاء الله سوف أزوِّج التوءم الأوسط، وفى العام الذى يليه سيأتى دور التوءم الأصغر بإذن الله.. فأولادى يعتبروننى المثل الأعلى لهم.. وتحققت نبوءة زوجتى أو بشارتها فأصبح وضعى المالى بين الأسرتين.. فى القمة والحمد لله لكن

الأهم منه أننى وزوجتى على وفاق وفى قمة السعادة والرضا والحمد الله ولم أنس حقوق والدتى علىَّ وكذلك لم تقصر زوجتى فى حقوق والدتها عليها رغم ما قدمته لى من إساءة بالقول والفعل.. كما لم أنس أيضًا حقوق الضعفاء فيما أنعم الله علىَّ به ولا أستطيع إلا أن أقول فى النهاية إنه سبحانه "يرزق من يشاء بغير حساب".

وحين أكتب لك رسالتى هذه لا أعرف حتى الآن إذا كان ما فعلته وأنا شاب صغير خطأ أم صوابًا وأولادى لا يعرفون شيئًا صريحًا عن كيفية زواجى بأمهم، لكنهم يعرفون فقط أننا تزوجنا صغيرين جدًا فهل تنصحنى بأن أحكى لهم كل شىء بالتفصيل، أم بأن أتجاهل الأمر أيضا؟.. إننى بعد كل هذه السنين مازلت واقعًا فى غرام أمهم هذه التى مازلت أراها فى خيالى حتى الآن وهى بزى المدرسة الثانوية فماذا تقول فى هذا الشأن.. وفى قصتى كلها؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

قصتك يا صديقى جرت كلها منذ البداية ضد كلِّ ما يقضى به العقل والحكمة وتجارب الحياة، ورغم ذلك فلقد أثمرت ثمارًا طيبة يندر أن تثمرها أية قصة مماثلة لها فى تفاصيلها، لهذا فأفضل ما يقال عنها هو ما يقوله الفقهاء عادة عن غريب الرأى فى بعض الفتاوى حين يخالفونها بأدب ويحترمون علم أصحابها فى نفس الوقت لصائب

اجتهادهم فى فتاوى أخرى فيقولون عن ذلك: "يبقى الشاذُ من الفُتيا كما هو.. ولا يُقاس عليه"!.

أو ما يقوله بعض المؤرخين حين يرصدون بعض التحركات أو القرارات التى تعتبر خاطئة بالمقاييس المتعارف عليها، لكنها رغم ذلك قد أدت إلى نتائج لم تكن متوقعة فيقولون عن أمثالها: لقد كان القرار خاطئا بكل المقاييس.. لكن نتائجه.. جاءت باهرة!

ولأن الاستثناء مهما تعددت حالاته لا يصلح أبدًا لأن يصنع قاعدة أو أن يُقاس عليه، فإنى أقول لك إن ما حققه حب المراهقة فى حياتك من تحولات ونتائج يستحق أن يقال عنه إنه كان "الخطأ" الذى جاءت نتائجه باهرة بحق. فحبُّ المراهقة يا صديقى ليس حبًا حقيقيًا يصمد للزمن، كما أنه لا يعبر غالبًا عن شخصية الإنسان الذى ستصاحبه إلى نهاية العمر، وإنما هو غالبًا عاطفة مشوشة مغلفة بالأحلام معرضة للتقلب والتغير مع تغير المزاج النفسى للإنسان الرشيد وتخلصه من مزاج المراهقة المتقلب. ولهذا فإن أكثر من 90٪ من حالات زواج المراهقين الذين يتحدون الأهل فى أوربا وأمريكا ويتزوَّجون رغما عنهم وهم دون العشرين أو حولها تنتهى إلى الفشل والانهيار بعد بضع سنوات، خاصة بعد إنجاب الأطفال وتزايد صعوبات الحياة عليهم. لكن زواج المراهقين قد نجح فى حالتك وصمد وأثمر ثماره

الطيبة رغم الصعوبات والأهوال التى واجهتكما. وحين فكرت طويلاً فى أسباب نجاحه وصموده رغم الصعوبات والتحديات لم أجد سببًا مقنعًا لثبات مشاعر المراهقة المتقلبة وتحولها إلى حب حقيقى يتحدى الزمن إلا فى هذه الصعوبات والتحديات نفسها!، فالصعوبات قد استثارت فيكما إرادة التحدى والكفاح للحفاظ على الأسرة التى تحملتما هذا العناء لتكوّناها. ونبذ الأهل وازدراؤهم لكما وتوقعهم الفشل المدوى لكما بعد أعوام قليلة قد استنفر فيكما أيضًا كل ملكات الإرادة والرغبة فى النجاح تجنبًا لشماتة الشامتين!

أما أكبر العوامل المؤثرة فى ذلك بغير شك فيتمثل فى هذه القبيلة الصغيرة العجيبة التى تكونت لديكما سريعًا خلال ثلاث سنوات فقط، وضمت 6 أطفال صغار لا يزيد فارق العمر بين كل "زوج" منهم على عام واحدا!.

لقد صهرتكما هذه القبيلة من الصغار فى بوتقة واحدة وأذابت معكما كل نظريات علم النفس عن المراهقة وتقلباتها فيها! فستة أطفال صغار متقاربو الأعمار بهذا الشكل العجيب كفيلون بكل تأكيد بأن يصرفوا الإنسان عن أى شىء آخر فى الحياة سوى الحفاظ على هذه الثروة الإنسانية.. والوصول بها إلى بر الأمان.

ومشاكل الإنسان كثيرة يا سيدى.. لكن أكثرها نبلاً بلا منازع هو

عناؤه لأن يوفر لأبنائه وأعزائه غدا أفضل من يومه هو نفسه أو أمسه، وهو حين يسعى إلى ذلك مخلصًا وعارقًا يكون أحد ثلاثة "حقٌّ على الله عونهم" كما جاء فى مضمون الحديث الشريف، لهذا فلا غرابة فى أن تُختار أنت للعمل كمشرف رياضى بالجامعة مع أنك لم تكن أفضل المتقدمين لهذا العمل كما تقول، ولا فى أن تأتيك فرصة العمل فى الخارج فى الوقت المناسب بعد أن شقيت سنوات طويلة من السادسة صباحًا حتى منتصف الليل لكى تريحك من هذا العناء ولا فى أن تتخلص من متاعبك المادية وتعرف الرخاء والوفرة والقدرة بعد طول العناء.. لأنك قد دفعت ضريبة الكفاح كاملة وأخلصت الودَّ لمن أخلصته لك وتحملت معك هذه الرحلة البطولية.. ثم.. وهو الأهم.. لأنكما فى النهاية قد صححتما أخطاء اندفاع الشباب واسترضيتما أبويكما فرحلا عن الحياة صافحيْن عنكما.

إنك تقول لى إنك لا تعرف لماذا تروى لى قصتك.. وأنا أصدقك فى ذلك وتفسيره عندى أنه يعكس رغبة الإنسان الغريزية فى الإفضاء بما يطوى عليه صدره لمن يشاركه الاهتمام به. وليس من الضرورى أن يكون ما يريد الإنسان أن يفضى به للآخرين آلامًا وهمومًا وحدها، وإنما قد يكون ذلك أيضًا تأملات أو مراجعة لمشوار الحياة ودروسها أو إنجازًا يريد المرء أن يسجله ويعتز به أو يتأكد من صوابه أو يعيد تقييمه.

وأنت تسألنى بعد ذلك هل من الحكمة أن تصارح أبناءك بكل تفاصيل قصة زواجك من أمهم.. ورأيى أنك لست فى حاجة لأن تروى لهم أى تفاصيل قد تُسهم فى خلق الانطباع لديهم بأن نموذج تحدّى الأهل والخروج على طاعتهم فى سن الشباب المبكر أو المراهقة يمكن أن يثمر مثل هذه الثمار الباهرة من أبناء متفوقين مهذبين مثلهم وزوجيْن متحابيْن ومتعاونيْن على رحلة السنين مثلكما!!

كما أنك لست فى حاجة بالطبع لأن تروى لهم أية تفاصيل قد تمس بوعى أو بغير وعى رمز الأم أو رمز الأب فى مخيّلتهم، وخاصة مما عميت عليه فى رسالتك، وإنما يكفى فقط أن تروى لهم إجمالاً عن الصعوبات التى واجهتكما كزوجين صغيرين شابين لم يتوقع لهما كثير من الأقارب أن ينجح زواجهما لكنهما تحملا ظروف حياتهما بصبر ودأب وتعاون على أنواء الحياة حتى وصلا معًا إلى أقصى مما كانا يحلمان به ومازال الحب والاحترام المتبادلان يجمعان بينهما، وبهذا يتحول الخطأ القديم إلى "مثال" إيجابى يحث على الكفاح وإعلاء قيم الحب والصبر.. والتعاون فى أذهانهم وليس العكس.

مع صادق تمنياتى لك بدوام السعادة والهناء ومع رجائى لأبنائك الأعزاء بألا يكرروا نموذج القبيلة سريعة التوالد هذه فى حياتهم الخاصة حتى لا تجد أنت نفسك بعد بضع سنين جدًّا لـ 36 حفيدًا دفعة واحدة.. وشكرًا لك على رسالتك والسلام.

* * *

ربما تتصوَّر يا سيدى أن مشكلتى هيِّنة بالقياس إلى المآسى الآخرى التى تنشرها، لكنى أؤكد لكِ أنها مشكلة حياتى التى لا أعرف كيف أواجهها أو أحتملها، فأنا سيدة فى السابعة والثلاثين تزوجت لمدة 3 سنوات متقطعة ولم أسترح فى زواجى لأسباب تتعلق بزوجى ولا يد لى فيها.. وقد انتهى الأمر بيننا بأن طلقنى غيابيًا ولم يعطنى حقوقى ولم أطالبه بشىء وانطوت هذه الصفحة بخيرها وشرها من حياتى إلى الأبد ورجعت إلى بيت أبى.. فبدأت متاعبى التى مازالت مستمرة إلى الآن فنحن 6 شقيقات وولد واحد تزوجت منا خمس وعدت أنا بفشلى إلى بيت أبى، ولم يكن به حينذاك سوى أخى الذى يصغرنى بخمس سنوات وأختى التى تصغرنى بسبعة أعوام، ولقد كان من الممكن أن تكون حياتى بينهم هادئة تعوضنى عن مرارة الإحساس بالفشل.. لكن ذلك لم يحدث لسبب مهم هو أن أمى سيدة مِضيافة خلقها الله سبحانه وتعالى تعشق الضيوف وتحب "الوَنَس" والزحمة، لهذا فباب شقتها مفتوح كل يوم ككازينو الانشراح من التاسعة صباحًا حتى الواحدة أو الثانية بعد منتصف الليل، وفى أى وقت لابد أن تجد فى صالة الشقة ضيوفًا بأولادهم إلى جانب بعض شقيقاتى المتزوجات الأربع وأزواجهن وأولادهن وأهل أزواجهن، والكل يتكلمون بصوت عالٍ ويحكون، وأعود أنا من عملى مرهقة كل يوم

فأجد صالة "الكازينو" كاملة العدد بالرجال والسيدات والجيران والأطفال.. فأدخل حجرتى التى أتقاسمها مع أختى.. وهكذا بلا انقطاع ولا أجازة فى يوم من الأيام.. ولم أحتمل كل هذا الضجيج فأصابتنى حالة من الضيق النفسى أصبحت معها لا أريد أن أرى أحدًا أو أسمع أحدًا، وأصبحت أعود من عملى فأسرع بالاختباء فى غرفتى التى أتقاسمها مع أختى وأظل بها حتى موعد خروجى للعمل فى الصباح التالى، وبعد معاناة نفسية طويلة قررت أن أغيّر هذا الوضع مهما كانت العواقب. وتركز حلمى البرىء فى أن أستطيع أن أبنى فوق سطح البيت الذى نعيش فيه ويملكه أبى أربعة جدران لها سقف وباب أستطيع أن أغلقه على نفسى، لكن ذلك سوف يستغرق سنوات وسنوات وأنا لا أستطيع احتمال حياتى أكثر من ذلك يومًا آخر فماذا أفعل؟ لقد بحثت عن عمل مسائى يتضمن المأوى فوجدت عملاً إضافيًا كمشرفة ليلية فى إحدى دور الرعاية واسترحت لانفرادى بنفسى فى حجرة صغيرة مفروشة بالموكيت وأقبلت على عملى الصباحى فى وظيفتى وعملى المسائى بكل حماس ونشاط وبدأت أدخر كل قرش أستطيع ادخاره لكى أحقق حلمى الجرىء.. وبدأت رحلة الألف ميل خطوة خطوة.. فقمت بعد بيع شبكتى الذهبية بتنفيذ صبة الخرسانة لشقة صغيرة من حجرة وصالة لأجلس فى بيتى بهدوء وشهرا وراء شهر استطعت أن أسدد آخر أقساط الشاب الذى قام بتشطيب الشقة، واشتريت موقد بوتاجاز وسخانا بالتقسيط من أحد

المعارض وأصبحت أعود من عملى كل يوم فأدخل إلى شقة أبى فأجدها كاملة العدد كالعادة فأحيِّى الحاضرين وأسرع بالصعود إلى شقتى لأستمتع بالهدوء والراحة، وفى وقت الأصيل أدعو أبى وأمى لتناول الشاى معى وأسعد باستضافتهما فى "بيتى" بعض الوقت.
واقترب موعد زواج أخى.. فإذا بأبى وأمى يقرران أن يتنازلا له عن شقتهما وهى من 3 غرف وصالة ليتزوَّج فيها، وأن يُقيما معى فى شقتى الصغيرة ذات الحجرة الواحدة والتى بنيتها بدمى وعرقى فى 6 سنوات طويلة! وكدت أصاب بالجنون حين أدركت ذلك وأسرعت إلى شقيقاتى أستجير بهن وأيدننى جميعًا فى أن هذا ظلم لى بعد أن سففْتُ التراب فى بناء هذه الشقة لأخلو فيها لنفسى فى حين أن أخى لم يفعل شيئًا فى حياته ولم يكافح يومًا واحدًا وقد فصل من الكلية ولم يكن يساعد أبى فى محله الذى يتكسب منه رزق الأسرة وعاتبتْ شقيقاتى أمى فبكت وسألتهن: وأين نذهب نحن! ولم يكن هناك مفر من الإذعان وتزوج أخى فى شقة الأسرة بعد أن قدم له أبى المهر والغسالة الفول أوتوماتيك والسجاجيد الفاخرة والسخان، وقدمت له أمى طقم الصينى الخاص بها والذى لم تفز إحدى بناتها بقطعة منه وأكثر من ذلك فقد سلمه أبى المحل الذى يتعيَّش منه! فضلاً عما خلفه لأبى من ديون لا حصر لها بسبب الزواج وكل شىء يهون لأنه الولد.. ولا يصح كما تقول أمى وأبى أن يتعب فى شىء! واستقر شقيقى فى المسكن الواسع وتنازلت لأبى وأمى عن الغرفة الوحيدة بشقتى

ونمت على الكنبة فى الصالة.. وشيئًا فشيئًا بدأ الكازينو القديم يفتح أبوابه ويستقبل رواده من التاسعة صباحًا حتى الثانية بعد منتصف الليل، وإذا جاء إلينا ضيوف من خارج المدينة التى نعيش فيها ألحت عليهم أمى أن يمكثوا لدينا بضعة أيام! فيبيت الجميع على الأرض وفوق الكنبة دون أن تفكر مرة فى أن تهدى بعض هؤلاء الضيوف لأخى فى شقته الواسعة حتى لا تعكر مزاجه! لقد عدت إلى أسوأ مما كنت فيه قبل سنوات.. فلقد كنت أعيش من قبل على أمل واحد هو الانفراد بنفسى.. والآن لم يعد لدىَّ حتى هذا الأمل.. وقد عُدْت للتشرد فى أيام عديدة حين أضيق بحياتى بين بيوت صديقاتى.. وعجزت عن مواصلة الدراسة بالمعهد حتى أنى أفكر فى تقديم اعتذار عن عدم دخول امتحان البكالوريوس هذا العام مع أن الدراسة هى الشىء الوحيد الجميل فى حياتى.. فماذا أفعل يا سيدى؟ إننى أرجوك ألا تقل لى "وبالوالدين إحسانًا" فهما لم يُحسنا إلىَّ مع الأسف ولا تُذكرنى بما قاله الرسول ﷺ عن الأم والأب، فالرسول أيضًا هو الذى قال: اعدلوا بين أبنائكم ولو فى القُبل، وإنما أرجوك أن تقول لى شيئًا يبرد من نارى.. فأبى يقول حين يأتى ذكرى.. ربنا يشفيها فهل أنا مريضة حقًا؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

لا يا سيدتى لست مريضة ولا مُغالية فى ضيقك بما فعل أبواك حين

حرماك من خصوصيتك وهدوئك فى مسكنك الصغير الذى كافحت هذا الكفاح المرير لتحقيق حلمك فيه. ولا علاقة لذلك أبدًا ببرٍّ الأبوين أو بحقوقهما على الأبناء، إذ لو لم يكن لهما مأوى سوى مسكنك لما كان لك أن تتضررى من انتقالهما للإقامة معك حتى ولو دعيا إلى مسكنك كل يوم كلَّ ضيوف الأرض، فالبر بالوالدين يطالبنا فى هذه الحالة بألا نتردد لحظة فى التضحية براحتنا وخصوصيتنا من أجلهما حتى ولو ضقنا بذلك فى أعماقنا، أما أن يضعا نفسيْهما فى مثل هذا الوضع باختيارهما.. ولمجرد أن يحلا مشكلة ابنهما المفضل على حسابك ورغما عن إرادتك.. فهذا أمر آخر بكل تأكيد. إذْ إننا حتى لو سلمنا لهما بحقهما فى أن يخصا أحد أبنائهما بأفضل عطائهما وهو ماليس من حقهما شرعًا ودينًا فليس من العدل ولا من الإنسانية أن يهبا لأحد أبنائهما "أفضل العطاء"، على حساب "أتعس الأبناء" الذين لم ينالوا منهما بعضه حين كانوا فى أشد الحاجة إليه. ولا من العدل أيضًا أن يعطى الأبوان كل ما يملكان لأعز الأبناء ثم ينتظران من "غير الأعزاء" أن يتحملوا وحدهم كل المسئولية عنهم مع إعفاء "المفضَّل" فى نفس الوقت من كل تبعة أو مسئولية عنهما.

فالأمر بالعدل بين الأبناء مطلق وشامل.. من العَطية إلى القُبْلة.. ولم يستثن حتى الابن العاق من حقه فى العطية والمساواة فى الحقوق رغم عقوقه لأن كل خطيئة حسابها على حدة.. لكن المؤسف حقًا هو

أن من يحيدون عن العدل والمساواة فى معاملة أبنائهم يطالبون عادة غير المميزين من أبنائهم بأن يقدموا دائمًا قرابين التضحية للابن "المختار" مصحوبة "بابتهاجهم" العارم باغتصابه لحقوقهم وربما كان فى أغلب الأحوال أكثر الإخوة أنانية وأقلهم عاطفة تجاه أخوته وأقل الأبناء جميعًا رفقًا وحنانًا فى نفس الوقت بأبويه! ولا عجب فى ذلك لأن ريِّ الشجرة بماء الظلم والتمييز لا يمكن أن يثمر إلا ثمرة عَجْفاء مشوهة وليست سوية نفسيًا وغير قادرة على العطاء المادى أو العاطفى لأقرب البشر إليه. وهل ينتظر الآباء ثمرة أفضل من ذلك من أبناء استحلّوا لأنفسهم اغتصاب حقوق إخوتهم بدعوى أنها عطية لهم منهم وهم يعلمون جيدًا بطلانها وحرمتها ما لم يستسمحوا شركاءهم فيها وهم أخوتهم فيسمحون لهم بها بنفس راضية ودون أدنى ضغط أدبى أو نفسى أو حرج أو حياء؟ إنها خطيئة متبادلة بين الآباء وبين أبنائهم المميزين وحساب كل طرف عنها مع ربه عسير، ويكفيها إثمًا وبؤسًا أنها تُفسد صفاء العلاقات الأخوية وتنفث فيها فحيح الحقد والضغينة والمشاعر العدائية خلافًا لما أرادها الله سبحانه وتعالى عليه من صفاء ومحبة وطُهْر. ألم يتخلص إخوة يوسف من أخيهم لمجرد أنهم قد توهموا أن أباهم يعقوب يُؤْثره بحبه وليس بعطاياه؟ فما بالك إذن بما يفعله إيثار أحد الأبناء بالحب والتدليل وصكوك الغفران المفتوحة لكل خطاياه وأخطائه، ثم بعد ذلك كله بالعطايا والمزايا

المادية التى تنعكس على حياة غيره من الإخوة بالعناء؟ لهذا أكررها مرة أخرى إن إثم الموهوب له الذى يستحل قبول ما يعلم جيدًا أن إخوته قد حُرموا منه أو لم يُعطوا مثله أو لم يسمحوا به راضين لا يقل شناعة عن إثم الواهب نفسه، وليس العذر بالجهل بحرمة ذلك وبطلانه مقبولاً من جانب كلا الطرفين لأن العدل والمساواة بين الأبناء فطرة لا تحتاج إلى تعليم ولا محاضرات دينية، ولأن الواهب والموهوب له يدركان دائمًا بالغريزة والإحساس أنهما يفعلان ما يتحرجان من مواجهة باقى الإخوة به ويميلان عادة لتكتمه عنهم، ولو كان أمرًا لا شبهة فيه لما تكتماه أو حاولا ذلك وفى حالتك أنت فقد تعذر تكتمه لأنه واضح للعيان ولو أمكن ذلك لما تردد أبواك وأخوك فيه.

تسألينني بعد ذلك ماذا تفعلين وأكاد أجيبك صادقًا إنى لا أعرف حلاً متاحًا وميسورًا لمشكلتك فى المدى القريب.. فتكرار الحلم الجرىء مرة أخرى ضرب من المستحيل فى مثل ظروفك.. والمعجزة لا تتحقق دائمًا مرتين، لكن لماذا لم يفكر أبواك وهما مشغولان بتدبير تكاليف زواج ابنهما المفضل ـ إلى حد الاستدانة ـ فى إضافة "المسكن" أيضًا إلى شواغلهما.. ولماذا لم يشركاك معهما فى تفكيرهما فلربما أسفر التفكير المشترك عن مشروع جديد لإضافة حجرة جديدة بحمام لمسكنك تستقلين بها، ويمكن أن يكون لها باب خارجى على السطح

يحقق لك الخصوصية التى تفتقدينها ولو أدى ذلك إلى إضافة بعض الديون الجديدة إلى ديون الزواج؟

وما داما لم يفعلا فلماذا لا يفكران فى ذلك الآن ولو تطلب تنفيذه سنوات أخرى.. ولماذا لا يشاركهما الابن العزيز المسئولية بدفع قسط شهرى يُسهم فى إضافة هذه الغرفة باعتباره أحد المسئولين الرئيسيين عن معاناتك؟ إن ذلك لو تحقق قد يكون حلاً لمشكلتك الحالية بعد فترة ملائمة.. لكنه ليس الحل النهائى لها.. فالحل النهائى لمشكلتك هو أن تبدئى حياة جديدة مرة أخرى يكون لك فيها زوج ومسكن مستقل واهتمامات جديدة تخفف عنك عناء الوحدة والغربة وسط الزحام.. وأيضًا مرارة الإحساس بالفشل فى حياتك العائلية الأولى.. وذلك فى تقديرى من أهم أسباب عزلتك ونفورك من مجتمعك العائلى وزحامه وضيوفه وأطفاله.. فالوحدة المزمنة كما قد تورث الإنسان حنينا دافقًا للصحبة والأهل والبشر، قد تورثه فى حالات أخرى نفورًا من الصحبة وعزلةً وعجزًا عن الاندماج فى العلاقات العائلية والاجتماعية، فتصبح فى هذه الحالة "توحدًا مع الذات" وانفصالاً عن الآخرين وليست مجرد وحدة. فراجعى نفسك فى ذلك يا سيدتى.. فأنت فى حاجة إلى استعادة قدرتك على الاندماج فى المجتمع العائلى مهما كانت تحفظاتك عليه، ومع الحفاظ على القدر الصحى المأمون من الاستقلالية والخصوصية، أما دراستك فهى ملجؤك الأخير للخروج

من حالة الإحباط العام التى تعيشينها الآن ونصيحتى لك ألا تهمليها أبدًا مهما كانت الأسباب وألا تعتذرى عن عدم دخولك امتحان هذا العام فأنت فى حاجة إلى المزيد والمزيد من الانشغال بالاهتمامات الجديدة والمفيدة وليس العكس.. وشكرًا.

* * *

أكتب إليك رسالتى هذه بعد أن قرأت رسالة "الحلم الجرىء" للسيدة التى كافحت لتبنى لنفسها مسكنًا مستقلاً عن أبويها، فتنازل الأبوان عن مسكنهما لشقيقها ليتزوج فيه وانتقلا للإقامة معها فى شقتها وتشكو من ضيوفهما وافتقادها للخصوصية.. وأريد أن أروى لهذه السيدة ولك قصتى مع الحياة.. فلقد نشأت يتيمة الأبوين أعيش مع أختين وشقيق أنا أكبرهم فى رعاية خالى.. وحين شارفت على السادسة عشرة من عمرى زوَّجنى خالى لشاب يكبرنى بـ 15 عامًا، وأنا مازلت تلميذة بالمرحلة الإعدادية ولم أعترض على هذا الزواج ولم أنزعج له بل وجدت فيه تخفيفًا عن خالى الذى تحمل مسئوليتنا بعد وفاة أبوينا، وانتقلت إلى بيت زوجى بنفسية لم تعرف من الدنيا سوى الآلام ومستعدة لتقبُّل كل ما تأتى به الحياة من خير أو شرٍّ. وواصلت تعليمى فى المدرسة الإعدادية وأنا فى بيت زوجى، وبعد ثمانية شهور فقط من الزواج اكتشفت أن لزوجى طفلة عمرها 5 سنوات من زوجة سابقة انتقلت إلى رحمة الله.. فلم أغضب لذلك بل ضممتها إلى بيتى.. ووجدت فيها صورة مكررة من طفولتى كطفلة يتيمة فأغدقت عليها من حنانى وعطفى ولم تختلف علاقتى بها عن علاقتى بإخوتى الصغار، فكنت ألعب معها وأشعر بأن زوجى هو أبونا نحن الاثنتين.

ورضى زوجى عن ذلك.. واطمأن خاطره من هذه الناحية. وخلال عامين من زواجى أنجبت طفلاً ثم طفلة، وأصبحت أسرتى مكونة من ثلاثة أطفال صغار قبل أن أبلغ التاسعة عشرة ولم يبخل علىّ زوجى بشىء وساعدنى فى مواجهة الحياة وساعد إخوتى أيضًا فى تعليمهم فواصلوا التعليم حتى حصلوا على شهادات متوسطة وعملوا، وحصلت أنا أيضًا بعد بضع سنوات على شهادة متوسطة وعملت بإحدى الهيئات الحكومية، وبعد أن كبر أبنائى قليلاً عُدْتُ للدراسة من جديد وتقدمت لامتحان الثانوية العامة "منازل" وحصلت على الشهادة والتحقت بإحدى كليات التجارة.

ثم تعرَّض زوجى فجأةً لحادث تصادم مروِّع أُصيب فيه بإصابات بالغة وتحطمت سيارته التى كان يعتمد عليها فى العمل بمشروع للنقل مع إخوته. وفقدت أسرتى موردها الأساسى وأصبح مرتبى الصغير هو مورد الدخل الوحيد لنا وأجريت لزوجى عمليات جراحية عديدة خرج بعدها إلى البيت وبقى فيه شهورًا طويلة عاجزًا عن الخروج للعمل. وحزنت لما أصاب زوجى من غدر الدنيا وتذكرت له ما قدمه لى ولإخوتى حين كان قادرًا على الكسب والعطاء، خاصة وهو لم يتزوجنى فقط وإنما تولى تربيتى أيضًا وتربية إخوتى بعد ارتباطه بى، فنهضت لأردَّ له ديْنه علىَّ وعلى إخوتى ولم أدع عملًا صغيرًا أستطيع أن أقوم به لتوفير بضعة جنيهات دون أن أفعله، وكلما أعوزتنى الحاجة

بعث شيئًا من أجهزة البيت المنزلية حتى أتيت عليها جميعا وعلى بعض الأثاث أيضًا وتعلمت الخياطة لأوفر بضعة جنيهات أخرى، وبدأت أتعلم الإنجليزية والكمبيوتر لأستطيع أن أجد عملاً إضافيًا بعد الظهر أكمل به احتياجات زوجى وأولادى. وذات يوم احتجت إلى بضعة جنيهات وضاقت بى الحياة فغادرت بيتى وقت الأصيل إلى الفكهانى القريب لأقترضها منه، ورأتنى سيدة فاضلة من جيراننا فى هذا الموقف والجميع يعرفون ظروفى، فعرضت علىَّ مساعدتى عن طريق زوجها فى إيجاد عمل لى فى الخارج حتى يستردَّ زوجى صحته ويخرج للعمل وصدقت السيدة فى وعدها، فبعد شهور وفر لى زوجها بالفعل عملاً كموظفة بمستشفى خاص بإحدى الدول العربية وتقدمت بطلب أجازة دون راتب للهيئة التى أعمل بها فرفضته.. فلم أتردد فى السفر معرِّضة نفسى للفصل بسبب الغياب وقلت لزوجى إننى لا أريد منه أن يرهق نفسه بأى عمل خلال سفرى بل وألا يغادر بيته حتى لا يتعرض لمكروه بعد العمليات الجراحية العديدة التى أجراها، وسوف أرسل إليه من مقر عملى كل ما يزيد على احتياجاتى الضرورية هناك، وسافرت إلى مقر عملى وادخرت كل قرش استطعت ادخاره ومارست الخياطة لزميلاتى فى المستشفى بأجر بسيط وبدأت أرسل لزوجى بانتظام مبلغًا شهريًا إلى جانب ما يتجمَّع لدىَّ من مدخرات حتى استطاع شراء أثاث جديد للبيت وكل الأجهزة الضرورية التى بعناها خلال المحنة. وعدت فى الأجازة بعد

عام طويل محمَّلة بالهدايا لزوجى وأولادى وسعدت برؤيتهم، لكنى أحسست بأن زوجى مرهق بأعمال البيت وخدمة الأولاد الصغار التى يقوم بها وحده وأن ملابس الأطفال ليست نظيفة.. ونظافتهم الشخصية ليست كما أحب فقررت أن أرتب لهم خلال غيابى خدمة أسبوعية منظمة عن طريق سيدة أردت ألا تكون مجرد شغالة بالمعنى المعروف، وإنما ربة بيت محترمة وتحتاج إلى زيادة دخلها عن طريق هذا العمل.. وتستطيع أن تحضر إلى بيتى مرة فى الأسبوع فترعى أولادى وتغسل ملابسهم وتعد لهم طعام الأسبوع، وبحثت عن مثل هذه السيدة حتى وجدتها فى شخص أرملة من أقارب بعض جيراننا واتفقت معها على أداء هذا العمل.. واسترحت لما لاحظته عليها من أمومة وحنان بأولادى، فضلاً عن مظهرها الراقى. وسافرت مطمئنة إلى راحة زوجى ورعاية أولادى، وفى بداية العام التالى أرسلت لزوجى حوالى سبعة آلاف جنية ليجدِّد بها سيارته جمعتها من الخياطة والمرتب وادخار الجمعيات مع زميلاتى، وواظبت بعد ذلك على إرسال المبلغ الشهرى المنتظم، وقرب نهاية عامى الثانى فى العمل تعرضت لمشكلة طارئة سببها باختصار زوج السيدة صاحبة المستشفى الذى ظهر فجأة بعد مرضها ليقوم بعملها نيابة عنها.. ولم يعجبه "تزمتى" الأخلاقى معه فحنق علىَّ واستصدر أمرًا بترحيلى فى نفس اليوم، وقبل سفرى ساعدنى رجل مصرى فاضل يعمل هناك فى استخلاص كل ما استطاع التوصل إليه بالجهود الودية من مستحقاتى

ومكافأة نهاية الخدمة.. وكانت حوالى أربعة آلاف جنيه مصرى تسلمتها وحملت حقيبتى وركبت الطائرة فى الليل عائدة إلى بيتى وأسرتى على غير انتظار، ووصلت الطائرة إلى القاهرة فى الحادية عشرة مساء وركبت سيارة أجرة إلى بيتى ووصلت إليه قرب منتصف الليل وتهيأت لوقع المفاجأة على زوجى وأولادى وسمعت وأنا أقف أمام باب الشقة صوت التليفزيون من الداخل فاطمأننت إلى أن زوجى وأولادى مستيقظون ثم دققت الجرس وانفتح الباب عن زوجى يرتدى تريننج سوت أنيق أرسلته إليه من هناك.. وفوجىء بوجودى.. وفوجئت أنا باضطرابه غير المتوقع.. وحييته ودخلت أحمل حقيبتى فرأيت مشهداً لن أنساه ما بقى لى من العمر.. فلقد رأيت السيدة الأرملة التى رتبت حضورها لرعاية أولادى مرة كل أسبوع تجلس فى استرخاء بفستان بيت جميل أمام التليفزيون وحولها أولادى الثلاثة يجلسون فى اطمئنان وأمامهم طبق مملوء باللب والسودانى.. والأطفال ملابسهم نظيفة وصحتهم جيدة.. وحالتهم النفسية طيبة.. وليس فى المشهد شىء يختلف عن مشهد سهرة عائلية سعيدة فى بيت أسرة مستقرة سوى أن الأم والزوجة هى التى تقف أمامه مذهولة وفى يدها حقيبة سفر.. وأن الأخرى "الغريبة" هى التى تتصدره!

واستعدت تنبهى سريعا وصرخت فيها سائلةً عن سبب وجودها

فى بيتـى فى مثل هذه السـاعة مـن الليل فنـظرت إلىَّ صامتة ولم تُجب ولم تتحرك من مكانها وإنما تحرك أولادى وأسرعوا إلىَّ يحتضنوننى فاحتضنتهم وأنا غائبة عنهم بمشاعرى وفكرى.. وصرخت متسائلة عن معنى ما أراه.. فازداد اضطراب زوجى وطلب منى عدم الصياح واصطحابـه للغرفة الداخليـة ليشرح كل شىء.. وشرح لى كل شىء يا سيدى وهو أنه قد تزوج من هذه السيدة منذ شهور. وأننى "السبب" فيما حدث والمسئولة عنه وليس من حقى الاعتراض عليه، خاصة أننى قد نسيت احتياجاته "الإنسانية" فى صراعى مع الحياة! ونظرت إلى المرأة الجالسة فى الأنتريه فتنبهت للمرة الأولى إلى أنها "امرأة" بكل معنى الكلمة وأن زوجى رجل فى النهاية.. لكننى لم أشعر بالغيرة عليه من قبل.. ولم ينس زوجى أن يذكِّرنى بأنه صاحب فضل علىّ وعلى إخوتى ولا داعى للفضائح فغصَّ حلْقى بالكلام وطلبت منه الطلاق وغادرت البيت مصطحبة أولادى معى فى الثالثة صباحًا إلى بيت خالى.

وحصلت على الطلاق بعد أيام فى هدوء وبلا منازعات وتنازلت لزوجى عن كل حقوقى عليه، وبالطبع عن كل ما أرسلته لزوجى خلال فترة عملى فى الخارج والذى جدَّد به أثاث البيت واشترى الأجهزة المنزلية واشترى سيارة أخرى مستعملة شارك بها من جديد

فى مشروع النقل.. ويزيد مجموعه على ثلاثين ألف جنيه.. ومع ذلك فلم أهتز لفقدها وإنما هزنى حقا مشهد أولادى وهم يجلسون فى اطمئنان حول الأخرى كأن هذه هى حياتهم العادية.. التى اعتادوها منذ زمن طويل.

وبالمبلغ الصغير التى حصلت عليه من مستحقاتى عند العودة حصلت على شقة صغيرة من غرفتين بأحد الأحياء النائية وبدأت أواجه الأمر الواقع بامتثال لما شاءته لى الأقدار. ولم يتخل عنى الله سبحانه وتعالى فى محنتى بل يسَّر لى طريق العمل بسهولة غريبة. فلقد أعلنت الهيئة التى كنت أعمل بها قبل سفرى عن مسابقة وظائف فتقدمت إليها ونجحت.. وعُينت بها كموظفة جديدة وبعد تعيينى ضمت لى مدة خدمتى السابقة بها. كما عدت أيضًا لاستئناف دراستى الجامعية ونجحت فى امتحان السنة الثالثة ووصلت هذا العام إلى السنة النهائية.. أما أولادى الثلاثة ومنهم ابنة زوجى التى أعتبرها ابنتى فهم الألم الذى لم تداوه بعد الأيام فى حياتى.. فبعد انتقالى لشقتى الجديدة لم أستطع أن أوفر لهم مستوى الحياة الذى اعتادوه فى بيت أبيهم كما أنهم أكثر ارتباطًا بأبيهم الذى عاش سنوات بعد الحادث فى البيت متفرغًا لهم.. فضمَّهم أبوهم إليه وبعد أن كانوا يقيمون معى ويذهبون إليه فى نهاية الأسبوع أصبحوا يقيمون معه ويأتون لزيارتى مرة كل أسبوع، ورغم أنى لست قلقة كثيرًا بشأنهم لأن "الأخرى"

وهذه من عجائب الدنيا التى لم تتكرر كثيرًا إلا معى.. حنونة معهم وتحبهم بصدق ويحبونها ولا يشعرون معها بغربة.. وهم وسط الأهل والأصدقاء فى حين يضيقون بمسكنى البعيد عن كل أصدقائهم وأقاربهم، والذى يؤلمنى حقًا يا سيدى هو أننى أحس بأننى لا آخذ من أبنائى الثلاثة بقدر ما أعطيتهم من حبى وحنانى وعطائى طوال السنوات الماضية. أما زوجى فلست أحمل له مشاعر عدائية رغم ما حدث بيننا ولم أنس له فضله على أخوتى ولا أعتبره قد أساء إلىّ طوال عشرتى معه إلا فى هذه المفاجأة القاسية فقط عند عودتى من الخارج والتى يفسرها هو بأننى نسيت فى صراعى مع الدنيا أننى زوجة، ومع أن هذا الصراع كان من أجله ومن أجل أولادى إلا أنى أجدنى فى أحيان كثيرة أُقِرُّه على ما قال وألوم نفسى لنسيانى أنوثتى معه، والمشكلة أننى بعد كل ما مرَّ بى من أحداث مازلت فى السادسة والثلاثين من عمرى، ولهذا تقدم لى أكثر من رجل للزواج لكنه لم يتقدم لى مع الأسف إلا رجال آباء ومتزوجون يشكون من زوجاتهم وأحدهم كان رجلاً فاضلاً وكنت على استعداد لأن أرحب به لولا أنه متزوج وأب ويشكو من زوجته أيضًا، لهذا فقد اعتذرت وقلت له: زوجى قد سُرق منى وعانيت مرارة إحساس الزوجة التى يُسلب منها زوجها ولا أريد أن أكون السارقة لزوج امرأة أخرى لعل لها عذرها فيما يشكو منه زوجها، فإن لم يكن لها عذر فيكفيها أنها قد حملت طفل زوجها فى أحشائها تسعة أشهر وتحملت عناء تربيته له.

لكنى أعانى رغم ذلك يا سيدى من الوحدة المؤلمة فى شقتى الصغيرة، وحين قرأت رسالة "الحلم الجرىء" للسيدة التى تضيق بوجود أبيها وأمها معها فى مسكنها تمنيت أن أدعوها إلى مسكنى لتلمس بنفسها أن عذاب الوحدة أقسى كثيرًا من أية مضايقات يمثلها وجود الأب والأم فى حياتها، وأفكر جديا فى أن أعرض على هذه السيدة عن طريقك أن تقاسمنى مسكنى وحياتى وأن تعتبرنى أختًا أو صديقة لها تعانى مما تعانى منه عسى أن تخفف عشرتنا المشتركة عن كل منا بعض ما نعانيه من ظروف الحياة وتقلبات الأيام.. فما رأيك فى ذلك ياسيدى.. وهل تساعدنى فى تحقيقه إذا وافقتنى فيه؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

الجسم البشرى يحارب دائمًا ضد أسباب الموت، وكذلك تفعل روح الإنسان فهى تحارب أيضًا ضد أسباب التعاسة والشقاء بوسائل مختلفة. ومن هذه الوسائل أن نكيِّف آراءنا وحياتنا بما يتلاءم مع الواقع الذى فُرض علينا حتى ولو كرهناه.. وأن نتقبل متغيرات الأيام مهما كانت مؤلمة بروح عملية تتجاوز موقف التجمد أمام ما يؤلمنا والاكتفاء باستنكاره والتعجب منه إلى مرحلة الحركة والبحث عن حلول لمعاناتنا ومشاكلنا، شأننا فى ذلك ـ كما يقول الفيلسوف الفرنسى ديكارت ـ شأن من يضل الطريق فإنه يُنصح بألا يتوقف

حيث اكتشف فقده للطريق وإنما يستمر فى السير إلى الأمام فى خط مستقيم ذلك أنه إن لم يصل إلى غايته فسوف يصل على الأقل إلى نقطة أفضل من تلك التى توقف فيها حين ضلَّ الطريق. وهذا ما فعلته أنت أيضا يا سيدتى بعد أن توقفت ذاهلة أمام مشهد السهرة العائلية المذهل.. فتجاوزت الآلام.. وتخلصت من حياة رأيت أنها لم تتكافأ مع ما قدمت لها من عطاء وإخلاص وتضحية. واتخذت لنفسك سكنًا مستقلاً.. وعدت للعمل والدراسة وواجهت غدر الأيام بروح واقعية.. بل ومتسامحة إلى حد كبير. ولا لوم عليك فى شىء من ذلك، فإن كان ثمة لوم فهو على مَنْ لم يحفظ لك عهدك ولم ينتصر على ضعفه البشرى خلال غيابك، ولم يقدر لك أنك قد اضطررت إلى هذا الغياب مُكرهة لإعالته وإعالة أسرتك بعد أن عجز هو لظروفه الصحية عن الاستمرار فى إعالتها.. لهذا كله فليس عدلاً أن يعفى نفسه من كل لوم ويصبه عليك وحدك محمِّلا إياك مسئولية ما جرى بدعوى أنك فى غمار صراعك مع الحياة لإعالته وإعالة أبنائه قد تغافلت لبعض الوقت عن أنك امرأة، فحتى هذا السبب رغم مشروعيته لا يكفى للغدر بك على هذا النحو البشع.. ولا للاستمتاع بثمرة شقاء زوجته المكافحة.. مع زوجة أخرى لم تنس أنها امرأة.. وليس لديها ما يشغلها عن هذه الحقيقة.. وما كان أسهل تدارك هذا التصور بلفت النظر والرغبة المشتركة فى الحفاظ على الأسرة وإصلاح الأخطاء. لهذا فلست أتوقف

لحظة أمام هذا الادعاء.. لكنى أتوقف فعلا أمام مسئوليتك الأخرى عن زرع هذا الخطر من البداية فى حياة زوجك وأسرتك خلال غيابك. لقد كان وضعًا خاطئًا من البداية يا سيدتى أن تغرسى هذه الأرملة التى اكتشفت بعد فوات الأوان أنها امرأة بكل معنى الكلمة فى بستان زوجك، وما كان لك أن تفكرى فيه من الأصل مراعاة للأصول واتقاء للشبهات وحماية لزوجك من الإغراء، لكنه يبدو لى أن زواجك فى سن السادسة عشرة وأنت صبية يتيمة محرومة من حنان الأب من زوجك المجرِّب الذى تزوج قبلك.. وتولى كما تقولين "تربيتك" وتربية إخوتك قد رسخ فى أعماقك نظرتك إليه كأب أكثر منه كزوجٍ يُخشى عليه من الإغراء. ولعل هذا يفسر لك ما تقولينه من أنك لم تشعرى بالغيرة عليه قبل هذه المحنة مرة واحدة، ويفسر لك أيضًا قيامك بتكليف هذه الأرملة بشئون زوجك وأطفالك فى غيابك بإحساس الابنة التى تريد أن تضمن لأبيها حياة مريحة فى غيابها وليس بإحساس الزوجة التى لا تستريح أبدًا لوجود مثل هذه الأرملة المغرية ذات المظهر الراقى فى حياة زوجها وأبنائها.. وهى غائبة عن بيتها. وأتصور أن هذا هو الخطأ النفسى الوحيد فى علاقتك بزوجك مع تسليمى تمامًا بحسن نيتك وطيبة قلبك وأصالة معدنك التى دفعتك للنهوض بمسئولية الأسرة كاملة وحرمان نفسك من ثمرة عملك فى الغربة لإرسالها كلها إلى زوجك طوال فترة عملك فى الخارج، لكنه

قد حدث ما حدث ولم يعد يجدى النواح على ما ضاع إلا مزيدًا من الحسرة والألم.. ومن المؤسف حقا أنك ممن كتبت عليهم الأقدار أن يُصارعوا الحياة وتصارعهم منذ الصغر ولم يفوزوا حتى الآن بالأمان والسعادة رغم العناء والتضحيات فكأنما انتقلوا من الميلاد إلى الشقاء بغير المرور بمتع الحياة. وأمثال هؤلاء المحكومين بأقدارهم تضعف استجابتهم لدواعى الابتهاج وتفسد عليهم رواسب المرارة أحيانا ما يتاح لهم من أسباب العزاء ويخيل إلىَّ يا سيدتى أن هذه المرارة هى السر فى إحساسك بالأسى تجاه أبنائك وتصورك أنهم أكثر ارتباطًا بأبيهم منهم بك.. وأكثر ارتياحًا فى حياتهم فى بيته معه ومع "الأخرى" من حياتهم معك، وأنك لا تحصلين منهم بقدر ما أعطيتهم.. وهو إحساس مؤلم أرجو ألا تزيدى به من أسباب معاناتك. فالحق أننا جميعاً نكاد لا نحصل من أبنائنا على قدر ما نقدم لهم من عطاء وإنما نعطيهم بقدر ما نحبهم.. وما أعطانا آباؤنا ونحصل منهم غالبًا على ما تسمح لهم به طبيعتهم بتقديمه لنا مع اختلاف الأوضاع بيننا، أما الفارق بين الأخذ والعطاء فإنهم يدفعونه عادةً حسابًا مؤجلاً إلى أبنائهم هم فى المستقبل.. فهكذا فعل آباؤنا ونفعل نحن وسيفعلون هم.. وهكذا تدور الدائرة دائمًا ولا لوم على أحد فى اختلاف المشاعر الغريزية بين الآباء والأمهات وبين الأبناء. ومن الحكمة دائمًا ألا ننتظر من الجميع حتى ولو كانوا أبناءنا الكثير

لكى نسعد بالقليل الذى يقدمونه لنا ونرضى عنه.. فاسعدى أنت أيضًا بما يحمله لك أبناؤك من حب لا شك فيه.. ولا تلوميهم على ما لا حيلة لهم فيه؛ إذْ ليس من العدل أن نلوم الصغار على غدر الكبار بنا أو ضعفهم البشرى معنا؛ وإنما ينبغى أن نلوم مَنْ وضعهم أمام هذا الاختيار القاسى، وأضاف هذا العبء النفسى الجديد عليهم، وعلى أية حال فإن فكرة استضافتك للسيدة كاتبة رسالة "الحلم الجرىء" فكرة طيبة.. ولا بأس أبدًا بالتعزِّى عن الوحدة والهموم بدفء الصحبة الإنسانية والمشاركة الوجدانية خاصة ممن تجمعهم بنا وحدة الظروف والمعاناة وكل ما ييسر من حياة الإنسان ويخفف من آلامه بطريق مشروع مطلوب ومرغوب، لكن هذا الوضع سيبقى حلاً مؤقتًا لكليكما إلى أن يأذن الله بالحل الدائم السعيد وهو الزواج مرة أخرى بإذن الله.

* * *

قرأت رسالة "سهرة عائلية".. للزوجة التى أُصيب زوجها فى حادث وقبع فى البيت بلا عمل فكافحت هى لإعالته وإعالة أبنائه وعملت فى الخارج عامين أرسلت إليه خلالهما معظم عائد عملها.. ثم تم ترحيلها وعادت فجأة للقاهرة فوجدت زوجها قد تزوَّج من الأرملة الطروب التى كلَّفتها برعاية أولادها خلال سفرها.. ووجدت "الأسرة" مكتملة فى سهرة عائلية هادئة أمام التليفزيون، فصدمت صدمة العمر وغادرت البيت وحصلت على الطلاق وهى تتعجب مما تفعله الأيام ببعض القلوب.. وأريد أن أروى لك ولهذه السيدة قصتى أنا أيضًا مع الأيام، فأنا رجل فى الخامسة والأربعين من العمر، نشأت فى أسرة عادية متوسطة الحال بين أب طيب وأم حنون وثلاث شقيقات، ولأننى جئت إلى الحياة بعد ولادة متعسرة، فقد كانت أمى شديدة الخوف علىَّ فى طفولتى وتصحبنى معها فى كل مكان تذهب إليه فنشأت على حنان الأم والأب والشقيقات، وكنت دائمًا محور اهتمامهم جميعًا باعتبارى الولد الوحيد، وحين كبرت لم تكن لى أية تجارب عاطفية حتى بعد أن تخرجت وعملت وبلغت الثلاثين من عمرى.. واضطرت أمى لأن تبحث لى بنفسها عن عروس، ورشحت لى ابنة إحدى صديقاتها فى العشرين من عمرها.. والتقيت بها فأعجبنى هدوؤها وتحفظها معى فى فترة الخطبة..

وتطلّب إعداد شقة الزوجية التى اشتريتها بضعة شهور، لكنها أقنعتنى بأن نتزوج فى شقة أبى وأمى لكى نستفيد بثمن الشقة الأخرى فى حياتنا، خاصة أن شقة أبوىَّ ستؤول لى فى النهاية بعد زواج شقيقاتى، وسعدت برغبتها وتعجّلنا الزواج وبعت الشقة الأخرى واشتريت بنصف ثمنها سيارة صغيرة مستعملة واشتريت لزوجتى بالباقى ذهبًا ومصوغات.

وبدأنا حياتنا الزوجية وأنجبنا طفلة وسرعان ما احتدمت المشاكل بين زوجتى وأمى وتحولت الحياة فى بيتنا إلى نار مشتعلة يتعذر احتمالها، وحرصًا على مصلحة طفلتى ورعايةً لكرامة أمى فقد بدأت البحث عن عمل فى الخارج لأستطيع شراء شقة مستقلة لنا. وسافرت للعمل بإحدى الدول العربية واصطحبت معى زوجتى وطفلتى.. وعشنا فى الغربة أجمل سنوات العمر أنجبت خلالها طفلاً آخر وكانت زوجتى طوالها نعم الزوجة المحبة الحريصة على مستقبلنا معا. وبعد سنوات أقنعتنى زوجتى بشراء شقة لنا فى مصر فاشتريت شقة فاخرة ووضعت فى ثمنها معظم مدخراتى خلال خمس سنوات من الغربة. وأصبحنا نعود إليها فى الأجازات.. وبعد ذلك أقنعتنى زوجتى بعدم الإسراف فى الإنفاق لكى نستطيع أن نؤثث شقتنا بالأثاث المناسب ونؤمِّن مستقبل الطفلين.. وقدرت لها حرصها على مصلحة الأسرة واستجبت لها وحرمت نفسى من كل متع الحياة لادخار المبالغ

المطلوبة لذلك.. وادخرنا بالفعل مبلغًا لا بأس به ثم وقعت كارثة شركات توظيف الأموال فأقنعتنى زوجتى بأنه من الحكمة أن تكون مدخراتنا فى يدنا باستمرار تحسبا للتقلبات وبأن الأفضل أن تكون دائمًا فى شكل مصوغات ذهبية تزداد قيمتها مع الأيام ونستطيع التصرف فيها حين نشاء.. واقتنعت برأيها.. بل ورأيت فيه عين الحكمة فأصبحت كل مدخراتى تتحول أولاً بأول إلى مصوغات ذهبية لزوجتى.. وواصلت العمل فترتين يوميًا بلا كلَلٍ لأُلبى طلبات الأبناء وأؤمن مستقبل الأسرة، وعادت زوجتى للإقامة فى مصر وإدخال الطفلين للمدرسة.. وأصبحت حياتى معسكر عمل متصلاً لا يخفف من جفافه سوى حضور زوجتى والطفلين إلى مقر عملى فى الأجازات.. ومضت سنوات على هذه الحال.. ثم لاحظت أن زوجتى قد بدأت ترفض السفر إلى مقر عملى فى الأجازات وتتهرب منه.. وأنها بدأت تكثر من الشكوى من متاعب رعاية الطفلين وحدها. فاقترحت عليها أن تلحق بى مع الطفلين وتُقيم معى إقامة دائمة لكنها رفضت ذلك بحجة مدرسة البنت.. وبعد فترة أخرى اقترحت زوجتى أن أضم الطفل إلى بيتى فى الغربة حتى تستطيع هى أن تتفرغ لطفلتنا التى ستدخل امتحان الشهادة الابتدائية بعد شهور، فاصطحبت الطفل معى فعلاً وألحقته بمدرسة خاصة مكلفة. وانتظرت على أحرِّ من الجمر أداء ابنتى للامتحان لكى يجتمع شمل

الأسرة من جديد فى مقر عملى خلال الأجازة الصيفية فحصلت ابنتى على الشهادة.. ودعوت زوجتى للسفر إلىَّ فإذا بها ترفض ذلك رفضًا نهائيًا.. وتطالبنى بالطلاق!

وهرولت عائدًا إلى مصر لأنقذ أسرتى من التصدع. ففوجئت بزوجتى تواجهنى بوجه جامد جديد لم أعرفه من قبل وكأنما كانت ترتدى فوقه قناعًا خادعًا من الحب والبراءة طوال السنوات الماضية وتطلب منى الطلاق ببرود قاسٍ، وصُعقت حين عرفت من طفلتى أنها كانت تحدثها عن "شخص آخر" فى حياتها وتحاول إقناعها بأنه أحسن من "بابا" وسيوفر لها حياة أفضل وأجمل مما أوفرها لها! وصدمت صدمة قاسية وحاولت إثناءها عن هذا الجنون وهددتها بحرمانها من الطفلين واصطحابهما معى إلى مقر عملى عسى أن تفيق من غيِّها، فإذا بها تقابل هذا التهديد بلا أى اهتمام بل وتستحسن الفكرة أيضًا. وفشلت كل محاولاتى لإعادتها إلى رشْدها وفشلت أيضًا جهود أخواتها معها واقترح علىَّ أهلها أن أنفذ تهديدى فعلاً وأصطحب الطفلين معى عسى أن تحركها غريزة الأمومة وتعيدها إلى صوابها. وعدت بالطفلين إلى حيث أعمل وألحقتهما بمدرسة خاصة تكلفنى الكثير.. وقبعت فى بيتى أرعاهما وأحاول تعويضهما عن حرمانهما من رعاية الأم.. وانتظرت أن تفعل غريزة الأمومة التى

يقولـون إنها أقـوى غرائز المرأة مفعـولها فى قلـب زوجتى وأم طفليَّ بلا جدوى! ومن حين لآخر يطلب منى الطفلان الاتصال بأمهما فأطلبها تليفونيا وأتحدث إليها محاولاً الإصلاح وأتحمل ردودها الجافة، وأعطى السماعة للطفلين فيتوسلان إليها أن تأتى إليهما لأنهما يحتاجان إليها.. فلا تستجيب لرجائهما وتوسلاتهما.. ومر عام كامل يا سيدى دون أن يرقَّ قلب هذه الأم لتوسلات طفليها وأصبحت حياتى كئيبة وموحشة.. واكتشفت كم كنت حسن النية فى علاقتى بها وبالجميع حيث إنى تربيت على حسن الظن بالناس، وتنبهت فى وحدتى إلى أنها ظلت ترفض بإصرار عدم الإنجاب بعد الطفل الثانى فأجهضت نفسها ثلاث مرات برغم اعتراضى على ذلك، واسترجعت اقتراحها علىَّ استثمار مدخراتى فى شراء محل تجارى فى مصر باسمينا.. وكيف استجبت ودفعت المطلوب مطمئنًا إلى ثقتى بها.. ثم فوجئت بها حين يئست من إعادتها إلى صوابها وطالبتها بإرجاع مالى تتحول فجأة إلى وحش ضار.. وترفض إعادة أى شىء إلىَّ بحجة أن كل شىء باسمها من الشقة إلى الأدوات الكهربائية إلى المحل إلى مدخراتى المجمدة فى مصوغاتها ومجوهراتها الذهبية.. ناهيك عما نالنى منها من إهانات بالغة أمام الطفلين حين بدأت تطالبنى بالطلاق حتى بلغت أن حاولت قتلى وجرحتنى فعلاً بسكين فى بطنى أمامهما؟ وما يؤلمنى

الآن أكثر من أى شىء آخر يا سيدى هو حالة الطفلين النفسية وأنهما قد تعلما الكراهية فى هذه السن المبكرة وما كنت أتمنى لهما أن يعرفاها وأصبحا لا يطيقان سماع اسم أمهما، خاصة بعد أن رفضا أيضًا أن يعودا للحياة معها فى مصر مادامت ترفض اللحاق بهما فى غربتى. والآن يقترب العام الدراسى من نهايته ولا أعرف ماذا سنفعل وأين نُقيم أنا والطفلان حين نعود إلى مصر حيث لم تعد لنا شقة، ولا أعرف كيف سأستطيع شراء شقة أخرى.. وهل سأستطيع الاستمرار فى عملى السنوات اللازمة لذلك أم لا؟.. وزوجتى قد أصمَّت أذنيها عن كل نداء، ومازالت تطلب الطلاق وقد بدأت تلجأ إلى المحاكم لكى تحصل عليه وتتزوج رجلاً آخر تعيش معه بأموالى التى جمعتها بشقاء السنين فى الغربة.. فكيف أستطيع أن أرى حصيلة شقاء عمرى تلهو به امرأة طائشة مع رجل آخر؟ لقد حاولت معها الكثير والكثير لكى نطوى الصفحة الماضية ونبدأ صفحة جديدة ومازلت على استعداد لأن أصفح من أجل طفلَّى لكنها ترفض كل نداء.. إننى أرجوك أن ترشدنى إلى الصواب بقلب وعقل أب لطفلين لا ذنب لهما فى أن يعيشا هذه المأساة ويخشى عليهما من أن تتفاعل آثارها داخلهما مع السنين فيفقدا القدرة على الحياة الطبيعية بعد أن اغتالت هذه المرأة البراءة والطفولة داخلهما!.

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

فى بعض الأحيان يصبح "الصواب" المتاح لنا هو أن نسلِّم "بالخطأ" ونقبل به ونتحمل نتائجه بشجاعة مهما كانت مؤلمة. وفى حالتك يا سيدى فإن الصواب الوحيد المتاح لك الآن هو أن تتعامل مع نتائج أخطائك فى الإفراط فى الثقة العمياء بزوجتك ومع نتائج خطئها فى حقك ونقضها لعهودك وتضحيتها بطفليها اتباعا لهوى نفسها. فلقد أفرطت حقا فى الاعتماد على "حكمة" زوجتك وفى رؤية عين الصواب فى كل ما تقرره بشأن حياتكما طوال السنوات الماضية. وقد استوقفتنى فى رسالتك عبارة "وأقنعتنى" زوجتى بعمل كذا فوجدتها تتكرر فيها كل بضعة سطور.. ووجدتك "تقتنع" بسهولة بكل ما أرادته حتى ولو ترتبت عليه المشاكل والمعاناة. ولا شك أنك إنسان طيب القلب لكننى أتصور أن مبالغة والدتك فى حمايتك نفسيا فى طفولتك وصباك التى امتدت إلى إعانتك على اتخاذ قرار الزواج نفسه قد أورثتك بعض ملامح الشخصية الاعتمادية التى تعجز غالبًا عن اتخاذ قراراتها المصيرية بنفسها وتستريح إلى من يتخذها له نيابة عنه.. ولأن والدتك كانت حريصة حقًا على مصلحتك وكان عطاؤها لك مخلصًا فلقد ربطت وجدانيًا بين عطاء الأم لك، وبين عطاء الزوجة لك حين انتقلت إلى حمايتها النفسية بعد الزواج فتركتها تتخذ

لك كل القرارات "وتقنعك" بها دون أن يساورك أدنى شك فى دوافعها. لهذا تعرضت لمفاجأة صاعقة حين رأيت وجه زوجتك الجامد يطالبك فجأة بالطلاق ويرفض إعادة شيء مما استلبه منك. وأنت بلا شك ضحية لتقلُّب مشاعر زوجتك وانصراف قلبها عنك إلى غيرك، لكنك ضحية أيضًا وبقدر أكبر لإفراطك فى الثقة بحكمتها وأمانتها وصواب كل ما تراه من اختيارات إلى حد أن تسلم لها شقاء سنوات الغربة كله "لتحفظه" لك فى عنقها ورسغيها وعلبة مجوهراتها، كأنها لم تسمع من قبل عن البنوك والمصارف وأوعية الادخار الآمنة العديدة ناهيك عن تسجيل الشقة والمحل باسمها دون مبرر! لقد قال الحكيم الإغريقى أيسوب منذ قرون: "فكِّر قبل أن تثق" وأنت لم تفكر.. وإنما وثقت بغير تدبر ولا تفكير مع الأسف.

وربما شفع لك فى هذا قلة تجاربك فى الحياة واستنامتك القديمة إلى التخلص من معاناة اتخاذ القرارات وإلقائها على غيرك، فحتى العقل وحده ليس كافيا لأن يحمينا من الوقوع فى الأخطاء لكنه يجنبنا على الأقل الوقوع فى الشراك المفضوحة التى لا تخفى على صاحب بصيرة.. فى حين تعلمنا تجاربنا وتجارب الآخرين أن نتفادى تكرار الأخطاء.. ونتجنب مهالك السابقين ومصارعهم بقدر الإمكان.

وفى هذا قال الشاعر صادقًا:

ألم تـر أن العقـل زيـن لصاحبـه

لكن تمام العقل طول التجارب!

ولأن الحياة سلسلة متصلة من التجربة والخطأ.. فإن علينا دائمًا أن نتعلم متى نسلم بالهزيمة وأن نحتمل الخسائر ونقبل بها بلا غضاضة لأننا ندفع دائمًا ثمنًا غاليًا لكل أخطائنا، فإذا كان خطأ زوجتك التى تخلَّت عن طفليها بشعًا، فإنك تخطىء أكثر إذا تمسكت بالأمل فى استعادتها أو فى بدء صفحة جديدة معها والصفح عما جرى. فواقع الأمر أنها قد تخطت الخط الأحمر الذى لا أمل بعده فى إصلاح ولا صفح ولا عودة، وهى على أية حال لا ترغب فى هذه الصفحة الجديدة وإنما تصر على أن تطوى كل صفحاتها معك.. وليس هناك دليل على ذلك أقوى من تفريطها فى طفليها عامًا كاملاً دون أن يرق قلبها لتوسلاتهما.. ودون أن تقبل ـ وهو الأبشع ـ عودتهما للحياة معها فى مصر، لأن هذه العودة ترتبط لديك ولديها باستمرار العلاقة الزوجية بينكما وهى لا تريد استمرارًا.. فماذا يجدى الأمل فى مثل هذه الزوجة الكارهة التى تدهورت إلى حد محاولتها إيذاءك جسديا أمام طفليك؟ إن من لا يؤثر فيها نداء الأمومة.. لا يؤثر فيها أى نداء آخر ولست أومن باستجداء زوجة كارهة وغير مخلصة بنداءات الأطفال وتوسلاتهم إليها لكى ترجع إلى حياة تمقتها إلى حد محاولة قتل رمزها

وهو الزوج. واسترجاع مثل هذه الزوجة أبشع من استمرارها فى القطيعة لأنها ستعود أشد مقتا لزوجها وأكثر ازدراء له ولن يزيدها صفحه عنها إلا امتهانًا له واستهانة به لأنها لم تعد ندمًا على ما فعلت وإنما عجز عن الاستمرار فيه على غير إرادتها. لهذا كله فلست أرى لك أن تتمسك برفض طلاقها وإنما أرى لك أن تتقبل الأمر الواقع مهما كان قاسيًا ومؤلمًا وأن تتعامل مع حقائقه بواقعية. فلقد خسرت المعركة معها يا صديقى قبل البداية ولابد أن تسلم بذلك، لأن التسليم بالهزيمة ينزل بمطالبنا من تشدد المنتصرين إلى واقعية الخاسرين. وإن كنت لا أعتبر فَقْدَ مثل هذه الزوجة خسارة وإنما فوز بالكرامة والأمان ونجاة بالنفس من معاناة الهوان.. لهذا أنصحك بأن تحاول التوصل معها إلى حل وسط لاستنقاذ بعض أموالك ومدخراتك من براثنها.. وأقول عامدًا بعضها وليس كلها لأنك لن تستطيع مهما فعلت أن تسترد كل الخسائر، وتمسكك بهذا الحلم لن يعنى إلا رغبتك فى استمرارها فى عصمتك إلى ما لا نهاية وهى مرتبطة بغيرك وتزداد إصرارًا على الانفصال عنك. فإذا رفضت التفاهم معك وأحسبها ستقبل فإن بعض المحامين يقولون إنك تستطيع استرداد جزء من مدخراتك التى استولت عليها إذا استطعت إثبات قيامك بتحويل مبالغ مالية إليها من الخارج عن طريق البنوك، وعجزت هى أمام المحكمة عن إثبات مصادر دخل خاصة تتيح لها امتلاك ما تمتلكه

الآن من عقارات ومدخرات وهى مناوشة قانونية قد تستطيع استنقاذ بعض مالك لكن الأفضل هو التفاهم معها على التخلى عن بعض "الغنيمة" مقابل طلاقها.. ولو بنقلها إلى اسمى الطفلين والأفضل أيضًا أن تكف عن الأمل فيها وأن تبدأ أنت أيضًا صفحة جديدة حقًا ولكن مع غيرها.. ولاشك أن الأقدار سوف تعوضك وتعوض طفليك عن معاناتكم بمن هى خير منها. أما مالك المنهوب فلا تعذِّب نفسك بالتحسر عليه وهى تلهو به مع غيرك فلن يطول الوقت حتى ترى جثة من اغتصبه منك طافيةً فوق نهر الشقاء ولا عجب فى ذلك. إذْ متى سعد الإنسان بمال مغتصب أو متى سلم من شدائد الحياة من ظلم غيره وأحال حياته دون ذنب جناه إلى جحيم؟

* * *

اضطررت للكتابة إليك عسى أن يوفقك الله فى مساعدتنا فى الخروج من محنتنا الحالية.. وبغير مقدمات طويلة فإنى أقول لك إننى وكيل وزارة سابق بالمعاش وقد كنت أعيش أيامى فى هدوء وسلام بعد أن أديت واجبى فى الحياة تجاه أسرتى وأولادى وعملى.. وبلغت أقصى ما تمنيته لنفسى فى الوظيفة، فإذا بالأقدار تعكر علينا صفو حياتنا وتمتحننا بأقسى ما يمتحن به أب وأم، وفقدنا فى لحظة خائنة فلذة كبدنا وولدنا الوحيد الشاب المهذب الذى كنا نعده ليكون عكازنا الذى نتوكأ عليه أنا وأمه فى شيخوختنا.

فقد كان ابننا ضابط شرطة شابًا يعرف ربه حق المعرفة ويبر أبويه ويحرص على رضاهما ويعاملهما برفق وحب، لكن يد الإرهاب استكثرته علينا فحرمتنا منه بلا ذنب جناه أو جنيناه سوى أنهم لا يعرفون حرقة الأم الثكلى والأب المكلوم.

وليست هذه هى محنتنا التى أقصدها.. فلقد امتثلنا لإرادة الله عز وجلَّ بعد الفاجعة وسلمنا إليه الأمر، فهو الذى أعطى وهو الذى استرد سبحانه ولا رادَّ لقضائه ولا مُعقِّب على مشيئته.. لكن المشكلة هى أن زوجتى التى تبلغ من العمر ستين عامًا قد أصيبت منذ استشهاد ابنها الشاب بحالة نفسية يرفض معها عقلها الباطن كما قال لنا الطبيب أن يصدق

أن وحيدها ضابط الشرطة قد توفى، فتخرج بسيارتها مع سائقها وتوزع علب عصير المانجو الذى كان يحبه ابننا على ضباط الشرطة الذين تصادفهم فى الشوارع وتتحدث معهم عن ابنها وتهذى أحيانًا بكلام غير مفهوم فتقول إن ابنها لم يمت لكنه فى "مأمورية".

ولقد شخَّص الأطباء حالة زوجتى بأنها حالة نفسية وليست عقلية والحمد لله.. وسوف تتحسن مع الزمن وتناول المهدئات.. وعدم جرح مشاعرها ولهذا أستحلفك بالله أن تكتب كلمة إلى أبنائها ضباط الشرطة فى الشوارع أن يُحسنوا معاملتها إذا صادفوها وأن يتقبلوا منها هديتها البسيطة من عصير المانجو ويسمعوا لها بصبر إذا تحدثت إليهم عن ابنها الشهيد وهى فى منزلة الأم منهم، ولربما ساعدتها معاملتهم الطيبة لها على الخروج من أزمتها بأفضل مما تفعل المهدئات التى ترهق قلبها. ذلك أن بعض الضباط يرفضون قبول هديتها من علب المانجو أو.. لا يسمعون لها ظنًا منهم أنها مريضة عقليًا خاصة حين تهذى بالكلام عن ابنها الذى لم يمت.. وأنا لا ألوم أبنائى الضباط فى ذلك لأنهم لا يعرفونها ولا يعرفون ظروفها لكنى أرجوهم وأرجو أن تناشدهم معى أن يُحسنوا معاملتها إذا قابلوها فى الشارع.. وليسامح الله أحدهم الذى قال لها حين التقت به يوم عيد الأم وحاولت تقديم العصير له والكلام معه: روحى يا ست اتعالجى.. ربنا يشفيك.

فقد ظلت بعدها تبكى يومًا كاملاً وتردد أنها ليست مجنونة.. وأنا أعتقد أن هذا الضابط لم يقصد إهانتها خصوصا وهى تحمل معها ما يثبت أنها والدة ضابط شهيد، لكن نصيحته جرحت مشاعرها وآلمتها كثيرًا من حيث لا يقصد، وأنا يا سيدى أعذر الجميع فى هذه الظروف العصيبة لكنى أرجو فقط من أبنائى الضباط أن يتحملوا أمَّ زميلهم الشهيد وألا يجرحوا مشاعرها برفض الهدية أو رفض السماع لها بقدر الإمكان.. وأسأل الله السلام للجميع، وأقول فى نهاية رسالتى هذه التى أكتبها على ورقة من بلوك نوت ابنى الشهيد رحمه الله للضالين الذى أغواهم شيطان الإرهاب بقتل الأبرياء إنكم لو علمتم ما حدث لى ولزوجتى بعد قتل ابننا وأملنا الوحيد فى الحياة لعضتكم أيديكم وعجزتم عن ارتكاب جريمة مثلها، ورغم ما أقاسيه أنا وزوجتى منذ استشهاد ابننا فإنى أرجو لكم الهداية والعودة إلى طريق الرشاد.. ففى العودة إليه بعض التكفير عما فعلتم وتفعلون.. والله يتولانا برحمته وصبره على هذه الفاجعة التى صنعتموها لنا إنه سميع مجيب الدعاء.

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

زوجتك محقة فعلاً يا سيدى فى أن ابنها الشهيد لم يمت وإنما غاب فى "مأمورية" جديدة فى مكان بعيد، ليس فقط لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون كما ينبئنا حقًا وصدقًا التنزيل الحكيم، وإنما أيضًا لأن

من نحبهم لا يموتون يوم يواريهم الثرى كما يقول لنا الأديب الفرنسى أندريه موروا، وإنما يموتون حقًا يوم ننساهم. فإذا لم ننسهم فهم أحياء فى وجداننا ومخيلتنا تتراءى لنا صورهم ونسمع أصواتهم ونتشمم رائحتهم ونحس وقع أنفاسهم على وجوهنا. وما حدث للسيدة الفاضلة زوجتك أعانها الله على آلامها هو أن "إحساسها" بوجود ابنها فى حياتها لم يختلف كثيرًا عما كان عليه قبل استشهاده رحمه الله. وأبى عقلُها الباطن أن يقتنع بفكرة رحيله عن الحياة إلى الأبد. كراهية للفكرة المؤلمة وعجزًا عن احتمالها وفضَّل دفاعًا عن النفس ضد هذا العامل الضاغط القوى أن يستريح مؤقتًا إلى فكرة الغياب المؤقت فى مهمة.. بدلاً من فكرة الغياب الأبدى التى لا يحتملها، وهى حيلة نفسية دفاعية معروفة يلجأ إليها العقل الباطن حين يثقل عليه تقبل الحقائق والأخبار شديدة الإيلام للنفس، وممارسة السلوك الذى كان يفضله الراحل العزيز.. كتوزيع علب المانجو على زملائه فى حالة زوجتك مظهر آخر من مظاهر الرغبة الباطنية النفسية فى تكريم الراحل.. وتأكيد فكرة وجوده أو امتداده فى الحياة.. وهو سلوك مفهوم يقدم لها بعض العزاء.. ويجد فيه القلب الحزين بعض راحته. ولا ضرر فيه إذ يعكس من الناحية الأخرى إدراكها للفكرة الأخرى التى يحاول العقل الباطن التهرب منها وهى فكرة الرحيل وهى حالة لن تطول أكثر من شهور بإذن الله مع استمرار العلاج النفسى،

وسينزل الله سكينته قريبًا على قلب هذه الأم الثكلى ويعينها على أمرها فتتعايش تدريجيا مع الحقيقة القاسية وتقبل بها مع الزمن وتفوِّض أمرها فيمن فقدت إلى خالقها وهو خير الوارثين.. لكنه من المؤكد كذلك أن احترام آلام هذه الأم الحزينة.. والحرص على مشاعرها ومشاركتها أحزانها يسهم بحق فى تخفيف أثر المحنة عليها ويساعد عامل الزمن على أداء دوره الخالد معها فى تحويل اللهب الحارق إلى نار هادئة يمكن احتمالها والحياة معها.

ومَنْ يعرف أكثر.. يفهم أكثر ويتلمس الأعذار للآخرين ولا يبخل عليهم بكل ما تملكه يداه من مشاركة أو عزاء، ولست أشك فى أن زملاء ابنها لو عرفوا حقيقة قصتها فلن يترددوا فى معاملتها برفق وفهم وتكريم تستحقه وتستحق ما هو أكثر منه.. ولن يترددوا أيضًا فى قبول هديتها البسيطة شاكرين وموقنين أنهم بذلك إنما يخففون عن قلب مكلوم بعض أحزانه وهمومه، بل إنى لأحسب أيضًا أن السيد حسن الألفى وزير الداخلية لن يتردد هو نفسه فى قبول علبة عصير المانجو من زوجتك الفاضلة شاكرًا.. ومقدرًا لها مشاعرها الطيبة ورغبتها النبيلة فى تكريم ذكرى ابنها الشهيد وزملائه.

فاكتب إلىَّ باسمك وعنوانك يا سيدى أو اتصل بى مساء الاثنين القادم عسى أن تتيح لى الظروف المساهمة فى تخفيف بعض أحزان

زوجتك الفاضلة.. وأرجو من كل زملاء الشهيد الشاب أن يتفهموا ظروفها وأن يسمعوا لها بصبر وفهم إذا صادفتهم فى الطريق وأن يتجنبوا معها أية كلمة أو إشارة قد تجرح مشاعرها من حيث لا يرغبون حتى ولو كانت فى صورة نصيحة بالتماس العلاج، فحتى النصيحة المخلصة فى بعض الأحيان قد تخلف أسوأ الأثر فى نفس سامعها إذا لم تكن ملائمة للظروف أو مراعية لمشاعره. وختامًا لا يفوتنى أن أشد من جديد على أيدى أبطال الإرهاب المغاوير مهنئًا لهم على "انتصارهم" المبهر هذا على هذه الأم الثكلى وهذا الأب الحزين؛ فأىُّ نصر "أشرف" لهم و"أخلد" من حرمان هذين الشيخين الضعيفين من ابنهما الوحيد وعكازهما اللذين أعداه ليتساندا عليه فى خريف العمر.. فأبى عليهم المغاوير أن يهنأوا بصحبته أو يعتمدوا عليه فى شيخوختهما وضعفهما "ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون، إنما يُؤخرهم ليومٍ تَشْخَصُ فيه الأبصارُ" صدق الله العظيم.

* * *

أنا زوجةٌ وأمٌ حصلت على مؤهل عالٍ ولم أعمل به وإنما تفرغت لتربية أولادى ورعاية شئون بيتى ومساندة زوجى فى حياته وعمله، فلقد تزوجته وهو يعمل بالتجارة فعِشْتُ معه 12 عاما كاملة فى بداية حياتنا الزوجية رهن إشارته أكرس كل وقتى لخدمته ومساعدته على تحقيق أهدافه والنجاح فى عمله حتى أنه حرمنى من السكن إليه فى غرفة واحدة كبقية الزوجات لكى ينام بعمق وهدوء يساعده على الاستيقاظ مبكرًا وأداء عمله فى الصباح بالتركيز المطلوب. وقبلت ذلك راضية مع أنى كنت أشتاق لأن تجمعنى به غرفة واحدة طوال حياتنا أحس بوجوده إلى جوارى فيها.

ولقد ساندته نفسيًا ومعنويًا ووقفت وراءه وهو يحقق نجاحه خطوة بعد أخرى وانقطعت تماما عن الأهل والأصدقاء لأتفرغ له ولأستطيع أن أرعى أولادى الثلاثة، خاصة أن أحدهم معاق ولأقيم الولائم المستمرة لعملاء زوجى ومن يريد مجاملتهم حتى أنه لم تكن تجمعنا معا نزهة.. ولا أجازة طوال العام سوى عشرة أو 15 يوما فقط كل صيف نمضيها على شاطىء الأسكندرية.. وحتى هذه الأجازة القصيرة لم يكن يتفرغ لنا فيها.. وإنما كان يصحبنا إلى الشاطىء ويرجع هو إلى عملائه.. وهكذا، واستمر هذا النظام العسكرى الصارم اثنى

عشر عاما كاملة فأثمرت ثمارها الطيبة على عمله فافتتح معرضًا كان الأول من نوعه فى المحافظة التى نعيش فيها، وبدأنا نجنى ثمار الكفاح معه فانتقلنا من شقتنا إلى شقة أوسع وأجمل، ورزقنا الله بولد وبنت آخرين عوّضا إعاقة ولدنا الأوسط.. وزادت أعبائى مع كثرة الأولاد والتوسع فى العمل، فكثرت أيضا الولائم.. وازداد زوجى انشغالا بعمله وزادت مسئولياتى تجاهه.

وإذا بى أسمع أنه قد تزوج من فتاة فى عمر ابنتنا الكبرى.. وأنه رتَّب لزواجه منها فى الأسكندرية ونحن نقضى أجازة الصيف فيها منذ عامين ونصف العام وأنه قد تزوجها بعد أن غادرنا المصيف فى شقتنا هناك!

ولأن له أعمالاً فى الأسكندرية تقتضى أن يقضى نصف الأسبوع فيها فلقد استمر يسافر كعادته إليها كل أسبوع ويعود دون أن يساورنى الشك فيه، إلى أن عرفت فجأة أنه قد تزوج منذ عام وتكتَّم الأمر عنى طوال هذه الفترة.. ولمست فيه بعض التغيرات الطارئة فصارحته بظنونى.. فإذا به يؤكده لى ببساطة ويطالبنى بقبول الأمر الواقع حرصًا على مصلحة الأبناء.

لقد فقدت أمى وأنا شابة فى الحادية والعشرين ومن بعدها أبى لكننى لم أشعر بمرارة اليُتْم كما شعرت بها فى هذه اللحظة..

فلقد وجدت نفسى وحيدة وضائعة بلا معين ولا صدر أرتمى عليه وأشكو له ما أحسه من قهر أو أناجيه وأبثه همومى سوى ربى.. وولدى المعاق الذى يخلو البيت علينا دائمًا حين يذهب إخوته إلى مدارسهم. كما وجدت نفسى أستعرض شريط حياتى مع زوجى كاملا فتتوالى علىَّ ذكريات النظام العسكرى ومساندتى له فى كل خطوة من خطوات حياته، وأتساءل والنار تلسعنى لماذا فعل بى ذلك وأنا أرعى الله فيه وفى ماله وعرضه وأولاده ولم ينشب بيننا خلاف.. وكيف يكون هذا هو الجزاء وتنساب دموعى ليل نهار.

لقد لاحظت أن نار فراق أبوىَّ تخبو تدريجيًا مع الأيام، أما نار زواج زوجى من أخرى فهى لا تضعف مع الأيام وإنما تزداد اشتعالاً يوما بعد يوم مع الأسف. وقد تزايد لهيبها حين علمت أن زوجى يرتب لانتقال زوجته إلى نفس المدينة التى نعيش فيها لتقيم فى شقتنا القديمة التى كنا نحتفظ بها لأحد أبنائنا حين يكبر، فناشدته الله بل وتوسلت إليه أن يدعها حيث تعيش حتى أستطيع أن أخدع نفسى وأعتبر الأيام التى يقضيها لديها أيام عمل كما كان يفعل طوال السنين الماضية، لكنه رفض.. وأصر على أن ينقلها إلى مدينتنا لتكون تحت أنظاره كل الوقت. لأنها شابة صغيرة.. وجاء بها بالفعل ووقعت أنا فى بحر الحيرة والألم فلقد أصبح يمضى ليلة فى بيتنا وليلة هناك، ويسافر إلى الإسكندرية ثلاثة أيام كل أسبوع فيصحبها معه دونى،

خاصة وقد أنجبت له فى عامين متتاليين ولدًا وبنتًا.. وظل بيتى كما هو لاستقبال ضيوفه وعملائه وطهو طعامه وغسل ثيابه التى يعود بها من سفره مع الأخرى حتى أغطية السرير وملابسه التى يستخدمها وهو يقيم معها يعود بها إلىَّ لأغسلها فهل يُرضى الله هذا يا سيدى؟

إنه لم يعدل بيننا.. ولا يرعى أولادى إلا من جهة الإنفاق عليهم وابنتى الكبرى تأثرت نفسيًا بالحالة التى جدَّت بينى وبين أبيها والولد الأكبر عنده حالة من اللامبالاة والصغيران عجزت عن رعايتهما دراسيًا فانخفض مستواهما الدراسى.. وأُصبْتُ بضغط الدم العصبى وأزمات فى التنفس بسبب انفعالى الدائم والمستمر، ويمنعنى حيائى من أن أطيل فى شرح ما أعانيه بسبب عدم العدل الذى حذر الله منه وشدد عليه. ولقد قلت له إننى لا أطلب منه سوى حقوقى كإنسانة ترعى شئون البيت والأبناء وترعى الله فى كل ما تفعل ولست أطمع سوى فى الكلمة الطيبة أو اللمسة الحانية، وحاولت حين سافرنا لأداء العمرة أن أصلح ما بينى وبينه حتى إننى اشتريت هدايا وملابس لابنيه من زوجته الأخرى كما اشتريت لأبنائى تمامًا ومع ذلك فحين عدنا إلى بلدنا ظل على جفائه معى كما هو.

ولقد فكرت طويلاً فى الانفصال عنه.. فهل تنصحنى بأن أبقى على حياتى معه لكى أحافظ على كيان الأسرة رغم تدهور حالتى من يوم

إلى يوم كما تنصح كثيرًا فى ردود الأفعال الضارة بى وبأبنائى وأكرس حياتى لهم بغير أن أعيش جحيم النار الذى يلسعنى بألسنته ويتزايد يومًا بعد يومٍ!

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

بعض الرجال يذكِّروننى بنوع من الأشجار الغريبة التى لا تُورق فروعها من الجذع فى حين تتكثف أوراقها وتكثر فى الأطراف البعيدة فتهب الظل للبعيد وتحرم منه الجذع الأصيل الذى ارتوت منه الفروع عامًا بعد عامٍ حتى كبرت ونمت وارتفعت فى السماء!

ومن المؤسف حقا أن تكون جائزة التفانى والإخلاص والدعم النفسى طوال رحلة السنين هى حرمان شريك الكفاح من حقه العادل بأن ينعم بظل شريك حياته وثمار شجرته الوارفة.. وأن يجد نفسه فى مرحلة جنى الثمار يستجدى الكلمة الطيبة واللمسة الحانية من شريكه فلا يجدهما..

إنها نفس القصة القديمة الجديدة التى تتكرر أحيانًا فتثير تأملاتنا حول بعض الطبائع البشرية.. وتكاد تشككنا فى بعض الأحيان فى جدوى الوفاء والعطاء المخلص طوال السنين لولا أننا نستعيد أنفسنا سريعًا ونسلم بأنها الاستثناء الممجوج الذى لا يغير من القاعدة شيئًا مهما كثرت نماذجه، أو تعددت.

لقد أخطأ زوجك خطأً كبيرًا فى حقك حين تزوَّج بغير أن يستأذنك ويخيرك بين البقاء والاستمرار وبين الانفصال كما كان ينبغى له أن يفعل وفاءً لعشرة السنين، وأخطأ فى حقك وأيضًا فى حق نفسه بزواجه ممن هى فى سن ابنته الكبرى، لأنه وإن كان خطأ شخصيًا يتحمل هو أولاً عواقبه إلا أن آثاره قد لحقت بك مع الأسف.. فى انصرافه عنك إليها وميله الاضطرارى إليها وعجزه عن العدل بينكما.

والحق أنك يا سيدتى تواجهين موقفا لا سبيل للتعامل معه إلا بطريقين لا ثالث لهما، إما بالتسليم بالأمر الواقع الذى تحوَّل مع الأسف بالإنجاب إلى جبل راسخ يستحيل زحزحته عن موقعه أو تغييره، وإما رفضه حتى النهاية واختيار الانفصال عن زوجك وتحمل تبعات هذا الانفصال وخسائره النفسية والاجتماعية العديدة.

أما استمرار الرفض مع استمرار المعاناة فلا عائد له سوى تدهور الصحة النفسية والجسدية.. والموت المعنوى البطىء بلا طائل.. ولا ضرورة.

وأنت وحدك يا سيدتى التى تستطيعين اختيار الطريق الملائم لك فى التعامل مع هذا الواقع الجديد.

فإذا اخترت الإبقاء على كيان الأسرة وتفضيل مصلحة الأبناء فى النهاية والإبقاء على الخيط الرفيع بينك وبين زوجك أملاً فى الإصلاح

وتحقيق العدل ولو بعد حين فلابد أن تعينى نفسك على التكيف مع ما فرضته الظروف على حياتك من متغيرات جديدة، وأن تتواءمى معها بقدر الجهد والطاقة، تحجيمًا للخسائر الصحية والنفسية وإعفاءً لنفسك من معاناة أبدية لا طائل منها. وما أحوجك مع هذا الاختيار لأن تتذكرى دائمًا دعاء الحكيم الإغريقى الذى دعا آلهته أن تعينه على تغيير ما ينبغى له تغييره والرضا بما لا يستطيع تغييره وأن تهبه الحكمة لأن يفرق بينهما فلا ينطح الصخر فى محاولة تغيير ما لا حيلة فى تغييره ولا مفر له من القبول به والتعايش معه.

أما إذا اخترت الانفصال لحل مشكلتك فلك ما اخترت ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها فى النهاية، لكننا ينبغى لنا أن نُعين أنفسنا على حسن الاختيار أحيانًا بأن نسأل: مَنْ الذى سوف يستفيد من اختيارنا هذا ومَنْ الذى سوف يخسر ثم نحدد طريقنا على ضوء الإجابة الأمينة، فإذا سألت نفسك هذا السؤال فإنى قد أستطيع أن أجيب نيابة عنك بأن من سوف يسعد بانسحابك النهائى من حياة زوجك.. لن يكـون أنت بكل تأكيد.. ولن يكون أبناؤك أيضًا وإنما سيكون طرفًا وحيدًا هو الزوجة الشابة الجديدة التى ستستمتع بظل الشجرة بغير أن تعانى فى رعايتها طوال السنين، والتى سيخلو لها وجه زوجك تمامًا بعد أن تقطعى آخر روابطه، فهل هذا هو ما تريدين يا سيدتى؟ لسـت أظـن ذلك.. وليس من العدل أيضًا أن تخسرى كل شىء بعد

أن خسرت الكثير من سلامك النفسى ومن راحة القلب، وليس الحل الأمثل لك فى مثل ظروفك هو الانسحاب والانفصال الذى لن يقدم لك أى عون على مواجهة ظروفك بل سيضاعف من إحساسك بالقهر والمرارة وفقدان الرفيق، والحل الوحيد المتاح الآن وبعد أن حدث ما حدث هو أن يعدل زوجك بينك وبين الأخرى.. وأن يستعيد فى خاطره مرارًا وتكرارًا نفس الشريط الذى استعدته أنت كثيرا حين علمت بنبأ زواجه عن رحلة العمر معه، وأن يتذكر لك عطاءك المخلص له وينجو بنفسه من أن يكون ظالمًا أو جحودًا أو "مائلاً بشقه" ناحية إحدى زوجتيه.. كما حذر الرسول الكريم من يفعلون ذلك، هذا هو الحل المتاح الآن وما أيسره على زوجك لو رغب فى ألا يكون من الظالمين.. ولو بذل بعض الجهد وراغم نفسه على أن يكون منصفًا وأمينًا معك ليس فقط رعايةً لحق أبنائه منك عليك.. وإنما رعاية لحق الوفاء.. والعرفان.. وعِشْرة السنين.

* * *

لا أدرى من أين أبدأ ـ لكنى سأقول لك إننى تزوجت بعد إتمام دراستى الجامعية من رجل أحببته وأحبنى وتوَّج الله حبنا بطفلين رائعين.. والحمد لله فلقد كبر الابنان وهما ولد وبنت وألحقناهما بمدرسة أجنبية راقية فى كل سنوات الدراسة، ثم التحق ابنى بكلية الطب وهنا بدأت المأساة! فقد نشأ ابنى وسط عائلة معتدلة فى كل شئ.. فنحن نصلى الفرائض ونصوم وأدينا فريضة الحج والحمد لله.

لكن الشئ الوحيد الذى لم أستطع أن أفعله هو تغطية الرأس لأنى لا أطيق أن أضع شيئًا على رأسى كما أن شعرى قصير ولا أتزين به، وقد بدأت ألاحظ على ابنى أنه يتجنب التليفزيون والراديو فتصورت أنه منصرف عنهما لانشغاله الشديد بدراسته الصعبة، ثم بدأ يتجنب السلام على السيدات وبدأ يلح علىَّ بالحجاب إلحاحًا جعلنى أتخذ وقفة معه.. وبعد ذلك فوجئت به يطلق لحيته ويرتدى الجلباب ولم يهتم بمعارضتنا له أنا ووالده فى ذلك مع أن الزى لا علاقة له بالدين، والرسول ﷺ لو كان يعيش فى عصرنا الآن لارتدى ملابس العصر، لكننا سلمنا أمرنا لله وتركنا ابننا يفعل بنفسه ما يشاء ما دام لا يخرج على الحدود ولا يهمل دراسته.

7

ففوجئت به يأتى إلىَّ ذات يوم ويبلغنا برغبته فى أن يتزوج.. حتى يصون نفسه.. يا ربى يتزوج وهو طالب فى السنة الثانية بكلية الطب؟ ومن أين له بإمكانيات فتح بيت وتحمل مسئولية أسرة؟ لقد ذهلت أنا وزوجى ومع ذلك وافقناه على رغبته وقدرنا أنه ربما يكون قد أحب زميلة له فى الجامعة ويتعجل الارتباط بها.. وقلنا لا بأس بأن يتزوج ويقيم معنا حتى ينتهى من دراسته وبعد ذلك يعمل ويشق طريقه وتصبح له شقة مستقلة، وجاء اليوم الذى ذهبنا فيه إلى رؤية "فتاته" وآه ومليون آه من هذا، فلقد دخلنا من حارة إلى حارة حتى وصلنا إلى بيت الجوهرة المكنونة ابنة الشيخ الفلانى، فإذا بها طفلة لم تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها منتقبة! وقد رفعت لى النقاب لأرى وجهها فرأيت طفلة بريئة ليست جميلة ولكن فى عينيها انكسار غريب، فقلت لها بسلامة نية ما هذا الذى تضعينه على وجهك يا ابنتى.. إذا كان الله سبحانه وتعالى قد خلق لك وجهًا بملامح معينة وأعطاك عقلًا ومشاعر فلماذا تخفين ذلك؟ لكنها طفلة وولى أمرها هو المسئول عن اغتيال طفولتها، وسوف يحاسبه على ذلك.. المهم أننا رفضنا هذه الزيجة غير المتكافئة فى كل شىء فهل تصدق أن ابنى خريج المدرسة الأجنبية وطالب الطب قد ترك أهله ليعيش حياة أهل الكهف؟ من أين أتى بهذا التطرف يا ربى؟.. وكيف استطاع البعض غسل مخ إنسان مثقف متعلم تعليمًا مثله، إننى حائرة ولا أعرف كيف حدث

هذا من ابنى الذى لم يعصنى مرة واحدة طوال حياته حتى بدأت هذه التطورات فى حياته، إننا لم نعد نراه إلا إذا ذهبنا إليه فى كليته والحمد لله أنه مازال يذهب إليها.. ووالده فى حالة يرثى لها ولا يتكلم فى هذا الموضوع لكنه يزفر كثيرًا هاتفًا: يا رب كأنها يستغيث به مما يعانى منه.. وأنا أدعو لولدى ليلًا ونهارًا بالهداية إلى الطريق السوىِّ والله على كل شئ قدير فهل سيفيق ابنى من غيبوبته ذات يوم؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

ماذا تعنين يا سيدتى بأنه قد هجر أهله وذهب ليعيش حياة أهل الكهف؟ هل تقصدين بذلك أنه قد غادر بيت أسرته لاعتراضكم على زواجه والتحق بأسرة ذلك الشيخ وتزوج ابنته وأقام لديه؟

إن كان ذلك ما حدث.. فالأمل فى الإفاقة من الغيبوبة ليس قريبًا بكل أسف.. وإن كنت أعجب كيف يتزوج من طفلة فى الثالثة عشرة من عمرها والقانون يمنع زواج الفتاة قبل السادسة عشرة؟ أم تراه سوف يزوِّر شهادة ميلادها؟ أو يتزوجها بغير عقد موثق اكتفاء بشهادة الشهود؟

إنها محنة مؤلمة حقًا.. أن يخرج شاب كابنك على أسرته ليتزوَّج من طفلة بريئة ونحن على أبواب القرن الحادى والعشرين ولغير سبب سوى ما يعلنه لكم من رغبته فى العفاف، مع أن ملايين الشباب

الآخرين الذين لا يتمسكون بمظهر الجلباب واللحية يعفُّون أنفسهم فعلًا بجهاد النفس والصبر والصيام والصلاة والالتزام بالفضائل إلى أن يتيسر لهم تحقيق معضلة الزواج بعد رحلة كفاح بطولية وحين يتاح لهم ذلك فهم يختارون شريكات العمر بمعايير إنسانية أسمى وأرقى كثيرًا من معايير وظيفة "الإحصان" التى لا يفكر فى غيرها ابنك وأمثاله مع الأسف، يا إلهى من أين جاءتنا هذه المصيبة؟ وكيف فقدت "الأسرة" وظيفة التربية فى بعض الأحيان حتى أصبح شبابها يتلقى قيمه وأفكاره ومعظمها خاطئ من "مربين" خارجيين يشكلون شخصياتهم وينتهى الأمر ببعضهم إلى رفض أسرهم كما حدث مع ابنـك. إنها أوجـاع كثـيرة سنظل نكافحها سنوات طويلة ولا أريد أن أستغرق فيها بعيدًا عن مشكلة ابنك لكنى أقول لك فقط إنه ليس من المصلحة فى ظروف ابنك الخاصة هذه أن ينقطع الخيط الرفيع الذى يصلكم به.. مهما حدث أو فعل أو ابتعد فاستمروا فى الاتصال به ورؤيته ودعوته للعودة إلى بيته وممارسة حياة أهل العصر الحجرى فيه إذا أراد ذلك.. فالمهم هو أن يستمر ارتباطه بالأسرة ومجتمعه الأصيل وأهله وأقاربه وعالمه السابق، وإذا كان قد تزوج وقُضِيَ الأمر فلا مفر من قبول عودته إلى البيت مع زوجته وقبول ما رفضتموه من قبل قبول المضطرين الذين لا خيار أمامهم سوى ذلك أو ضياع الابن إلى الأبد.

أما إذا كان لم يتزوج بعد فواصلوا معه محاولاتكم لإقناعه بأسباب اعتراضكم على زواجه مع التركيز على أن أسباب الرفض تتركز فى صغر سن "الطفلة" التى يريد أن يتزوجها تقربًا من أبيها، وفى أن هذا الزواج يعد جريمة إنسانية ينبغى ألا يشارك فيها وسوف ينتهى إلى الفشل إن آجلًا أو عاجلًا بعد أن يكون قد أثقل كاهله بأربعة أو خمسة أطفال خلال خمس سنوات إعمالًا بمبدأ الإحصان الذى لا يشغله غيره.. ثم ينتهى الأمر كما ينتهى 90٪ من زواج المراهقين بالانفصال لعدم التوافق وعدم التكافؤ فى السن والثقافة.. إلخ، فإن لم تفلح كل هذه المحاولات.. وأصر على صلابة الرأى والتحجر فلا مفر من إعادة النظر فى موقفكم من زواجه عملًا بمبدأ أهون الضررين وحفاظًا على العلاقة معه.. عسى أن ينجح تأثيركم العائلى عليه فى أن يحقق نتائجه معه ذات يوم غير بعيد.. ويتخفف ابنك مما يقيد به نفسه وروحه من قيود المغالاة والجمود ويستعيد توازنه ونظرته الأرحب والأعمق والأصدق للدين والحياة.

* * *

أنا سيدة فى السابعة والثلاثين من عمرى، متوسطة الجمال والتعليم كنت صغرى إخوتى، لكنى لم أكن طفلة مدللة لأن أبى كان مريضًا ولم أره إلا راقدًا أو شاكيًا معظم الأوقات ، وبسبب مرضه وعصبيته لم يعطنى من حنانه ولم أستشعر حنان الأب لابنته الصغيرة، ومع ذلك فقد أحببته لأنى أدركت أنه مريض وفى حاجة لمن يهتم به. ثم مات أبى وأنا تلميذة بالمرحلة الإعدادية، وبعد وفاته بفترة تم عقد قرانى على قريب لإحدى زميلاتى وأنا مازلت طالبة فى السنة الأولى بالمعهد المتوسط، وتزوجت بعد حصولى على الشهادة، وبعد الزواج تبين لى أننى لم أعرف زوجى جيدًا واكتشفت أننى أعيش مع شخص آخر، يعتمد علىَّ فى كل شئ داخل البيت وخارجه ويستولى على مرتبى من عملى كاملًا أول الشهر ولا ينسى أن يطالبنى "بشريط المرتب" الذى يوضح مفرداته ونتسلمه مع القبض لكى يتأكد من أننى لم "أختلس" شيئًا من مرتبى لنفسى، كما وجدته سليط اللسان جدًا بسبب ودون سبب ويده طويلة وقد يمدها إلىَّ بالأذى لأتفه الأسباب عند الانفعال ثم يعتذر لى بعد أن يهدأ ويتعجب من نفسه كيف فعل ذلك، كما وجدته أيضًا شحيح الحنان لا يكاد يعرف معناه وقد حاولت كثيرًا أن أُغيِّر من زوجى إلى الأفضل لكن محاولاتى كلها باءت بالفشل.

فحاولت أن أعوِّض بحبى لأولادى ما افتقدته لدى زوجى وأصبحت لهم الأب والأم، لأن زوجى كان يقول لى دائمًا إنه يكفيه ما يلاقيه من متاعب فى عمله، واستمرت حياتنا الزوجية على هذه الحال اثنى عشر عامًا دون تغيير. ورغمًا عنى يا سيدى وجدت نفسى منجذبة إلى زميل لى فى العمل وجدت لديه كل ما أفتقده لدى زوجى من الحنان والحب والعطاء، والخوف الصادق علىَّ حتى من نسمة الهواء.. فانسقت وراء عاطفتى المكبوتة وشوقى القديم إلى الحنان وأعطيته أنا الكثير من الحب والاهتمام. وأصبح هذا الزميل يقوم بقضاء كل مطالبى حتى شراء الاحتياجات المنزلية لى كنت أكلفه بها دون علم زوجى فيحضرها لى حتى البيت. وذات يوم عاد زوجى من عمله فجأة فوجد زميلى هذا يجلس فى غرفة المعيشة فلم يفكر فى سمعة أولاده ولا فى أى شئ وإنما أسرع بطلب الشرطة ومنعه من الخروج.. وجاءت الشرطة وجلجلت الفضيحة فى الحى كله ونحن نعيش فى مدينة من مدن الأقاليم وساقتنا الشرطة إلى الحجز بالرغم من أن زوجى للأمانة لم يفتر علينا ظلمًا وإنما أكد للشرطة أنه رآنا نجلس فى غرفة المعيشة فى وضع عادى كالضيوف. لكن ذلك لم يغير من الكارثة شيئًا وعشت محنة قاسية لم أتخيل فى يوم من الأيام أننى سأعيشها.. وأحسست المهانة والذل والاحتقار فى نظرات الجميع لى حتى من جانب النشالات والسارقات! وبدأت المفاوضات مع زوجى وأنا

سجينة لكى يتنازل عن إقامة الدعوى ضدى فى المحكمة ووافق على التنازل عنها مقابل أن أتنازل له عن حضانة أولادى نهائيًا.. وتنازلت مرغمة وتم الطلاق.. وخرجت من السجن مهدرة الكرامة ومحرومة من أثمن شئ فى حياتى وهو أبنائى الصغار ولم أستطع العودة إلى العمل مرة أخرى ومواجهة الزملاء.. فلم أذهب إليه مرة أخرى وعدت للإقامة مع أمى وشقيقى وزوجته وأولاده.. تحاصرنى نظرات الضيق وأعانى من مشاكل عديدة مع زوجة أخى حتى أصبح أملى الوحيد فى الحياة هو أن أجد لنفسى غرفة مستقلة أعيش فيها بعيدًا عن الناس كلهم، وأصبحت الأيام تمر كأنها أعوام، فلا أحد يطلبنى فى التليفون بالشهور.. ولا تتصل بى صديقة أو زميلة لى فى العمل السابق الذى فقدته مع أنى إنسانة خدومة وكنت أعامل الجميع بحنان شديد، وأقسى من كل ذلك أننى أعيش محرومة من رؤية أطفالى الذين لا يسمح لى زوجى السابق برؤيتهم أو استقبالهم. أما زميلى الذى أعطيته كل شئ من حنان وحب ورعاية، والذى فقدت بيتى وأولادى وزوجى بسببه فقد انقطع عنى هو أيضًا ولم يحاول أن يسأل أو يطمئن على أحوالى مرة واحدة منذ وقعت الواقعة. والآن قد عرفت وبعد فوات الأوان أن زميلى هذا لم يُكِنّ لى حبًا ولا كان ملاكًا كما تصورته وإنما كان شيطانًا عرف المشاكل التى كانت بينى وبين زوجى واستغل حاجتى للحنان الذى كنت أتعطش إليه وتسلل إلى حياتى من هذا

الباب اللعين، فإنى أرجو من كل زوجة أن تتحمل عيوب زوجها مهما كانت هذه العيوب، وألا تحاول أن تبحث عن الحنان الذى لا تجده لدى زوجها عند أحد إكرامًا لأبنائها.. وتجنبًا للفضيحة القاسية التى مهما وصفت لك ما عانيته منها فلن أستطيع تصويرها كاملة.. كما أرجو من الله العلى القدير أن يغفر لى ما بدر منى ويسامحنى ويعفو عنى.. وأرجو أيضًا أن يسامحنى أطفالى الصغار الذين حرمت منهم وهم نور عينى ومهجة قلبى.. كما أرجو فى النهاية أن تناشد زوجى السابق ولو إكرامًا لعشرة السنين السابقة أن يرسل إلىّ أولادى مرة كل أسبوع أو كل أسبوعين كما يشاء لأنى أموت شوقًا إلى احتضانهم فى صدرى والبكاء على صدورهم وتقبيل رؤوسهم ندمًا واعتذارًا واعترافًا بخطئى فى حقهم.. إننى لا أريد أن أطلب رؤية أولادى عن طريق المحكمة وكفانى ما نالنى من عذاب وفضائح من الإجراءات الرسمية، وحرصًا على ألا أدخل أولادى دوامة المحاكم.. فهل تساعدنى فى نشر هذا النداء عسى أن يرق قلب زوجى السابق ويسمح لى برؤيتهم؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

لا أفضل نشر رسائل الخيانة الزوجية إلا إذا كانت تضيف إلى خبرتنا بالحياة شيئًا مفيدًا.. أو تقدم "للبعض" قراءة سحرية للمستقبل

تعرض على ناظريهم ثمرة التجربة المرة قبل أن تغوص الأقدام أكثر فى الرمال الناعمة. ولقد نشرت رسالتك هذه لسبب مهم أعتبره درس التجربة الحقيقى هو أن خطأ الآخرين فى حقنا مهما كان بشعًا ليس كافيًا لأن نبرر به خطأنا فى حق أنفسنا وفى حق أعزائنا الذين يدفعون معنا ثمن ضعفنا واستسلامنا لأهوائنا، فالإنسان يميل غالبًا لأن يبرر لنفسه ضعفه وانزلاقه بأسباب خارجية ترجع إلى الآخرين وليس إلى إرادته واختياره الحر للطريق الذى يسير فيه، وهو ميل غريزى لدى الإنسان لالتماس العذر لنفسه فى أخطائه وإلقاء مسئوليتها على الآخرين، ولا يكاد ينجو منه إلا أصحاب النفوس الكبيرة والإرادة القوية الذين لا يخدعون أنفسهم بالبحث عن مبررات خارجية تقنعهم بأنهم قد فعلوا ما فعلوا "شبه مرغمين"!

ورسالتك تقول لنا بالتجربة العملية إن أخطاء شريك العمر وعيوبها مهما بلغت مشاعرها لا تبرر خطأ الطرف الآخر ولا تخفف من مسئوليته عنها.. ولا من رفض الآخرين لهذه الأخطاء. ولا عجب فى ذلك لأن الطريق واضح أمام كل شريك فى رحلة سفر.. فإما أن يحتمل حياته مع رفيقه ويرضى بنواقصها ويلتمس العزاء عنها فيما وهبته الحياة من أسباب أخرى للرضا والسعادة. وإما أن يقطع الرحلة فى منتصف الطريق ويبحث له عن رفيق سفر آخر إذا تأكد من أن البديل الوحيد للاستمرار هو الانحراف عن الطريق القويم. هذا هو

الخيار المشروع ولا خيار غيره مهما تفلسفنا وتفننا فى الحديث عن الضعف البشرى وتقدير الدوافع والمسئوليات.. إلخ، ذلك أن الإنسان الذى لا يقابل الخطأ بالخطأ لا يفعل ذلك إرضاء للطرف الآخر أو "مكافأة" له على شيء.. وإنما أساسًا احترامًا لنفسه ورعاية لحدود ربه وشعورًا بالمسئولية عمن سوف يتضررون من سلوكه وأخطائه وبعد ذلك تأتى الأسباب الأخرى.

وأنت يا سيدتى قد تحدثت طويلًا عن عيوب زوجك السابق وأنا قد أصدقك فى أنك قد "وجدت نفسك منجذبة إلى زميلك.. رغمًا عنك" كما تقولين بمعنى أن هذا الميل كان لا إراديًا. لكن المشكلة هى أن السلوك الذى يترجم هذا الميل اللاإرادى إلى أفعال وتصرفات هو دائمًا عمل إرادى نتحمل المسئولية الكاملة عنه. إذ قد لا نستطيع فعلًا فى بعض الأحيان أن نتحكم فى مشاعرنا لأن أمرها ليس بأيدينا فى النهاية.. لكننا نستطيع دائمًا أن نضبط سلوكنا ونبتعد بأنفسنا عن أية شبهة للخطأ أو الانحراف.. إلى أن تموت هذه المشاعر تلقائيًا بالبعد عما يذكى نارها ويؤجج لهيبها إلى أن تخمد نيرانها بعامل الزمن أو تذروها رياح العقل والضمير والإحساس بالمسئولية بعد سحابة الضعف البشرى العابر.

ومغزى رسالتك يصل إلى قمته فى سطورها الأخيرة التى تطالب

الزوجات بأن يتحملن عيوب أزواجهن مهما بلغت هذه العيوب رعاية لحق أطفالهن عليهن، وهو نداء حكيم ينبغى توجيهه إلى الأزواج أيضًا، ثم تتحدثين عن الوجه الآخر "للملاك الحارس" الذى وجدت عنده كل ما افتقدته عند زوجك، وأبسطه أن يخاف عليك حتى من النسمة الرقيقة، فإذا وقعت الواقعة ودفعت ثمنها غاليًا من أمومتك وسمعتك وحياتك وعملك فإذا به يدعك للوحدة.. ولا يتكلف لك حتى الاتصال بك تليفونيًا للاطمئنان على من كان يخشى عليها حفيف الهواء!

وهى قصة قديمة أخرى وقد فسرها لنا الأديب الفرنسى العظيم بلزاك بهذه العبارات اللاذعة حين قال: العشق أسهل ألف مرة من الزواج.. فالعاشق عليه أن يكون محبًا ورقيقًا وعطوفًا بعض الوقت، أما الزوج فعليه أن يكون محبًا ورقيقًا وعطوفًا كل الوقت ليل نهار وهى مهمة شبه مستحيلة".

وما أسهل الرقة والعطف والاهتمام على البعد.. ومن حين إلى آخر! وما أصعبها حين تمتحننا الظروف وتطالبنا بأن نترجم هذه المشاعر الرقيقة إلى مسئولية اجتماعية وعائلية ونفسية ومواجهة مع المجتمع والتقاليد! فعند ذلك قد تتبدد فجأة الهالة الملائكية من فوق الرؤوس وتطل الحقائق عارية وكريهة كوجوه الشياطين! ومع كل

ذلك.. فإن خطأك لا يبرر لزوجك السابق أن يحرمك من حقك الإنسانى المشروع فى رؤية أطفالك من حين إلى آخر وفى مواعيد ملائمة وتحت الرقابة التى ترضيه.. لأنك أمهم فى النهاية وسوف تبقين كذلك إلى الأبد وهم يحتاجون إليك نفسيًا كما تحتاجين إليهم، وأرجو أن يستشف زوجك السابق من كلماتك النادمة ما يدفعه للاستجابة إلى ندائك بعيدًا عن المحاكم حتى لا تتضاعف خسائر أطفاله النفسية بعد خسارتهم الكبرى بفقدهم لأمهم. وأرجو ألا يقبل على نفسه مهما كانت المرارة أن يكون ممن يفرقون بين الأم وولدها فيفرق الله بينهم وبين أحبَّتهم يوم يكون الحساب.. وشكرًا له إن قَبِلَ رجائى.

* * *

أنا طالبةٌ بالسنة الثالثة بإحدى الكليات العملية، لم يبق على تخرجى فيها سوى عام واحد وأكتب لك رسالتى هذه عن أبى، فلقد بدأت قصته مع الحياة حين تعرف بأمى فى محيط الأسرة وتم زواجهما بعد قصة حب جميلة وعاشا معا حياة سعيدة هادئة أنجبانى فى بدايتها ثم أنجبا بعدى توءما ولدًا وبنتًا، وسعد أبواى بأطفالهما وبحياتهما كثيرًا رغم أن أبى موظف بسيط، لكن سعادتهما لم تطل كثيرًا مع الأسف فلقد توفى شقيقى الأصغر فجأة وعمره 3 سنوات وحزن أبى لوفاته كثيرًا ولم يخفف من وطأة حزنه عليه سوى وجود أمى إلى جواره تحنو عليه وتخفف عنه، وبعد عام واحد من رحيل أخى الصغير مرضت أمى بغير مقدمات ودخلت المستشفى فلم تبق به سوى عدة أسابيع ثم انتقلت منه إلى الرفيق الأعلى مودّعة من أبى ومنا بأحر البكاء.. ووجد أبى نفسه أرملًا وحيدًا بعد سبع سنوات فقط من الزواج وعمرى 6 سنوات وعمر شقيقتى الصغرى 4 سنوات، وواجه الاختيار بين أن يعيش وحيدًا وبين أن يتزوج مرة أخرى مع ما قد نتعرض له من شقاء أو تعاسة مع زوجته الجديدة، فلم يتردد أبى طويلًا وقرر أن يتفرغ لرعايتنا ويصرف نظرا عن الزواج بعد أمى.. وبدأ رحلته معنا وحيدًا بلا زوجة ولا أب ولا أم يعينانه على

همه بابنتيه، فكان ينهض من نومه مبكرًا ويوقظنى ويعد لى طعام الإفطار ثم يصطحبنى إلى المدرسة ويذهب إلى عمله تاركًا أختى الصغيرة نائمة أو مستيقظة تلعب وحدها فى المسكن الخالى، وبعد الدراسة يعيدنى بعض أطفال الجيران إلى البيت فأنضم إليها فى لعبها حتى يعود أبى من عمله، فيقوم بترتيب البيت ونظافته وغسل الملابس ثم طهو الطعام ونتناول غداءنا معا فى السابعة مساء، وبعد الطعام نشاهد التليفزيون بعض الوقت ثم ندخل إلى فراشنا، ومضت بنا الأيام هكذا وأبى متفرغ تمامًا لرعايتنا حتى وصلت إلى السنة السادسة الابتدائية فبدأت أتحمل عنه مسئولية شئون البيت ورعاية أختى الصغيرة الحبيبة. ورغم وحدتنا فلقد كنا أسرة سعيدة متحابة راضية بحياتها وكلما جاءت مناسبة أو أجازة اصطحبنا أبى إلى الحدائق واشترى لنا طرائف الطعام والحلوى. وكلما جاء عيد من الأعياد اشتريت أنا وأختى من مصروفنا هدية بسيطة وقدمناها لأبى تعبيرًا عن حبنا له.. فيفرح بها وتدمع عيناه من التأثر ويقبلنا شاكرًا وممتنًا، ووسط هذه السعادة ظهرت على أختى الوحيدة فجأة وهى تلميذة بالصف الثانى الإعدادى أعراض مرض غريب لعله نفس المرض الذى هاجم توءمها فى سن الثالثة وتم إدخالها المستشفى واشترط الأطباء ضرورة وجود مرافق لها فلازمتها فيه ولم أغادره إلا كلما جاءنى إنذار بالفصل لطول الغياب من المدرسة فأذهب إليها يومًا

وأعود للإقامة مع أختى من جديد، وبقيت إلى جوارها أخدمها وأرعاها وأتذكر لها أنها لم تُغضب أحدًا منها منذ جاءت إلى الحياة، إلى أن رحلت أيضًا هى الأخرى إلى الرفيق الأعلى مفضِّلة صحبة أمها وشقيقها الصغير والأخيار من عباد الرحمن فى السماء.. وتركتنى مع أبى للأحزان. ولن أطيل فى وصف حالة أبى ولا حالتى فى هذه الفترة لم أشعر بالفرحة مرة واحدة فى حياتى رغم حصولى على الثانوية العامة فى نفس العام والتحاقى بكلية عملية مرموقة ونجاحى سنة بعد سنة فلقد أصبحت وحيدة تمامًا فى الحياة بعد رحيل أختى. أما أبى فلقد ازداد إحساسًا بالوحدة وانعزالًا عن الناس، فأصبح لا يخرج من البيت إلا إلى عمله ويعود إليه فلا يغادره إلا صباح اليوم التالى، ويغلق على نفسه باب حجرته ويظل يقرأ القرآن وكتب التفاسير والكتب الدينية حتى وقت متأخر ولا يكلمنى إلا نادرًا.

وإننى أكتب لك هذه الرسالة من أجله لكى تحثه على الخروج من عزلته والتفكير فى الزواج مرة أخرى لأننى مخطوبة ولا أستطيع أن أتزوج وأتركه وحيدا وهو مريض ويحتاج إلى من يعنى به ويسهر على راحته، وأبى لا يفكر فى الزواج مرة أخرى رغم أنه مازال فى الخمسين من عمره ومن يراه يعطيه أقل من عمره وهو يقول لى دائما إنه لن يرتاح إلا إذا حصلت على البكالوريوس وتزوجت وسيشعر حينذاك أنه قد أدى رسالته ولن تكون له أمنية فى الحياة بعد ذلك إلا

زيارة بيت الله الحرام، وإننى أرجوك يا سيدى أن تنصحه بكلماتك الحانية بأن يتزوج ويسعد بحياته التى لم يسعد بها سوى سنوات معدودة.. وأن تدعو أيضا لإنشاء عيد للأب أسوة بعيد الأم، ألا يستحق أمثال أبى أن يكون لهم عيد نحتفل بهم فيه؟ أما أنا فإنى أعانى من الخوف من كل شئ حولى ومن انعدام الثقة بنفسى فعندما يقول لى أى إنسان إننى أتصرف خطأ فإنى أبكى وأعتزل الناس ولا أتمسك برأيى أو أدافع عنه كما يفعل الآخرون.. فماذا أفعل مع مخاوفى هذه وماذا تقول لأبى؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

بعض الناس يصدق عليهم حقا وصف الأديب الفرنسى العظيم فيكتور هوجو حين قال عن أمثال أبيك إنهم من أنبياء الألم. ولا شك أن أباك واحد من هؤلاء المبتلين بالحزن والألم فى حياتهم أعانه الله على أمره وعوَّضه خيرًا عما عانى فى حياته من شقاء.. غير أن العقل ينادينا دائمًا وسط الأحزان والهموم التى لا نملك من أمرها شيئًا متسائلًا: وماذا بعد إرسال الدمع ومكابدة الأحزان سنوات طويلة.. هل من الحكمة أن نستسلم لها إلى مالا نهاية بلا أى أمل فى السلوى أو العزاء! وماذا نفيد من تحالفنا مع هذه الهموم على أنفسنا سوى مضاعفة خسائرنا بسببها وإضافة سقم الحياة إلى سقم النفس وعلَّتها؟.

إن الإنسان مأمور يا آنستى بأن يطلب علاج الجسم إذا مرض وأن يتلمس إليه الوسيلة، فإذا تقاعس عن ذلك عامدًا كان له فى رأى بعض الفقهاء من إثم المنتحر نصيب. وأحسب أن نفس القاعدة تنطبق أيضًا على كل من يستسلم لأحزانه من الحياة ولا يعين نفسه على البرء منها بعد حين. نعم نعم لدينا الكثير مما يهيج الأحزان ويدفعنا للانزواء والزهد فى الأشياء.. لكن هل يغير ذلك من تصاريف القدر شيئًا.. وهل يعيننا على تحمل الحياة ويزيد من قدراتنا على مواجهتها؟ لا شئ من ذلك بالطبع، لهذا فلابد من مواصلة الاشتراك فى مباراة الحياة مهما كانت العثرات، ولابد من التعلق دائمًا بالأمل الذى لا يخيب فى عدالة الله ورحمته بنا أن يعوضنا عن أحزاننا خيرًا كثيرًا ويرشحنا لسعادة مدخرة لديه بعد انقشاع الغيوم. وأحق الناس بالسعادة هم من كابدوا مرارة الألم وتجرعوا كؤوسه حتى الثمالة، ولهذا فلابد أن يخرج أبوك من عزلته ويتشاغل عن أحزانه بشئون الحياة اليومية وبكل ما يعينه على النسيان، ولابد أن يطلب سعادته المؤجلة ويفكر فى الزواج من شريكة حياة ملائمة تملأ فراغ وحدته وتعوضه عما قاساه من آلام. ولكل إنسان دائمًا زوجة ملائمة له وفى أية مرحلة من مراحل العمر، وأبوك حين يفعل ذلك فإنه لا يطلب سعادته المشروعة وحده وإنما يطلب أيضًا سعادتك أنت لسبب بديهى هو أننا لا نسعد بحياتنا أبدًا وأعزاؤنا الأقربون تعساء، وأنت لن تهنأ لك

حياتك الزوجية وأبوك منسحب من الحياة يجتر أحزانه فى عزلته ويكابد وحدته. إذن فهى ليست مسئوليته الشخصية تجاه نفسه فقط وإنما مسئوليته الأبوية تجاه ابنته كذلك، وأبوك المضحى الذى تحمل مسئولياته تجاهك بأمانة لا يليق به أن ينكص أبدًا عن أداء آخر التزاماته تجاهك وهى أن يسعد نفسه لكى تسعدى بسعادته وتطمئنى إلى حياتك، فواصلى إلحاحك عليه بهذه الفكرة يا آنستى وأكدى له دائمًا أنك لن تغادرى بيته إلى عش الزوجية إلا وقد سكن إلى شريكة حياة تنسيه أحزانه وترطب جفاف حياته. أما مخاوفك المرضية من كل شئ حولك فأمرها مفهوم بالنظر إلى ظروفك وخبراتك المؤلمة العديدة خلال طفولتك وصباك وأيضًا بالنظر لمعايشتك لظروف رحيل شقيقتك رحمها الله، وسوف تزول كل هذه المخاوف تدريجيًا مع ثقتك بربك واطمئنانك إلى مستقبلك وحياتك الجديدة مع شريك حياتك بإذن الله، وضعف ثقتك فى نفسك كذلك أثر آخر من آثار هذه البيئة الحزينة التى نشأت فيها يتيمة محرومة من حنان الأم ثم صدمت تلك الصدمة المروعة برحيل شقيقتك الطيبة رحمها الله. فلقد تحملت الكثير ولا عجب فى أن تترك جراح الحياة بصماتها عليك على هذا النحو، لكن كل ذلك مؤقت وسوف تستعيدين سلامك النفسى مع تغير الأحوال.. وارتفاع معنويات أبيك بعد خروجه من عزلته وتفكيره فى الزواج. وأستطيع إلى جانب ذلك أن أقدم لك بعض المساعدة النفسية

لغـرس الاطمئنـان فى نفسك عن طريق طبيب متخصص ويسعدنى أن أرتب لك هذه المساعدة فى أى وقت. فلقد طالت رفقتكما للأحزان وآن الأوان لأن تتخلصا من صحبتها الكئيبة وتشرق عليكما معا شمس السعادة والأمان بعد طول انتظار. أما فكرة عيد الأب ففكرة جيدة لكنى أفضل دائمًا أن يكون للأسرة عيد واحد يحتفل فيه أفرادها بالأم والأب معا أو بمن بقى منهما على قيد الحياة، فإذا كان هذا ما تقصدينه فإنى أؤيدك فيه بلا تحفظ.. وأتمنى لك ولأبيك خير ما تتمنيان لنفسيكما وشكرًا لك على مشاعرك الإنسانية الصادقة تجاه أبيك وتجاه الحياة بوجه عام.

* * *

أنا زوجةٌ وأمٌ أعمل طبيبة وقد تزوجت زواجًا تقليديًا من شاب من أبناء قريتى ورزقنا الله بولد وبنت ومضت بنا الحياة بحلوها ومرها.. فكان مرها أكثر كثيرًا من حلوها، وكانت أمومتى هى ذلك "القهر الجميل" الذى اضطرنى إلى تحمل الحياة مع زوج يشعر برجولته أكثر حين يطغى ويتجبَّر ويرغم زوجته على مالا تطيق. والزوجة التى تستمر فى مثل هذه الحياة يا سيدى إما أن تكون مقهورة اقتصاديًا.. أو اجتماعيًا.. أو مقهورة بأمومتها وقد كنت أنا من النوع الأخير المقهور بأمومته، وقد جرت بنا الأيام ولا جديد فى حياتى الزوجية إلا الأذى النفسى المعتاد الذى أعانيه من سوء المعاملة وأنا أحتمى بأمومتى وعملى الذى حققت فيه التفوق ومنه الثروة.. خاصة بعد أن عملنا عدة سنوات فى بلد عربى هو فى مهنته وأنا فى مهنتى كطبيبة.. إلى أن كان يوم منذ أكثر من أربع سنوات.. وكنا فى أجازتنا السنوية بمصر ولم يتبق على موعد عودتنا إلى عملنا بالخارج وعودة طفلينا إلى مدرستهما هناك إلا أيام.. فحدث شجار بيننا وكنت طوال حياتى معه قد تعودت ألا أعارضه فى شئ مادام لا يضر بى وبالأبناء ضررًا بالغًا تجنبًا للمشاجرات والمعاناة، لكننى فى تلك المرة لم أستطع إلا أن أقف بحزم ضد رغبة أراد أن يحققها ورأيت فيها ما يهدد

البيت والأبناء بالضرر البليغ ولم يحتمل زوجى كالعادة معارضتى له فهوى بيده على خدى فى صفعة مزلزلة انطفأ لها النور فى عينى لحظة فصرخت هلعًا وأنا أغطى عينى بيدى وأتصور أننى قد فقدت البصر بها.. وواصلت الصراخ وكلما توالت صرخاتى واصل هو ضربى بقسوة فى أماكن متفرقة من جسدى مطالبًا إياى بالكف عن الصراخ.. بينما انزوى ابنى ذو الثلاثة عشر عامًا وابنتى بنت التاسعة فى أحد أركان الغرفة وهما يرتجفان من الرعب والخوف ويبكيان بالدمع الغزير.

وما هى إلا لحظات حتى وجدت وجهى كله تغطيه الكدمات والأورام واستدعيت أهله بعد أن تراجعت عن فكرة الذهاب إلى بيت أهلى إشفاقًا على أمى من رؤيتى على هذه الحال.. وإشفاقًا على إخوتى الرجال من رؤية أختهم هكذا وخوفا من أن يستفزهم منظرى فيحدث بينهم وبين زوجى مالا تحمد عقباه وأصبح أنا السبب فى ذلك.

واكتفيت باستدعاء إخوة زوجى وأخواته وجاءوا مسرعين ولاموه كثيرًا على ما فعل بى.. وطلبت منهم أن نفترق بسلام ويكفينى ما نالنى من شقيقهم طوال السنوات الماضية فعارضونى جميعًا فى ذلك وطالبونى بالصبر من أجل الأبناء.. وفكرت فى الأمر طويلًا ووجدت أننى لا أستطيع عمليًا الانقطاع عن عملى فى تلك الدولة العربية دون

ترتيب سابق وإلا خسرت الكثير ماديًا.. كما لا أستطيع أن أرتب حياتى وحيدة مع الأبناء بهذه السرعة فضلًا عن اقتراب موعد عودتهم إلى المدرسة هناك فانتهى رأيى إلى أنه لا مفر من العودة إلى مقر عملنا.. وسافرت فعلًا بعد أن ترددت على عيادات أطباء العيون وأطباء الأذن ألتمس لديهم العلاج لعينى وسمعى ولأطمئن على سلامة بصرى.. وركبت الطائرة عائدة مع زوجى العزيز إلى مقر عملنا ومهما وصفت لك فلن تتخيل ما عانيت من آلام فى أذنى عند إقلاع الطائرة وهبوطها بسبب ما نالنى من أذى فيها.. ولا مدى الحرج والخجل الذى واجهته مع زميلاتى وزملائى فى العمل وأنا أعود إليهم بوجه منتفخ متورم كالكرة تملؤه الكدمات والبقع الزرقاء والسوداء كأننى ملاكم مهزوم فى بطولة عالمية.

كما لن أستطيع أيضًا أن أصف لك ما كنت أحس به من خجل وألم نفسى وأنا أخترع الحكايات الكاذبة لأبرر لزميلاتى وزملائى حالتى هذه وهم أطباء لا تخفى عليهم حقيقتها وقد تظاهروا بتصديقى مراعاة لمشاعرى.. وهم يعرفون جيدًا أسباب ما حدث لى.

ولم يكن ذلك وحده ما يعنينى فقد شغلنى عنه إلى حد ما شئ أهم هو هلعى على بصرى.. فبعد أيام من عودتى لعملى وبعد أن بدأ الورم يختفى اكتشفت ضعفًا فى إحساسى بالخد اليمنى حتى زاوية الفم..

وتهدلًا فى الجفن العلوى لعينى اليمنى، وهرعت إلى طبيب الأعصاب فقال لى إن ذلك قد يرجع إلى ضغط على أعصاب الجهة اليمنى من الوجه نتيجة لتورمها وسوف يحتاج الأمر إلى ثلاثة شهور حتى يعود وجهى إلى طبيعته، فإذا لم يحدث ذلك فسوف يكون السبب فى ضعف الإحساس هو قطع فى الأعصاب المغذية لهذا الجزء من الوجه.. وإذا تأكد هذا التشخيص.. فلن يكون له أي علاج مع الأسف وسوف تبقى الحال على ما هى عليه بقية العمر!

ونصحنى زميلى الطبيب بتدليك هذا الجزء المصاب من وجهى يوميًا عدة مرات للمحافظة على الدورة الدموية فيه. وانتظرت انتهاء الشهور الثلاثة بقلق شديد.. وانتهت المهلة فإذا بحالة وجهى تبقى كما هى بل ومضى عام كامل ولم تتغير.. فتأكدت أننى قد خرجت من حياتى الزوجية الكريمة بعاهة مستديمة لن تزول مع الزمن.. وأصبحت أنظر فى المرآة كل صباح فأرى جفنًا متهدلًا فوق عينى اليمنى يكاد يغلقها، وأغسل وجهى فلا أشعر بنصفه الأيمن إلا قليلًا. وفجأة يا سيدى شعرت بأن الكراهية قد دخلت قاموس مشاعرى للمرة الأولى فى حياتى! فقد كنت قبل ذلك أعيش حياتى الزوجية لا أحب زوجى ولكنى لا أكرهه. بل ولم يحدث أن كرهت إنسانًا ما فى حياتى كلها، فأصبحت منذ ذلك الحين لا أطيق وجود زوجى فى

البيت وأسعد كثيرًا بنوبات العمل الليلى فى المستشفى الذى أبيت فيه بعيدًا عنه.

أما هو فقد ظن أن عودتى معه إلى البلد الذى نعمل به معناه أن كل شئ قد انتهى وأن الزمن سوف يجرف آثار ما حدث، فلم يحاول أن يغير من سلوكه معى ولم يحاول مجرد ترضيتى مكتفيًا بأنه قد اعتذر لى أمام إخوته ليلة المعركة فزاد ذلك من ضيقى به وكراهيتى له، وفى علاقتنا الخاصة اتبعت معه أسلوب عدم الاعتراض على ما يطلب منى وعدم التجاوب معه فى الوقت نفسه. وسرعان ما أصيب هو بعجز مبكر ليس له سبب عضوى.. وأصبت أنا بالاكتئاب وتأكد هذا التشخيص لحالتى بعد جولة طويلة بين الأطباء والفحوص والتحليلات.. ولم أصدق أننى أصبت بالاكتئاب النفسى إلا حين بدأت العلاج وانتظمت فيه وتحسنت حالتى بسببه، وحين أنظر الآن لـهذه الفترة العصيبة من حياتى منذ 4 سنوات أحمد الله كثيرًا لأن بيتنا لم يشهد جريمة قتل كان من المحتمل جدًا وقوعها بين زوج أصبح بسبب ما طرأ عليه من حالة صحية يشك فى كل شئ حوله.. وبين زوجة تعالج من الاكتئاب النفسى وتتحمل مسئولية البيت والأولاد وتمارس عملًا يتطلب درجة عالية من التركيز والانتباه.

وأذكر أننى فى هذه الفترة العصيبة قد فكرت طويلًا فى حياتى

وانتهيت من تفكيرى إلى أننى لابد أن أترك زوجى هذا بعد أن أطمئن على أولادى ويستريح قلبى إلى أنهم قد بلغوا بر الأمان.. وعندها سأطلب الطلاق منه ولو كنت فى أرذل العمر! وأراحتنى فكرة "الطلاق المؤجل" هذه كما تسميها أنت فى ردودك، خاصة أننى كثيرًا ما سمعت منه أنه يحتملنى حتى ينتهى سن حضانتى لابنتى.. وبعدها سوف يلقى بى فى الطريق وكأنه قد التقطنى منه.. وبعد ذلك لن أرى أولادى أبدًا!

المهم يا سيدى أننى عدت منذ ثلاثة أعوام إلى مصر.. ورجعت إلى عملى واستقر بنا المقام فى إحدى عواصم الأقاليم فى بيت أملكه وبنيته من مالى الخاص لكثرة ما هددنى زوجى بإلقائى فى الطريق، بينما بقى هو فى عمله بالخارج ومضت الأيام وهو يرسل إلينا ما يعتقد أنه يكفى حاجتنا.. وعشت حياتى فى هدوء وراحة لا يعكر صفوها علىَّ إلا زياراته لنا من حين إلى آخر.. وهى زيارات أحتمله فيها من أجل الأولاد وأعود بعدها لتعاطى مضادات الاكتئاب.. إلى أن تزول آثار الزيارة بعد فترة ملائمة! ومع الزمن ازداد أثر العاهة المستديمة وضوحًا فى وجهى وازداد ارتخاء وتهدل جفن عينى وازداد عدم إحساسى بالجانب الأيمن من وجهى، فاختلفت ملامح نصف وجهى الحى عن ملامح النصف الآخر الذى فقدت الإحساس به إلا قليلًا..

كما ازدادت المرارة فى نفسى ومازلت غير قادرة على التسامح أو النسيان، لقد قال لى زوجى إن للرجل حق تأديب زوجته بالضرب فعدت إلى القرآن الكريم وكتب التفاسير فوجدت شرع الله سبحانه وتعالى يقول ضربًا غير مبرح وغير مؤذٍ ووجدت أيضًا أن "السيد" إذا ضرب عبده على وجهه فعليه كفارة هى أن يعتقه.. أفلا أستوى إذن بالعبد الرقيق يا سيدى.. وما قيمة وثيقة الزواج وكل منا يعيش منفردًا ولا مودة ولا رحمة بيننا وإنما طبقات وطبقات من الكراهية ترسبت فى نفسى عاما بعد عام ومع كل مرة أرى فيها "وجهى الجديد" فى المرآة؟، وهل أكون مخطئة فى حق أولادى حين أطلب الطلاق وولدى سوف يلتحق بالجامعة إن شاء الله فى العام القادم وابنتى ستبدأ المرحلة الثانوية؟

إنك ربما تسألنى وماذا سأفعل بحياتى بعد الطلاق.. وأجيبك بأنها غالبًا سوف تمضى كما هى الآن مع أولادى.. لكننى فقط أريد أن أتنفس؟

وأنا الآن أنتظر نهاية العام الدراسى لأطلب الطلاق.. ولن يستطيع زوجى أن يأخذ ولدى منى.. أما البنت فأريد أن أسألك لماذا حكم المشرع بأن تنتهى حضانة الأم لها فى سن الثالثة عشرة.. أهى اعتبارات فسيولوجية قد تتأخر وقد تتقدم عن هذه السن؟.. وهل يستطيع أبوها

أن يأخذها للإقامة معه خارج مصر، خاصة والبنت عادة تتعلق بأبيها وهى فى هذه السن حيث يمثل لها الأب غالبًا الفسحة والهدية فى حين أننى طبعًا من يأمر وينهى ويعيش معها مشاكل حياتها اليومية؟

وهل تنصحنى ـ إذا وافقتنى على طلب الطلاق ـ بمصارحة أبنائى قبلها مع العلم بأنهما يشعران طبعًا بالبعد النفسى بينى وبين أبيهم.

لقد نشأت فى بيت كنت أشعر أن جدرانه تكاد تحنو على بعضها البعض مما تستشعره من حنان أبوينا علينا وحب واحترام كل منهما للآخر وحبنا جميعا لكل منا ومازالت أمنا تاجًا فوق رؤوسنا.. ومازالت ذكرى حنان أبينا الراحل عبيرًا يعطر جلساتنا فى بيتنا الكبير الآن، ولقد كنت أحلم بمثل هذا البيت الذى يسوده الحب النفسى فلم يتحقق الحلم، إذن ألا تكفينى عشرون عامًا من القهر انتهت بعاهة مستديمة، لكى يكون لى الحق فى حياة كريمة سوية، أنجو فيها على الأقل من نوبات الاكتئاب التى تلازمنى بعد كل زيارة من زوجى لبيتنا غير السعيد؟

ـ ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

يقولون يا سيدتى إن المرأة قد تكتم الحب أربعين عامًا، لكنها لا تستطيع أن تكتم الكراهية يومًا واحدًا وأن الرجل قد يكتم الكراهية أربعين عامًا لكنه لا يستطيع أن يكتم الحب يومًا واحدًا!

وقصتك فيما يبدو دليل جديد على صحة هذه العبارة الشهيرة. فلقد كانت حياتك مع زوجك تمضى فى أمان رغم خلوها من الحب ومع غلبة أوقات الخلاف على أوقات الصفاء، إلى أن اشتعلت نار الكراهية المحرقة فى أعماقك فاستحال عليك إخفاؤها.. وجنحت بكما سفينة الحياة فى المياه الراكدة.

إنها ليست مشكلة إيذاء بدنى بشع تعرضت له وأورثك هذه العاهة المستديمة إذ ما أكثر ما جرف الزمن فى طريقه من كوارث مماثلة، وتواصل إبحار السفن فى طريقها المرسوم بعد فترة من الجنوح أو التوقف. لكن المشكلة الحقيقية هى هذه الكراهية العميقة التى تراكمت داخلك طبقات فوق طبقات وساهمت مع الأثر الباقى فى وجهك للاعتداء البشع فى مرضك بالاكتئاب النفسى.

إنك تقولين لى إن زوجك لو كان قد غيَّر أسلوب تعامله معك بعد العودة إلى مقر العمل أو أجهد نفسه بعض الشئ فى استرضائك، وتخفيف الأثر النفسى لما حدث عليك ـ خاصة بعد أن تأكدت طبيا من بقاء أثر الصفعة المزلزلة إلى الأبد فى وجهك ـ لكان من الممكن أن تصفحى عنه وتنسى ما حدث منه.. وأنا أقول لك إن ذلك كان محتملًا بالفعل ولكن فى ظروف أخرى لا تتوافر فى حياتكما مع الأسف.. وهى أن يكون الحب قائما بينك وبينه من البداية ثم حدث

ما حدث بينكما فى لحظة جنونية ندم عليها زوجك ندمًا صادقًا وتفنن بعدها فى محاولة إرضائك ومساعدتك على نسيانه، فلا تلبث مشاعرك العاطفية تجاهه أن تغفر له ما جناه عليك بحمقه واندفاعه ولا تلبث ذاكرتك
أن تسقطه فى بئر النسيان حتى ولو ذكّرتك به المرآة كل يوم.

أما والحب غائب من البداية.. والمشاعر أصلا حيادية ثم ما لبثت أن تحولت إلى جحيم من الكراهية الرهيبة لزوجك فلم يكن ثمة أمل مع الأسف فى الصفح والنسيان. مع أن زوجك قد دفع هو الآخر ثمنا باهظا لهذه الصفعة القاسية لا يقل بشاعة عن الثمن الذى دفعته أنت لها فى الأثر الباقى فى وجهك وفى حالة الاكتئاب.. وقد دفعه كاملا هو أيضا من تحول حياته معك إلى جحيم دائم فقدت معه حياة الأسرة كل معنى لها، ومن حالته الصحية المؤلمة التى أدت إليها معاناته النفسية الطويلة مع آثار ما حدث على حياتكما.. والمؤسف أكثر أن أبناءك سوف يدفعون أيضا نفس الضريبة الباهظة لهذا الخطأ الفاحش من زوجك.. ولمضاعفاته النفسية والصحية فى حياتك وحياته.. يا إلهى إنها "أغلى" صفعة قرأت عنها حتى الآن فى رسائل قراء هذا الباب مع كثرة ما قرأت فيها من غرائب!

والحق أننى رغم كراهيتى الشديدة للطلاق.. ومعارضتى له

ما لم تفرضه الضرورة القصوى إيثارًا لمصلحة الأبناء وسعادتهم على سعادة الأبوين، كما ينبغى لكل إنسان يلتزم بتحمل مسئوليته الإنسانية عن إسعاد أبنائه، إلا أن هناك حالات قليلة لا يملك المرء أمامها إلا التسليم بأنه لا أمل فى الإصلاح فيقول مع القائل: إنه لا خير فى الأسرة إذا انعدمت الروابط بين طرفيها.. أو إذا فسدت فسادا لا أمل فى علاجه!

وأتصور أن كراهيتك لزوجك من هذا النوع الأخير مع الأسف ولا أمل قريبا أو بعيدًا أيضًا فى تخلصك منها خاصة مع ما تعانينه منه من آثار الاكتئاب النفسى.. وما ترينه كل يوم فى مرآتك من أثر لعدوان زوجك عليك يذكِّرك بعمق الهوة السحيقة التى تفصل بينكما الآن، لكنك تسألينى من ناحية أخرى هل أرى لك إذا ما وافقتك على الطلاق أن تصارحى أبناءك قبل الإقدام عليه أم لا.. وجوابى عن سؤالك هو أن الأبناء بفطرة غرسها الله فيهم لا يرضون إلا بأن يواصل الأبوان احتمال حياتهما معا من أجلهم ومهما بلغت معاناة الأبوين أو أحدهما فيها.

ولا يقتنعون بأية مبررات يقدمها لهم الآباء أو الأمهات للطلاق مهما كانت قوية ومقنعة وإنما يؤمنون دائما فى أعماقهم بأن من واجب أبويهما أن يجنباهم آثاره النفسية والاجتماعية عليهم.. وأولها تمزقهم بين

الأبوين وأهمها حرمانهم من شكل الأسرة الطبيعية الذى يحتاجون إليه نفسيا واجتماعيا ويزداد احتياجهم الإنسانى إليه كلما كبروا على عكس ما يتصوره البعض، فالفتاة مثلا تحتاج إلى أن يتقدم إليها خاطبها وهى تعيش بين أبوين طبيعيين وفى أسرة متماسكة ولو شكلًا لكى تزيد من اطمئنان فتاها إلى نشأتها فى بيئة طبيعية تقدس الروابط الأسرية وتنفر من الطلاق. والشاب يحتاج أيضًا إلى أن يتقدم إلى خطبة شريكة عمره بغير أن يضطر لأن يدفع عن نفسه الشبهة التى تحوم خطأ أو صوابا حول رأسه وتهجس لأسرة فتاته بأن من نشأ فى أسرة ممزقة قد يكون أجرأ على الطلاق وهدم الأسرة ممن نشأ فى أسرة مستقرة تستبشع الطلاق مهما كانت دوافعه وأسبابه!

إنها ضرائب باهظة يدفعها الجميع بلا استثناء فى مجتمعاتنا التى تنفر من الطلاق نفورًا شديدًا رغم مشروعيته، ولكل إنسان أن يختار لنفسه ما يتوافق مع طبيعته وقدرته على الاحتمال وعلى العطاء لأبنائه والتضحية من أجلهم، لكنى مع تسليمى بأنه لا أمل فى تخلصك قريبا من كراهيتك لزوجك فإننى رغم ذلك لا أرى اختلافًا كبيرًا بين حياتك الآن وحياتك فى المستقبل إذا ما أقدمت على الطلاق.. اللهم إلا فى تخلصك من التزامك الأدبى تجاه زوج لا ترينه إلى فى زيارات قصيرة متباعدة، فهل يثقل عليك احتمال هذا الالتزام إلى الحد الذى

تعرِّضين معه نفسك لمشاكل جديدة أنت فى غنى عنها بكل تأكيد كاحتمال ضم زوجك لابنته وسفرها معه لتواصل تعليمها حيث يقيم إلى جانب المشاكل الأخرى!

إنك لا تخططين كما فهمت لبدء حياة جديدة بعد الانفصال.. وهو أيضًا لا يخطط لذلك، ولو كنتما تفكران فى ذلك لما استطعت لومكما بعد أن وصلت علاقتكما إلى الطريق المسدود "وإن يتفرقا يغن الله كلًا من سعته" كما جاء فى التنزيل الحكيم بل ولربما استرد هو طبيعته بعد زوال الحواجز النفسية، لكن الأمر غير ذلك فلماذا لا تتفاهمان وديا على صيغة تجنبك معاناتك النفسية خلال زياراته لبلده وأسرته، وتحفظ على أبنائكما شكل الأسرة وتجنبك أيضًا متاعب الانفصال وحضانة الأبناء.... إلخ.

كأن تقضى مثلا فترات وجوده فى مصر وهى قصيرة ومتباعدة فى بيت أسرتك أو حتى فى عمل خارج المدينة كلها مُعللة ذلك بأى عذر مقبول؟ مؤكد أنك تستطيعين ذلك وأنه سوف يرحب به حفاظًا على الشعرة الأخيرة بينكما ورعاية لأولاده وإبقاء على شكل الأسرة الذى يهمه الآن ـ لأسباب نفسية مؤلمة ـ الحرص عليه ربما أكثر من الماضى فلماذا لا تفعلين ذلك حقًا؟

أما عن حكمة المشرِّع فى تحديد سن العاشرة بالنسبة للولد وسن

الثانية عشرة بالنسبة للبنت لانتهاء حضانة النساء لهما، فواضحة وهى أن الأبناء يحتاجون إلى رعاية الأبوين معا.. فإذا اقتضت الضرورة انفصالهما فإنهم فى سن الطفولة المبكرة فى حاجة إلى رعاية الأم أو حضانة النساء أكثر من حاجتهم لرعاية الأب فى هذه المرحلة من عمرهم. ثم يحتاجون إلى رعاية أبيهم بعد انتهاء سن حضانة الأم لهم أكثر من حاجتهم لرعايتها حيث تـزداد الحاجة إلى دور الأب فى حياتهم فى التوجيه والرقابة والسيطرة والتربية والإشراف والإعالة، وهو كما ترين تشريع يحاول تقليل أثر الانفصال نسبيًا عن الأبناء وإشباع غريزة كل من الأبوين فى احتضان أبنائه فى نفس الوقت عملاً بمبدأ أهون الضررين، ومع حق كل طرف فى رؤيتهم خلال حضانة الطرف الآخر لهم، كما يجوز للقاضى بعد كل ذلك إبقاء الصغير حتى سـن الخامسـة عشـرة فى يد حاضنتـه والصغـيرة حتى تتزوج إذا رأى أن مصلحتهما تقتضى ذلك.

ولكن لماذا تحمِّلين نفسك هذا العناء الجديد فوق ما تحملت وتتحملين من آثار الاكتئاب.. وفى يدك أن تحتفظى بالاثنين معًا بلا مشاكل ولا منازعات حول الأبناء إذا جاهدت نفسك على احتمال فترات زيارة الزوج المتباعدة لأسرته أو إذا توصلت معه بعد المصارحة التى لا مفر منها.. إلى حل مريح لك؟

يا سيدتى لقد صغت تعبيرًا فريدًا لم أقرأه من قبل عن أسباب احتمالك لعشرة زوجك طوال السنين السابقة لواقعة الإيذاء البدنى، فقلت عنها إنها كانت "القهر الجميل" أى قهر أمومتك وحثها لك على احتمال الخلافات والصغائر لكى يسعد الأبناء وتواصل السفينة إبحارها بهم إلى بر الأمان.

والقهر لا يكون جميلاً مهما كانت أسبابه.. لكنه ليس هناك أنبل من الأبناء سببا لاحتمال ما لا نرضاه أحيانًا لأنفسنا لو لم نكن محكومين بمثل هذا القهر النبيل.. قهر الأمومة والأبوة والإحساس بالواجب الإنسانى تجاه الأبناء وتجاه الحياة بوجه عام، فماذا جرى لقوة هذا القهر النبيل فى حياتك؟ إنه مجرد تساؤل..

أما قراءاتك عن حق الزوج فى تأديب زوجته فأؤجل تعليقى عليه إلى الأسبوع القادم فى ردى على رسالة لقارئة مصرية فاضلة تقيم فى كندا وكتبت إلىَّ بشأن هذا الموضوع. وأرجو أن تجدى فيه ما يريحك ويريح الجميع إن شاء الله.

* * *

أنا مصريةٌ أُقيم فى كندا.. وأتابع بابك بانتظام وقد لاحظت أنه فى ردودك على المشاكل التى ترد إليك فى بريد الجمعة، أراك تحمل بشدة على من يرفع يده بالضرب على أمه، وهذا اتجاه محمود، بل هو أقل ما يجب إزاء هذه الجريمة الشنعاء، وفَّقك الله فى تعميق مبادئ الدين والأخلاق. ولكنى لا أراك تحمل بشدة مماثلة على من يرفع يده بالضرب على زوجته. فإذا كان سندك فى هذا الاتجاه هو مُحكم آيات القرآن الكريم، فإن هناك فرقًا كبيرًا بين ما أمرنا الله به وبين ما أباحه لنا، وشتان ما بين الاثنين. فالله عزَّ وجلَّ قد أباح للرجل ضرب زوجته للضرورة القصوى ولكنه لم يأمره بضربها "عمَّال على بطَّال" وفى جميع الرسائل المنشورة التى تشكو فيها الزوجة من ضرب زوجها، كان واضحا تماما أن الضرب لم يكن لضرورة قصوى ولكن لفساد خلق الزوج، فكيف لا تُوجه له ولو بعض النقد، وتُذكِّره بكلام الله سبحانه وتعالى بأن الزواج مودة ورحمة وسكن.

ثم لماذا تنشرون رسائل متتالية كثيرة تتحدث فيها الشاكيات عن تسامحهن مع أزواجهن فى موضوع الضرب هذا بسهولة غريبة تصل فى بعض الأحيان إلى حد الاعتذار للزوج

واستسماحه. أنا يا سيدى لا أعرف إذا كان عندك بنات أم لا، ولكن نشر هذه الرسائل بهذا المعدل يجعل بناتنا يعتقدن أن الضرب ليس جرحا للكرامة، ولكنه من أمور الزواج العادية التى تُغتفر بسهولة. فهل تقبل يا سيدى أن يقوم زوج ابنتك بضربها أم أنك تربيها على أن يكون لها كرامة، وأن يكون زوجها هو أول من يحافظ على هذه الكرامة؟

وفقك الله فيما تقدمه للقراء من نصائح وأثابك خير الثواب.

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

نعم يا سيدتى الضرب جارح للكرامة أيا كانت أسبابه ومبرراته.. وهو ليس من أمور الحياة الزوجية العادية ولا ينبغى له أن يكون كذلك أبدًا.. لهذا لم يرخص به الله جل شأنه إلا بشروط قاسية وفى باب واحد فقط هو باب الإصلاح كراهيةً للطلاق.. وأول هذه الشروط كفيل وحده لأن يُخرج من دائرة المباح كل أو معظم حالات الضرب التى تتردد فى رسائل القارئات.. ذلك أن معظم الفقهاء يتفقون على ضرورة توافر شرط جوهرى مهم لاستخدام هذه الرخصة هو اعتقاد الزوج أن الضرب سوف يجدى فى الإصلاح، فإذا عرف غير ذلك لم يكن له أن يفعل.. وهذا "الاعتقاد" يعنى بالضرورة

أن يكون الضرب تصرفًا صادرًا عن تفكير هادئ، وليس عن ثورة انفعال طاغية أو كرد فعلى لحظى لتصاعد انفعالى متبادل بين الطرفين، وبهذا الشرط وحده تصبح كل حالات الضرب فى قمة الانفعال ليست سوى ردود أفعال بدائية يُسأل عنها صاحبها شرعًا وقانونًا.

أما باقى الشروط فلا تقل شدة عن الشرط الأول ومنها أن يكون "للإعلام" وليس للإيلام حتى قال بعض الفقهاء إنه يجوز بالسواك، ومنها ألا يكون شديدًا وألا يترك أثرًا فى الجسم وألا يكون فى مواضع أكثر عُرضة للإيذاء كالوجه والصدر والبطن إلخ.

بل إن الإمام إبن حزم الأندلسى يقول عن ذلك "فإن عصته كان له هجرانها حتى تُطيعه وضربها بما لا يؤلم ولا يجرح ولا يكسر ولا يعفن، فإن ضربها بغير ذنب أقيدت منه "أى أُخذ لها بالقصاص منه"، وقد رخَّص الله به وفقا لهذه الشروط القاسية كراهية للطلاق الذى لم يكره الإسلام شيئا مباحًا كما كرهه، لهذا فقد أمر الزوج بأن يتخذ خطوات ضرورية قبل الإقدام عليه، هى بالترتيب الوعظ والإرشاد، أى بلغة العصر الحوار المنطقى العاقل والإقناع الهادئ وتوضيح الحقائق.. والاستمالة ثم الهجر فى الفراش ثم الضرب ثم التحكيم.

إذا فالضرب هنا هو الخطوة الثالثة فى السعى للإصلاح وتجنب الطلاق وهو محكوم بشروط تجعله أقرب إلى التهديد منه إلى التنفيذ الفعلى، وقد تعفف عنه رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه فروت عنه السيدة عائشة أنه "ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة قط ولا خادما ولاضرب شيئًا بيده إلا أن يجاهد فى سبيل الله".

كما أن الآية الكريمة التى أباحته والتى تقول:" واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن" تقول أيضا "فإنْ أطعْنكم فلا تبغُوا عليهنَّ سبيلا" أى لا تعتدوا عليهن ولا تظلموهن ويختتمها جل شأنه بقوله" إن الله كان عليا كبيرا" وهو ما يرى المفسرون أن المقصود به تنبيه الغافلين والحمقى إلى أن قدرة الله عليهم فوق قدرتهم على زوجاتهم حتى لا يتمادوا فى الحمق والعدوان.

أما طاعة الزوج التى تعتبر الزوجة ناشزًا إذا خرجت عليها فهى عند معظم الفقهاء: الإجابة فى الفراش.. وعدم الخروج بغير إذن الزوج عمدًا وتحديًا وتكرارًا والالتزام بهذه الشروط لا يسفر فى أغلب ظنى سوى عن ربتة خفيفة على الظهر من جانب الزوج الراغب فى الإصلاح إبراءً لذمته قبل اللجوء للتحكيم، مع نصيحتى له بأن ينبه

زوجته صراحة وقبل أن يفعل إلى أنها "ربتة ضرب بهدف الإصلاح كراهـة للطـلاق" وليست ربتة حنـان أو مداعبـة لأنها لن تسـتطيع أن تفرق بينهما غالبًا إذا لم ينبهها لذلك.

فأى حرص على رابطة الأسرة أنبل من ذلك وأى ضمانات وأى قيود وشروط أقسى من هذه الشروط والقيود؟ إن الضرب هو قمة انفعال الإنسان وعدوانيته تجاه الآخرين وكثيرًا ما ينفعل الإنسان ويفقد سيطرته على نفسه فى بعض معاملاته اليومية، لكن هناك ضوابـط كثيرة كالدين والأخلاق والقانون والعرف وخوف الأذى من الآخريـن تحكم سلوكه وتجبره على أن يسيطر على نفسه ويردها عن الاستجابة لانفعالاتها العدوانية، فلماذا لا تفقد هذه "الضوابط" تأثيرها علينا إلا مع أقرب الناس إلينا وحدهم؟ ولماذا لانترجم هذا الانفلات العصبى إلى لكمة أو صفعة إلا معهم وحدهم. وهم أحق الناس بأن نعتصم معهم بالحكمة وضبط النفس؟ هذا هو السؤال الذى يسـتحق التأمل فعـلاً.. وينبغى أن يجيب عنه بأمانة كل من يتحلى بضبط النفس مع من يخشى أن يبادلوه ضرباً بضرب..ويتخلى عنه من لا يخشـى منهـم ذلك يقدرون عليه.. ولو أجابـه عنه بصدق لخجل من نفسه وتعفف عن الاعتذار عن عدوانيته مع الضعفاء بانفلاته العصبى. وإذا كنـا نقـول ذلك فينبغـى علينـا التزامًـا بالأمانة

والموضوعيـة أن نقول أيضًا إن الضـرب ليس هو الجريمة الوحيدة وأن " التحريض" عليه أيضًا جريمة لا تقل بشاعة عنه.

ولو استعرضت يا سيدتى جرائم الضرب فى المليان المخالفة لكل شرع وقانون التى قرأتها فى رسائل القراء والقارئات خلال السنوات الماضية لوجدت أنها ترجع فى معظمها إلى خطأ مشترك من الطرفين هو عدم الالتزام بآداب الخلاف.. وإلى خطأ التصعيد الانفعالى المتبادل بين الطرفين بغير أن يحاول أحدهما امتصاص غضب الآخر وتأجيل المناقشة.. إلى وقت آخر يكون فيه أكثر هدوءًا وتقبلاً للرأى المعارض. وإلى الخطأ الفادح الذى تقع فيه كثير من الزوجات والأزواج وهو عدم حصر الخلاف فى دائرة السبب المباشر له، وهو غالبًا سبب تافه وامتداده إلى " محاكمة" العلاقة الزوجية نفسها.. مع استدعاء الذكريات الأليمة القديمة من مكانها.. واستعراض "الفظائع" العديدة التى ارتكبها كل طرف فى حق الآخر على مدى عشرة العمر والانتهاء إلى تقييم العلاقة ودمغها بأنها رحلة عذاب متصل لم تشهد يومًا واحدًا من أيام الصفاء.. والحكم على شريك الحياة بأنه شخص لا يُطاق ولا يحتمل أحد عشرته. مع ما يترتب على ذلك من اتهامات متبادلة بالجحود وإنكار كل فضل أو ميزة للطرف الآخر، وهكذا قد يبدأ الخلاف بسبب عابر.. وينتهى بكلام فلسفى عميق عن الزواج

والطلاق والجحود ونكران الجميل والتضحيات إلخ.. فى حين أنه لو بقى فى دائرة السبب المباشر لما تصاعد حتى بلغ حافة الحمق والانفعال.

وخلال هذا التصعيد الدرامى قد لا يبذل أحد الطرفين أى جهد يذكر لتجنب مسِّ الأوتار الحساسة لشريك حياته والتى عرف بالتجربة مرارًا وتكرارًا أن مسَّها يفقده اتزانه وعقله، كما قد لا يحاول أحدهما تجنب عبور الخط الأحمر الذى يفصل بين المناقشة وحق الاختلاف فى الرأى وبين الإهانة والتجريح وهو ما أقصده" بالتحريض" على الضرب..

إننى ياسيدتى لا أعتبر نفسى مقصرًا فى إدانة الضرب واستنكاره ولا أعفى مرتكبه من مسئوليته عنه.. لكنى أدين أيضًا" التحريض" عليه بتجاوز الخط الأحمر فى علاقة الزوجين إلى الإهانة والتجريح والصوت الأوبرالى المزعج الذى يهتك الأسرار ويخدش الحرمات ويفقد الأسرة خصوصيتها وينشر أسرارها، ولقد زرت كندا التى تعيشين فيها منذ أربعة شهور فكان من بين ما ناقشنى فيه المهتمون بأحوال المجتمع هناك، انتشار ظاهرة العنف ضد المرأة لديهم ومصرع 120 سيدة على أيدى الأزواج والأصدقاء خلال العام الماضى فقط فى إقليم كيبك وحده الذى لايزيد عدد سكانه على 6.7مليون نسمة،

وهى نسبة مرتفعة جدًا كما ترين بالقياس إلى عدد السكان، وقد كان تفسيرهم لهذه الظاهرة أنها رد فعل عكسى لسيطرة المرأة على حياة الرجل الكندى لأن كل شئ إذا زاد على حده انقلب إلى ضده.

إذن فحياتنا الاجتماعية مازالت بخير.. والعلاقات الزوجية فى مجموعها أيضًا مازالت بخير وسوف تبقى كذلك مادامت القيم الدينية والأخلاقية التى تضبط سلوك البشر، فإذا كنت قد قرأت بعض رسائل الزوجات تروى قصص الضرب اللاتى تعرضن لها فليس من صالح أحد تجاهلها، ولا من صالح زوجة وأم غفرت لزوجها خطأه فى حقها أن ألومها على صفحها ونسيانها.. ومن لا يعرف الخطأ لم يستطع أن يميز الصواب، بل إن من لا يعرف الشر كما قال صادقًا أوليفر كرومويل الزعيم البريطانى الشهير فى القرن السابع عشر "قد يقع فيه أكثر ممن عرفه وتنبه إليه"، وإذا كنت تسألينني بعد ذلك هل أربى ابنتى على أن تكون لها كرامتها فإنى ورغم حرج الحديث الشخصى أجيبك بأنى أفعل أو أجتهد لأن أفعل، لكنى من ناحية أخرى أحاول دائمًا أن أؤكد لكل من تسألنى المشورة أن أفضل وسيلة للحفاظ على كرامتها ألا تجرح هى كرامة الآخرين أو مشاعرهم وألا تهينهم أو تمس أوتارهم الحساسة.. أو تحرضهم على عدم احترامها والعدوان عليها بتجاوزها لآداب الخلاف معهم أو

للخط الأحمر الذى يفقدها حصانتها وخط دفاعها الأصيل عن نفسها وعـن كرامتهـا. فهـذا هو الطريق لأن تحتفظ كل زوجة بكرامتها.. ولا طريق سواه وأستثنى من ذلك بالطبع الحالات الشاذة التى لا يفلح معها اعتصام بآداب الخلاف ولا احترام للنفس.. وهى حالات لا يصلح للتعامل معها سوى قانون العقوبات وشكرًا.

* * *

أنا فتاة فى السادسة والعشرين من عمرى من أسرة ميسورة ومرموقة اجتماعيا، وقد تخرجت منذ خمس سنوات فى إحدى الكليات النظرية، وبعد حصولى على الليسانس تقدم لخطبتى مهندس شاب وسيم ومن أسرة بدت ظروفها لنا مناسبة، فلم أجد ما يمنعنى من قبوله وأنا غير مرتبطة بأحد وأحلم كغيرى من الفتيات بالزواج وعش الزوجية. وبعد شهر واحد من التعارف بين الأسرتين تم عقد القران على أن يؤجل الزفاف إلى حين الانتهاء من إعداد شقة الزوجية.. وسعدت بذلك بالرغم من السرعة الملحوظة فى الإجراءات، لكنه فى اليوم التالى لعقد القران مباشرة زارنا فى بيتنا زائر غير متوقع هو أحد أقرباء خطيبى "المهندس" الذى عقد قرانى عليه أمس فقط وأبلغنا أنه ليس مهندسا ولا يمت للهندسة بصلة ولا يحمل من الشهادات الدراسية سوى شهادة الإعدادية، واعتذر الزائر عن تأخره فى إبلاغنا بالحقيقة المؤسفة بأن قريبه قد أخفى خبر القران عن أقاربه حتى لا ينكشف أمره أو يتطوع أحدهم بتحذيرنا منه. وارتبك الجميع حين سمعوا منه ذلك واضطربت أنا اضطرابًا شديدًا، وتألمت بشدة لهذا الخداع السافر.. بغض النظر عن مسألة الشهادة فى حد ذاتها، وفى نفس المساء جاءنا خطيبى "المهندس" لزيارتنا باسما.. متعطرا..

أنيقا كعادته فاختلى به فى الصالون أبى وشقيقى وزوج شقيقتى وصارحوه بما علموه، وتعلق أملى بأن يستنكر ذلك بشدة ويستأذن فى الانصراف لإحضار شهادته الجامعية لإطلاع أهلى عليها بعد فترة قصيرة، لكنه لم يفعل شيئا من ذلك وإنما اعترف بالأمر ببساطة، ولم ينكر أنه خدعنا وبرر ذلك برغبته الشديدة فى الارتباط بى وخوفه من رفضه إذا صارحنا بالحقيقة!

ولم يكن أمامنا إزاء هذه الكارثة التى حلَّت فوق رؤوسنا بلا ذنب لنا سوى الطلاق. وتوقعت ألا يتردد فى الاستجابة له بعد أن انفضح أمره أمامى وأمام الأسرة، لكنى فوجئت به يرفض الطلاق بصفاقة غريبة، ويؤكد أنه لن يتنازل عنى أبدا وأنه متمسك بى حتى النهاية! وازددت إصرارا على ضرورة التخلص منه بعد هذه الصفاقة الإضافية.. بعد الخديعة والكذب البشع.. وفشلت كل محاولات المعارف والأقارب للتدخل لديه لإنهاء الأمر وديا بعد أن شاعت القصة.. فاضطررت راغمة إلى اللجوء إلى المحاكم التى لم أتمن يوما أن أدخلها بإرادتى ـ وأخذت قضيتى دورها فى سجلات محكمة الأحوال الشخصية، ومضت شهور ثم جاءت لزيارتى صديقة من صديقات الجامعة وأنا فى شدة ضيقى بظروفى واكتئابى ففوجئت بها تخبرنى بأن زميلا لنا من زملاء الجامعة قد اتصل بها وألح عليها فى

السؤال عنى وإبلاغى رغبته فى الارتباط بى فاضطرت لإخباره بظروفى فازداد إصرارا على رغبته فى الاتصال بى.

وأذهلتنى المفاجأة ولم أشعر بنفسى إلا ودموعى تنهمر بغزارة فى صمت، فهذا الزميل الذى حدثتنى عنه صديقتى طالما انتظرت طوال سنوات دراستنا وحتى تخرجنا أن يفاتحنى برغبته فى الارتباط بى فلم يفعل حتى يئست منه وتأكدت من أنه لا يحمل لى إلا مشاعر الزمالة.. فسلمت بالأمر الواقع.. وقبلت خطبة الصالون المتعجلة التى أوقعتنى فى هذه المحنة.

وبعد أيام اتصل بى هـذا الزميـل تليفونيـا واعتـذر لى عـن تأخـره فـى مفاتحتى بأمر ارتباطنا، لأنه لم يكن يستطيع أن يفعل ذلك وهو طالب بالرغم من ظروف أسرته الميسورة وانتهينا فى حديثنا إلى أنه سينتظرنى مهما طال الزمن وسيكون أخا لى يشد من أزرى طوال فترة الانتظار.

وبالفعل فقد كان لى نعم الأخ فى محنتى على مدى أربع سنوات طويلة استغرقها نظر قضيتى فى المحكمة وتعطَّل خلالها حياتى ومستقبلى.. فظل هو خلالها مقيما على العهد لا يرانى ولا أراه ولا يتجاوز الاتصال بيننا مكالمة طويلة من حين لآخر يطمئن كل منا

فيها على الآخر وأبلغه بتطورات القضية.. وكلما تأجلت وبكيت من القهر والغيظ من هذه الظروف التى فرضت نفسها علىَّ.. واسانى.. وساندنى نفسيا ومعنويا وأعاننى على الصبر والاحتمال.

إلى أن جاءت اللحظة الفاصلة واتصل بى ذات يوم فأبلغته وصوتى ينطق بالابتهاج بأن القضية قد انتهت أخيرا لصالحى، وأننا نستطيع الآن أن نعوِّض ما فاتنا من سنوات الانتظار والمعاناة. فاختنق صوته بالفرحة والدموع.

لكن الفرحة لم تطل أكثر من أيام قليلة فقط يا سيدى فقد فاتح زميلى أسرته برغبته فى الارتباط بى ففوجىء بأبويه يرفضاننى بإصرار غريب ولسبب أغرب هو أننى "مطلقة".. مع أنى لست فى واقع الحال كذلك ولم تكن قضيتى فى المحكمة قضية طلاق وإنما قضية "فسخ عقد لعدم التكافؤ" وقد صدر الحكم بفسخ العقد واعتباره كأن لم يكن. وحاول زميلى إقناع أبويه دون جدوى.. ولم تكتف والدته سامحها الله برفضى بل وظلمتنى أيضا دون أن تعرفنى.

وواصل زميلى محاولاته معهما فأبلغاه برأيهما النهائى الحاسم وهو أنه إذا أصر على الارتباط بى فسوف يحرمانه من الشقة الفخمة الجاهزة فى انتظاره فى العمارة الفاخرة التى بناها الأب لأبنائه ومن السيارة التى أعطاها له أبوه منذ فترة قصيرة ومن الميراث الشرعى بعد عمر

طويل.. ولن ينال منهما إذا تمسك بها أراد سوى غضبهما ودعائهما عليه.

لكنه أصر على الارتباط بى رغم ذلك وقال لى إن كل هذه الأشياء المادية لا تعنيه فى كثير وإنه يمكن تعويضها أو تعويض بعضها فى المستقبل بعرقه وكفاحه، أما مشاعره فإنه إذا تخلى عنها فلن يعوضها ولن يغنيه عنها شيء مادي وسيفقد احترامه لنفسه حين يفعل ذلك لأنـه لن يفعله اقتناعا بصواب رأى أبويه. كما أنه ليس من حق أبويه أن يحرِّما ما أحلَّ الله، ومادمنا لا نغضبه فى شيء فلن يتخلى عنا الله ولن يتخلى هو عنى! ورغم حزنى وأسفى لموقف الأبوين من خطيبى وإشفاقى عليه من التضحية التى يقدمها بارتباطه بى إلا أننى ازددت له حبا واحتراما. وبعد أيام تقدم بالفعل لخطبتى ورحب به والدى لأنه وجد فيه رجلا يعتمد على نفسه وليس على أبيه، كما رأى فيه أيضا الرجل الذى سيعوضنى بحبه وحنانه عن معاناتى طوال السنوات الماضية. وحددنا موعد زفافنا بعد ثلاثة شهور من الخطبة وقد مضى الآن معظمها واقترب موعد الزفاف.. ولم يتغير موقف الأبوين من خطيبى ولم يرق قلباهما له.. وأريد أن أسأل أم خطيبى سؤالا واحدًا أرجو من الله أن تجيبنى عنه بأمانه وهو: هل لو كانت لها ابنة شابة واجهت لسوء حظها نفس الظروف التى واجهتها أنا بلا ذنب منى ثم تقدم لخطبتها بعد 4 سنوات من المعاناة والانتظار شاب ممتاز كخطيبى

هذا واعترض أبواه على رغبته بدعوى أنها "مطلقة" هل كانت ستكون سعيدة بموقف هذين الأبوين من ابنتها؟.

وكيف كانت ستشعر تجاهها.. وماذا كانت ستفعل مع ابنتها هل ستحبسها فى البيت لتدفع ثمن ظروفها التى لا ذنب لها فيها أم ستسعى بكل وسيلة لتزوِّجها من إنسان يعوضها ما فاتها من العمر وتسعد به ويسعد بها؟

إننا يا سيدى ننعم أنا وخطيبى بنعمة الرضا.. ولا نريد أكثر مما لدينا وأتاحه لنا الله كبداية لحياتنا يمكن أن تزداد وتكبر بتعاوننا معا وحبنا وإخلاصنا.. ولا نريد الشقة الفاخرة أو السيارة الفخمة التى سحبها الأب من ابنه وقد استطعنا بحمد الله أن نجهز مسكن الزوجية وأعاننا فى ذلك والدى أكرمه الله. لكنى أريدك فقط أن توجه كلمة إلى بعض الآباء والأمهات الذين يقفون فى طريق سعادة أبنائهم ويريدون أن يفرضوا عليهم اختياراتهم هم لشركاء حياتهم دون اعتبار لمشاعرهم تطالبهم فيها بأن يتقوا الله فى أبنائهم، وأن يتركوا لهم أن يختاروا حياتهم بما يرضيهم ولا يتعارض مع ما أمر به الله.. وألا يظلموا أحدا حتى يرضوا ضمائرهم ولا يخسروا أبناءهم واحدًا وراء الآخر.

فلسوف تعجب يا سيدى حين تعلم أن هذا الموقف الذى اتخذه

والدا خطيبى معه حين أراد الارتباط بى اتخذاه هو نفسه مع ثلاثة من أشقائه الآخرين بنفس الطريقة ولنفس الأسباب.. وهى أنهم أرادوا أن يختاروا شريكات حياتهم بإرادتهم فلم يرض الأبوان عن اختيارهم، وكانت البداية مع الأول فعارضاه بشده وهدداه وانتهى الأمر بأن استمر فى طريقه فحرماه من السيارة والشقة مع الوعد بالحرمان من الميراث،! وتكرر نفس الموقف بنفس التفاصيل مع الثانى بعد سنوات ثم الثالث.. ثم الأخير وهو خطيبى وبقيت العمارة الفخمة التى بناها الأب خالية وخاوية على عروشها لا يسكنها سوى البرود وقسوة المشاعر وجمود العواطف.. فى حين اصطفت السيارات الأربع فى موقفها مهجورة لا يقترب منها أحد فما رأيك فى ذلك يا سيدى.. وهل توافق والدىْ خطيبى فى موقفهما منه ومن إخوته.. ومنى؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

إننى دائما ضد استسهال الأبناء خلْع طاعة الأبوين.. والتضحية بهما عند أول مفترق لطريق يعترض علاقتهم معا. ورأيى الذى أكدته مرارا هو أن من واجب الأبناء صغارا كانوا أم كبارا أن يستنفدوا كل الوسائل الممكنة لنيل رضا آبائهم وأمهاتهم ومباركتهم لما اختاروه لأنفسهم من اختيارات الحياة المختلفة وليس فى شأن الزواج وحده طلبا لرضائهم وتجنبا لإغضابهم.. وقربى لربهم.

لكنه من ناحية أخرى فإن من واجب الآباء والأمهات أيضا أن يعينوا هؤلاء الأبناء على عدم الخروج على طاعتهم وعلى الحرص على رضائهم بالعدل معهم والرفق بهم، فليس هناك ما يحفظ للأبوين قدرتها وسلطتها الأدبية على أبنائها أفضل من العدل مع هؤلاء الأبناء وتجنب إعناتهم بما لا يطيقون. ولا تسمح به الطبيعة البشرية. فالعدل فى علاقات الأفراد.. تماما كالعدل فى الحكم هو خير ما ينزع فتائل الانفجار والسخط والتمرد.

والحكماء من الآباء والأمهات يعرفون جيدا أنهم لا يملكون لأبنائهم الراشدين سوى النصيحة ومحاولة إقناعهم بما فى رأيهم من وجوه الحكمة والمصلحة، فإن سدوا آذانهم عنها فلا مفر من التسليم لهم بحقهم فى اختيار حياتهم فى النهاية مع الأمل والدعاء دائما فى أن تصح توقعات الأبناء وتخيب توقعات الآباء فترتاح قلوبهم ويطمئنوا على أبنائهم!

وهؤلاء يتجنبون دائما أن تصل علاقاتهم بأبنائهم إلى مفترق الطرق أو نقطة اللاعودة، فلا يضعون أبناءهم أمام الاختيار القاسى بين أن يحرموا أنفسهم مما يريدون ويتمنون فيكظموا غيظهم ساخطين كارهين حتى لا يفقدوا رضا آبائهم وأمهاتهم، وبين أن ينالوا ما يشتهون وما يرون فيه حياتهم وسعادتهم فيخلعوا طاعة الأهل نادمين أو غير نادمين.

العقلاء لا يفعلون ذلك أبدا.. وإنما يستنفدون مع أبنائهم الراشدين كل الوسائل المشروعة لإقناعهم بما يرون فيه مصلحتهم، فإذا استشعروا أن الأبناء الراشدين لن يستجيبوا لهم ولم تبق أمامهم خطوة أخرى إلا شق عصا الطاعة عليهم والمضىّ فى طريقهم الذى أرادوه بادروا باحتوائهم والتسليم لهم راضين أو كارهين بحقهم فى اختيار حياتهم ودفع ثمن اختياراتهم. وتكرار موقف والدىْ خطيبك المتشدد العجيب مع أربعة من أبنائهما بنفس التفاصيل وانتهائه فى كل مرة، بخلع الابن لطاعة الأبوين واختياره لحياته رغم تهديده بالحرمان من الميراث، وحرمانه الفعلى المباشر من الشقة الجاهزة التى تنتظره والسيارة التى يركبها لا يمكن بمنطق الأشياء أن يكون دليلا على أن الأبناء الأربعة يتميزون جميعًا بالجحود.. والعقوق وسوء الاختيار! وإنما الأقرب إلى العقل والمنطق هو أن يكون الأبوان شديدى التصلب والتعسف فى آرائهما ولا يحتملان أية مخالفة لإرادتهما ويسارعان خطأ كلما اختلفت إرادتهما مع إرادة أحد أبنائهما إلى وضعه أمام الاختيار الصعب بينهما وبين ما يريد فيختار ما أراده ويضحى بكل ما يمثله الأبوان فى حياته من أمان نفسى ومادى.

وهو أمر مؤسف حقا أيا كان الطرف المسئول عنه، لهذا فإنى لا أوافق والدىْ خطيبك على موقفهما منه خاصة إذا كان سبب اعتراضهما عليك فقط ما أشرت إليه من اعتبارك "مطلقة" وأنت فى

الواقع ضحية.. وحتى لو كنت مطلقة فعلا فإن هذا السبب وحده لا يكفى لرفضك وليس مقبولا شرعا ودينا.

ولهذا أطالب الأبوين بألا يحرما نفسيهما من أبنائهما الأربعة الكبار الراشدين.. ومن متعة العطاء للأبناء والتمتع برسم الابتسامة على وجوههم والسعادة بسعادتهم. وأنصحهما بأن يتنازلا عن العناد وتصلب الرأى ويتلمسا الطريق إلى "تراجع مشرف" عن موقفهما، ولن يكلفهما ذلك سوى أن يعطيا فقط إشارة خضراء للأبناء ليسارعوا إليهم نادمين معتذرين عن خروجهم على طاعتهم ومتلمسين عفوهما وغفرانهما مع بقاء الحال بالطبع على ما هى عليه بالنسبة لاختيار كل ابن لحياته وسعادته.

إن التراجع قد يكون فى بعض الأحيان هو القرار الصائب الحكيم الذى يمنعنا الكبرياء الأجوف من اتخاذه، ومن واجب الإنسان أن يحمى حياته وسعادته وسلامه النفسى من الآثار السلبية لهذا الكبرياء الزائف لكن آفة العقل البشرى العناد.. ومأساة البعض هى أنهم يتصورون أنهم يحتكرون الحكمة وحدهم.

* * *

أنا شابٌ عمرى 25 سنة تخرجت فى كلية عملية مرموقة ولى أختان تصغراننى فى السن وقد نشأت فى أسرة طبيعية بين أبوين طبيعيين.. لكنى لم أعرف منهما أنا وشقيقتاى مع الأسف سوى طرف واحد فقط هو أمى!

فأمى هى التى تنفق علينا وتتحمل مسئوليتنا المادية وهى المسئولة عن البيت ولها القرار الأول والأخير وأنا أحبها كثيرًا وأقدر لها ما تبذله من أجلنا فهى مربية فاضلة وخريجة كلية مرموقة وقد ربَّتنا على الحب والتفاهم والعطف المتبادل. وكانت لنا نعم الأم التى عوضتنا عن افتقاد الأب! وقد تتصور من ذلك يا سيدى أننا أيتام فقدنا الأب فى الصغر.. أو أن أبى انفصل عن أمى وهجرنا فعشنا معها وكرست حياتها لنا.. لكن الحقيقة أن شيئا من ذلك لم يحدث.. فأبى على قيد الحياة والحمد لله ولم ينفصل عن أمى يوما واحدا منذ تزوجا وإنما يعيش معنا فى نفس البيت لكنه الغائب الحاضر دائما فى كل ما يتعلق بمسئوليته عنا وقد يئست أمى من محاولة تغييره منذ زمن طويل فسلَّمت بما جرت به المقادير ونهضت لتحمل مسئوليتنا المادية والنفسية والاجتماعية كاملة كما لو كانت أرملة أو مطلقـة. أما أبى وأرجو ألا تغضـب منى لما سأرويه لك عنه أو

تتهمنى بالعقوق فلقد عاش لنفسه فقط ومنذ اليوم الأول لإنجابنا بل إنه لم يعش حتى لنفسه لأنه بخيل إلى درجة لا يتخيلها العقل. ويحب النقود حبا جما وبخله ينعكس على كل شىء فى حياته من مظهره إلى بيته إلى طعامه وحتى إلى كلامه ويحرمه من كل متع الدنيا، وقد عاش عمره كله وهو مهندس ومالك لأراضٍ كبيرة ومزرعة فى الريف وسيارة وعمارة من 10 أدوار فى وسط المدينة يجمع القرش وراء القرش ويكوِّم الجنيهات ثم يودعها البنوك.. ويتعمد توزيعها على عدد كبير منها حتى إذا أفلس بنك منها لم يفقد كل نقوده دفعة واحدة!

ويبدو أنه اتفق مع أمى منذ سنوات بعيدة على أن يعطيها مبلغا سنويا "كبيرا" لشراء ملابسها وملابسنا الصيفية والشتوية، وملابس المدارس أى لكسوة العام كله إلى جانب احتياجات المدارس ومطالبنا الأخرى.. فهل تعرف كم يبلغ هذا المبلغ السنوى الكبير؟ إنه خمسون جنيهًا فقط لا غير.. أى والله العظيم خمسون جنيها " جنيه ينطح جنيه". وليست خمسمائة ولا خمسة آلاف، ولا أعرف كيف توصَّلت معه أمى إلى هذا الرقم الجبار الذى يعتقد أبى إلى الآن أنه كافٍ جدًا لشراء ملابس شاب وفتاتين طوال السنة! وقد ظل هذا المبلغ المهول ثابتا ثبات الجبال الرواسى منذ عشرين سنة إلى الآن.. أو لعله كان عشرين أو ثلاثين جنيها، ونجحت أمى بعد كفاح رهيب معه فى إقناعه بمراعاة نسبة التضخم وارتفاع الأسعار.. فزاده قليلا! والحق

أنى لا أعرف حقيقة ذلك.. لكنى أعرف فقط أن مصاريف مدارسنا كان جدِّى لأمى يدفعها لنا كل سنة من جيبه الخاص وكذلك نفقاتى واحتياجاتى خلال الدراسة وأبى سعيد بذلك وراض كل الرضا، كما أعرف أيضا أننى لا أذكر طوال سنوات طفولتى ودراستى حتى تخرجت وعملت أننى تناولت ذات يوم طعامى فى بيتنا وشبعت شبعًا تامًا من الطعام، لأن كمياته كانت دائما قليلة جدًا كالعيِّنات وحتى صرت فى بعض الأحيان حين كبرت أتناول وجباتى الثلاث مع أصدقائى فى الشارع وتقلق أمى لغيابى الطويل عن البيت، أما أبى فلا يقلق بل يسعد بأن أغيب عن مواعيد الطعام وليته مع كل ذلك الحرمان كان رفيقا بأمى.. أو يقدّر لها ما فعلته وما تحملته من أجلنا بل كان دائما كثير الشجار معها، ويصل الأمر أحيانا إلى مد يده إليها بالضرب والسبب الخالد دائما لكل شجار هو إنفاق "القرش" فى غير موضعه! فحتى التليفزيون حرمنا أبى من مشاهدته معظم سنوات عمرنا توفيرًا للكهرباء! ورغم أن مثل هذه النشأة ينبغى أن تثمر أبناء غير أسوياء فلقد نشأنا طبيعيين والحمد لله نحب بعضنا البعض ونحب الآخرين ولا نبخل بما فى أيدينا على أحد والفضل فى ذلك لأمى وحدها.. بل لقد وجدت نفسى كأى شاب طبيعى أحب زميلة لى بالكلية بإخلاص وتحبنى بنفس الدرجة وصارحت أمى بمشاعرى تجاهها ورغبتى فى الارتباط بها، لأنى لا أتحدث مع أبى فى أى شأن من

شئونى ولو فعلت لما وجدت منه سوى اللوم والتقريع والجفاء وقد رحبت أمى بمشروع خطبتى لفتاتى، وأصبحت المشكلة هى تدبير قيمة الشبكة والمهر والشقة وهى مهمة مستحيلة إذا اعتمدت على مرتبى وحده الذى لا يزيد على مائة جنيه أنفق منها على نفسى من مأكل ومشرب وملبس لأن أبى كما قلت لك لا يساهم فى نفقات أبنائه الثلاثة سوى "بالخمسين" السنوية إياها! وقد قامت أمى ببيع قطعة ذهبية أهداها لها جدّى الذى رحل عن الحياة منذ عام رحمه الله، وتم تدبير قيمة الشبكة، وتقديمها.. وتقبلت أسرة فتاتى ظروفى التى يعلمون بها جيدا، وأكدت لنا أنها لا تهتم سوى بأن أكون رجلا يُسعد ابنتها ويُعتمد عليه. وهذا موقف كريم من أسرة فتاتى أقدره لها وأحترمها من أجله ولكن إلى متى أستطيع الاعتماد على كرم أسرة فتاتى وسوف يجىء يوم بالضرورة تطالبنى فيه بالوفاء بالتزاماتى فى المهر والشقة وهذا من حقهم؟ لقد رفض أبى بالطبع مساعدتى فى زواجى بأى شىء كأنى لست ابنه وهو ليس أبى وكثرت مشاجراته وعدوانيته وسبابه وخلافاته مع أمى على الموضوع الأزلى.. وهو النقود وإذا كان رفض أبى لمساعدتى فى زواجى وهو الثرى القادر الذى تتراكم أمواله فى البنوك مصيبة، فالمصيبة الأشد هى أنه قد أعلن أيضا رفضه أن يجهز شقيقتىّ عندما تتزوجان فى المستقبل ويقول إن كل "شخص" مسئول عن نفسه، ومادام بصحة جيدة فليعمل ولينفق

على نفسه ويتزوج! وقد قرر أنهما لابد أن تعملا بعد حصولهما على الثانوية العامة لتساعدا نفسيهما خلال الدراسة الجامعية! ربما لكى يسد علىّ أى باب للأمل فى إمكانية أن يساهم فى مشروع زواجى بقرش واحد!

إننى أسمع يا سيدى أن الآباء يعملون ويكافحون طوال رحلة حياتهم لكى يُؤمِّنوا مستقبل أولادهم ويؤمنوا لأنفسهم شيخوخة مطمئنة وهادئة. وأبى قد عمل طوال حياته وكافح وجمع مالا كثيرا وهو الآن فى مرحلة التقاعد ويقبع فى البيت بلا عمل لكنه بدلاً من أن يستمتع بثمرة عمله فى هدوء ويستمتع معه أولاده بها.. يحرم نفسه ويحرمنا من كل شىء.. ويتركنا لنواجه الصعاب المستحيلة بلا أى مساعدة من ناحيته.. فبماذا تسمى هذا السلوك يا سيدى.. وكيف تفسره؟ وهل تغضب منى كثيرا إذا قلت لك إننى أكره أبى ولا أحترمه ولا أرى فيه إلا مصدرا لعذابنا جميعا طوال حياته؟ إننى أرجوك أن توجه كلمة لأبى ولكل الآباء من هذا النوع وتحثّهم وتحث أبى على أن يتعطَّف ويترفق بأبنائه ويساعدهم على أمرهم لأن الآباء يجب أن يُسعدوا أبناءهم فى حياتهم وليس بعد وفاتهم كما يقول لنا أبى كلما طالبناه بشىء من أننا سنرث كل شىء بعد وفاته، كما أرجو أن تشكر عنى أمى المربية الفاضلة سندى الوحيد فى الحياة والتى كانت لى أبًا وأمًّا منذ تفتحت عيناى للدنيا وشكرا.

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

إذا تجاوزتُ عن عباراتك القاسية عن مشاعرك تجاه أبيك وعدم احترامك له، فإنى أقول لك إننى لو سوَّدت كل أنهار الصحف فى مناشدة أبيك أن يعدل عن موقفه من الحياة ومن أسرته ومنك.. فلن يُجدى ذلك شيئا مع الأسف. لأن البخل إلى هذه الدرجة المخجلة داء لا دواء له إلا التعايش مع المصابين به.. وتدبير أمور الحياة بعيدا عن مشاركتهم.. وهذا ما تنبهت له والدتك المربّية الفاضلة بحكمتها منذ أمد بعيد فيئست تماما من محاولة الإصلاح.. ورضيت منه بالمبلغ الهزلى السنوى وأكملت نقصه بإنفاقها على أسرتها وأولادها وبطلب مساعدة أبيها لها فى تحمل أقدارها. ولولا هذا لتهدمت هذه الأسرة منذ زمن بعيد، ولو حدث ذلك لما لامها أحد عليه لأن الامتناع عن الإنفاق على الزوجة والأبناء وبما يتناسب مع قدرة الزوج وثرائه من مبررات الطلاق المشروعة وفقا للمبدأ الفقهى المعروف "إما إنفاق وإما طلاق".. لكن والدتك اختارت حماية أبنائها من مخاطر انفصال الأبوين ولو جاء ذلك على حساب حقوقها وصحتها وراحتها، ولا شك أنك محق فى احترامها والاعتراف لها بفضلها، وهذا هو الثمن العادل للتضحية وتحمل الأمانة عن الأسرة والأبناء، أما والدك فلا أمل فيه مع الأسف إذ أى أمل يُرجى فيمن ارتضى لنفسه أن يكون "ضيف شرف" فى حياة أبنائه وأسرته، وترك الحياة فيها تدور حول

محور آخر غير محوره وهو الراعى المسئول أمام ربه عن رعيته وسعد أيما سعادة بتحمل زوجته للمسئولية المادية والنفسية والاجتماعية عن أبنائه كأنما قد أنجبتهم وحدها ورضى كل الرضا عن قيام أبيها بدفع مصروفات أبنائه الدراسية عامًا بعد عام وهو الثرى القادر الذى يوزع ودائعه على البنوك المختلفة خوفا من إفلاس أحدها؟ إنه صادق فعلا من قال "إن البخل الفاضح عجز نفسى عن العطاء حتى للذات.. واختلال شبه عقلى فى تقييم الأشياء يُفقد صاحبه الحكمة والصواب فى أحكامه واختياراته" إذ كيف يصبح للمال قيمة وهو مجمد فى أوراق نقدية صماء لا تغنى ولا تشبع من جوع وصاحبه محروم من كل ما يستطيع المال شراءه.. وأبناؤه يشتهون الشبع فى بيته وابنه الوحيد يعجز عن إعفاف نفسه وتحقيق أحلامه المشروعة فى الحب والزواج وأبوه قادر على أن يعينه على ذلك بلا عناء؟

وأى حكمة فى أن يختار الإنسان لنفسه وبإرادته أن تكون حياته عقبة كَأْداء فى طريق استمتاع أعزائه بحقهم المشروع فى الحياة، فيربط نفسيا لديهم بين استمرار بقائه على قيد الحياة وبين استمرار معاناتهم ويزاوج لديهم بين انفراج كل أزماتهم وزوال معاناتهم وبين اختفائه من الحياة فكأنما يجمع لغيره ويكدس لمن سوف تتغير حياتهم إلى الأفضل بعد رحيله؟ إن العقلاء وحدهم هم الذين لا يرضون لأنفسهم بهذا الاختيار.. والآباء والأمهات كما قلت مرارا ليسا

مسئولين فقط عن إعالة أبنائهم وإنما عن سعادتهم أيضا والأب القادر مسئول شرعًا عن مساعدة ابنه فى إعفاف نفسه بالزواج، وتخلِّيه عن أداء هذا الواجب معه إثم يُحاسب عنه أمام ربه.. بل إن الحديث الشريف يقول لنا إن هذا الابن الذى تخلى أبوه القادر عن مساعدته فى زواجه، إذا أصاب إثما فإن بعض هذا الاثم على أبيه الذى لم يُعنه على أمره ضنّا بماله عليه، أما شقيقتاك اللتان أعلن أبوك عزمه على ألا يساعدهما عند الزواج وعن ضرورة أن تعملا بعد الثانوية العامة لتساعدا نفسيهما فى التعليم الجامعى، فلست أعرف إلى أى المذاهب قد استند أبوك فى هذا الإعلان "الحكيم"، فإذا كان الفقهاء يسقطون عن الأب نفقة الابن الواجبة متى أصبح قادرا على الكسب ويحيلون استمراره فى الإنفاق عليه إلى عاطفة الأبوة وحدها وليس التكليف؛ فإن هذا التكليف نفسه لا يسقط عن الأب بالنسبة للإناث من أبنائه حتى ولو أصبحن قادرات على الكسب والعمل إلا بدخولهن فى عصمة أزواجهن وانتقالهن إلى بيوت الزوجية ويعود هذا التكليف إلى عنقه تامًا وشاملاً إذا عدن إلى بيته مطلقات حتى يتزوجن مرة أخرى.. فمن أين يستمد أبوك "أحكامه" العجيبة هذه؟.

إنه من المؤسف حقا أن يُضاف إلى الأسر التى نسميها "الأسر ذات الأب الواحد" نتيجة لوفاة أحد الأبوين.. أسر أخرى لم يمت عائلها لكنه تخلى عن أفرادها لكن الأسف لا يُجدى شيئا.. لهذا فلا مفر

أمامك من أن تركز كل جهدك على والدتك الفاضلة لمساعدتك بكل ما تملك يداها وعلى أن تدخر كل ما تستطيع ادخاره من مرتبك المحدود وعلى أن تعمل عملاً إضافيًا يوفر لك قطرات جديدة مما سوف تحتاج إليه لإتمام مشروعك.. فلربما.. ربما رقَّ لك قلب أبيك حين يراك تكدح وتعمل ليلا ونهارا لتبنى عش زواجك، فيقرر كما يفضل الحكماء أن يكون له ابن يحبه ويحترمه ويدعو له صادقا بطول العمر بدلا من ابن يحمل له هذه المشاعر السلبية الكريهة التى لا تثمر شجرة الحرمان بلا منطق ولا ضرورة.. سواها وسوى ثمار أخرى لا تقل عنها مرارة!

***

أكتب لك رسالتى هذه بعد أن قرأت رسالة "الجو الثقيل" التى تحكى فيه زوجة شابة عن زوجها الذى تزوج عليها من فتاة أغرته لفترة ثم طلقها وهى حامل تنتظر مولودا، وتحكى لك كاتبة الرسالة عن مشاعرها مع اقتراب مجىء مولود زوجها المنتظر من تلك الفتاة وكيف أنها لا تتصور قيام أية صلة إنسانية بينه وبين أبيه بعد ولادته.. ولا بين أولادها منه ذات يوم وأن هذا كان شرطها لعودة الوئام بينها وبين زوجها وهو ألا يرى مولوده هذا بعد الولادة أبدا وألا تقوم بينهما أية صلة من أى نوع سوى التزامه المادى به.

ولكاتبة هذه الرسالة أريد أن أروى قصتى لترى رأيها فى موقفها من هذا المولود الذى مازال فى علم الغيب بعد أن تطلع على الجانب الآخر من كل قصة مماثلة، وهو الجانب الذى لا يهتم أحد بمشاعره وحقوقه فى كثير من الأحيان، فأنا يا سيدى واحدة من أهل هذا "الجانب الآخر".. وقد تحابَّ أبى وأمى منذ صباهما.. لكن أمى تزوجت لأسباب لا أعيها الآن جيدا من شخص آخر وأنجبت منه طفلين.. وطُلِّقت بعد فترة ومازال أبى هو حبها الوحيد.. وكان لابد للحلم الذى لم يتحقق أن يجد فرصته ذات يوم، ولكن كيف تقبل أسرته

زواجه منها وهى مطلقة ذات طفلين وهو شاب لم يسبق له الزواج من قبل؟ ولقد تفتق ذهن أمى وهى الجميلة الواثقة بنفسها وشبابها وشخصيتها.. عن أن الوسيلة الوحيدة لإتمام هذا الزواج المأمول هو أن يتزوج فتاها الشاب من عروس بكر، كما يتزوج أى شاب زواجًا عائليًا عاديًا وتسعد أسرته به.. وبعد هذا الزواج العائلى المقبول بفترة يتزوجان فلا يكون "الفارق" حينئذ كبيرًا بينهما فكل منهما له تجربة زواج سابقة!.. وحدث ذلك بالفعل.. بغض النظر عن خطئه أو صوابه وتزوجا وتحملت زوجة أبى الأولى الكثير إذْ ليس أشد على المرأة من زواج زوجها بأخرى لكنها تمسكت بزوجها حتى النهاية وكان هذا القرار اختيارا حكيما من جانبها؛ إذ لم تطل الحياة الزوجية بين الحبيبين القديمين أكثر من عامين فقط لأن الزواج شىء آخر غير الحب الرومانسى الذى جمع بينهما فى الطفولة والصبا.. وخلال هذين العامين جئت أنا إلى الحياة وطلق أبى أمى وهى حامل فى شقيقى الوحيد.. ورجع لزوجته الأولى. وعشنا نحن مع أمنا لا يربطنا بأبينا سوى زيارته الأسبوعية لنا يوم الجمعة حين يجىء لزيارتنا بسيارته التى نتفاخر بها ونغطى بمظهرها الفخيم الفقر الذى كنا نعانيه لأن أبى كان ينفق على طفليه من أمى فقط فى حين كنا أسرة من خمسة أفراد بأمى وأخوين من زواجها الأول وأمضيت طفولتى وصباى وأنا أحمل

لأبى حنينا شديدا على الدوام حتى إننى كثيرًا ما حدثته ليلا فى خيالى وتحدثت إليه كأنى أراه أمامى.

وحين كان يرفض لى طلبًا كنت أبكى بالساعات الطويلة أمام المرآة وأشكو إليها منه، ومازالت أمى وإخوتى يذكروننى بذلك حتى الآن مع أنى لم أنسه، ورغم "الإبعاد" المتعمد المفروض علينا أنا وشقيقى، فلقد كنت أحمل دائما لأخى وأختى منه حبًا غريبًا وحنينًا شديدًا رغم أنى لم أرهما ولم أعرفهما، وكثيرًا ما تمنيت أن نلتقى وأن نتبادل جميعا الحب والمشاعر الأخوية الصافية.. إلى أن تحقق لى هذا الحلم الكبير للمرة الأولى بعد حصولى على الإعدادية.. وسمح لنا أبى باللقاء فأقبلت على أخى وأختى منه بلهفة كبيرة ففوجئت بأخى لا يكاد يحدثنى أو يجيب عن أسئلتى إلا "بالعافية".. وبأختى وإن كانت قد بدت أكثر رقة معى إلا أنها أيضا لا تُقبل علىَّ بعض إقبالى عليها.

ولقاءً بعد لقاءٍ.. ومرةً بعد مرةٍ فهمت ما لم تكن سنى الصغيرة تعيننى على أن أفهمه منذ البداية.. وهو أننى وأخى وإن كنا ابنين لأبى مثل ابنيه الآخرين إلا أننا من أهل الجانب الآخر الذى ينظر إليه بريبة وضيق ينعكسان تلقائيا بالتحفظ والصدود على مشاعر الصغار تجاه إخوتهم منه!

واكتوى قلبى العامر بالحب لأخى وأختى بأول الجروح الصغيرة

ثم توالت الجروح بعد ذلك وتكررت فقلبى ينبض لهما بالحب والود والاهتمام، وهما يقابلاننى بالتحفظ.. والردود المقتضبة.. واللامبالاة وبهذا الإحساس الغريب لديهما "بالاكتفاء الذاتى" فأنا أحبهما وأحتاج إلى صداقتهما وودهما وعاطفتهما.. وهما مكتفيان بنفسيهما ولا يحتاجان إلىَّ فى شىء من جانبنا على وجه الخصوص!

وتحولت الجروح الصغيرة شيئًا فشيئًا إلى جروح غائرة فى نفسى التى لا تحمل لهما إلا الخير والمودة.

وبعد طول إقبال من جانبى.. وطول تحفظ وصدود من جانبهما.. جافيتهما مضطرة.. وتحفظت فى إبداء مشاعرى تجاههما ورغبتى فى صداقتهما وانطوت نفسى على جروحها التى لم يخفف منها ما حرص عليه أبى من عدل مادى بيننا وبين إخوتنا حيث وفَّر لنا سكنًا قريبًا من بيته وأثاثًا جميلاً، لكن بقى دائمًا جرح النفس غائرًا لعدم مبالاة إخوتى بنا وصدودهما معنا، ثم حدث بعد ذلك أن تزوجت أختى ودعانى أبى بالطبع إلى زفافها وكعادتى مع أبى الذى أحمل له دائمًا حنينًا عجيبًا وعاطفة طاغية.. قبَّلته وأنا أصافحه مهنئة.. وقبَّلته كلما التقيت به فى الفرح بين المدعوين.. حتى لفتت قبلاتى له نظر والد عريس أختى فسأل أبى عنى وعمن أكون وترقبت باسمة اللحظة السعيدة التى سيقدمنى فيها أبى لصهره فيفهم سر قبلاتى له ـ فإذا به

يتجاهل السؤال كأن لم يسمعه ويتشاغل عن الإجابة بالصمت.. والنظر فى الاتجاه الآخر. وظن الصهر أن أبى لم يسمع سؤاله جيدًا فعاود السؤال عنى.. وعمن أكون من جديد فواصل أبى الصمت القاتل.. وظل صامتًا.. صمت الجانى على "جريمة" لا يريد لأحد أن يطلع عليها وأدركت فى هذه اللحظة أن صهر أختى لا يعلم بوجودى أنا وشقيقى فى الحياة.. فذبلت ابتسامتى.. وأحسست إحساسًا غريبًا بالذل والظلم واليُتْم وانزويت مع شقيقى فى جانب من الحفل صامتين منسيين تخيم علينا الكآبة، والإحساس المؤلم بأن أبى يستخزى من إعلان بنوَّتنا له حتى فوجئنا بصهر أختى والسيدة زوجته يجيئان إلينا ويصافحاننا بدهشة وذهول بعد أن عرفا "الحقيقة" منذ قليل ولم أنس بعد ذلك هذه اللحظة المؤلمة التى صمت فيها أبى عن أن يعلن أننى ابنته، فلقد نجحت زوجته أن تجعل من مجيئى للحياة "جريمة" اقترفها أبى ويشعر بالخزى من إعلانها، وظللت بعد هذا اليوم شهورًا طويلة أتساءل بينى وبين نفسى ألم يكن من الأفضل لأسرة أبى.. ألا أكون قد جئت إلى الحياة حتى لا يعكر وجودى أنا وأخى على ظهر الأرض من صفائها؟

وفهمت سر هذا "الاكتفاء الذاتى" الغامض لدى أخى وأختى اللذين لم "نُولد" ولم نأت للحياة بالنسبة لهما!

ورغم أن لى أخوة آخرين من أمى وكثيرات من الصديقات فلقد أحزننى ذلك كثيرًا.. وأغلقت منذ ذلك اليوم الكئيب قلبى دون أبى وحرَّمت على نفسى بيته وطعامه وأدركت أنه إنما يجود بكرمه علينا أنا وأخى، أما بالنسبة لأخى وأختى الآخرين فهما واجبه الأول فى الحياة ومسئوليته الأساسية التى لا يشعر بالخزى بشأنها وعجبت لأبى وهو الرجل ذو الشخصية القوية الجبارة.. كيف سمح "لنساء" عقولهن قاصرات وقلوبهن ضعيفة أن يفرقن بين نطفه التى خرجت من صلبه وتحولت إلى أبناء ينبغى ألا تقوم بينهم عداوة ولا بغضاء؟

لقد كان الصحابة والصالحون يجعلون للمرأة حدودًا محددة فى قلوبهم لا تتعداها حتى لا يميلوا مع هوى نفوسهن فيظلموا بعض أبنائهم فأين ذهب أمثال هؤلاء الرجال؟

لقد تجرعت الظلم كؤوسًا مريرة بسبب هوى نفس زوجة أبى التى كرهت لابنيها أن يعرفا ابنىْ زوجها من "المرأة الأخرى".. كما تريد كاتبة رسالة "الجو الثقيل" أن تفعل وتتوعد بألا تسمح لزوجها برؤية وليده، ولا لأطفالها بأن تقوم بينهم وبين هذا المولود المنبوذ أية صلة فهل تعرف كيف سيكون إحساس هذا المولود حين يكبر تجاهها وتجاه إخوته منها؟

لقد كنت فى أشد أوقات حزنى أدعو الله على مَنْ دخلت بينى وبين

إخوتى بالشر أن يفرِّق أعضاء جسمها، كما فرقت بين الأخوة بلا ذنب جنيناه.

لكنى توقفت عن هذا الدعاء بعد فترة من الزمن وأوكلت أمرها إلى الله يحاسبها حسابه العادل عن قطعها لصلة الرحم والدم بين أخوة لا ينبغى أن يكون بينهم إلا المودة والتراحم.

فهل تريد كاتبة رسالة "الجو الثقيل" وهى الزوجة الطيبة المسالمة أن يحمل لها طفل زوجها المنتظر هذا الإحساس المؤلم بالظلم والمرارة؟

لقد أدركتنى رحمة ربى بعد ذلك والحمد لله. فكففت عن استجداء مودة أختى وأخى وواجهت لا مبالاتهما بمثلها، ولم يعد بيننا سوى السلام عليكم.. عليكم السلام.. وأنعم الله علىَّ بزوج من أهل الصلاح والتقوى فأشبع حنانى للأب الذى افتقدته وللزوج والابن معا، كما أنعم الله علىَّ بأم تهتم بأمرى وتحبنى بإخلاص، فماذا ينقصنى وأنا فى نعمة عظيمة من ربى يكفينى لأن أعرف لها قدرها وأشكر الله عليها أن أقرأ مقالاتك فى بريد الجمعة ومآسيها المؤلمة.. فأنا أعيش حياتى الآن راضية بها رغم "الردود المقتضبة" و"النظرات الزجاجية" الخالية من العطف والمودة من جانب "البعض".. غفر الله لهم.. وغفر لكاتبة رسالة "الجو الثقيل" التى وإن كنت ألتمس لها بعض العذر فى أحزانها.. فإنى حقًا لا أريد لها أن تحمل وزر التفريق والمباعدة بين أب

وطفله وبين أخوة وبعضهما البعض، كما حدث معنا.. ولعلى برسالتى هذه أعينها على إدراك عمق مشاعر أهل "الجانب الآخر" بالظلم والمرارة حين تفرض عليهم ظروف لا ذنب لهم فيها أن يعيشوا دائمًا مبعدين.. محرومين من عطف أخواتهم وحبهم والسلام.

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

سيظل الإنسان عاجزًا إلى الأبد فيما يبدو عن إيجاد تفسير منطقى مقبول لبعض مظالم الحياة التى تزيد من أسباب الشقاء الإنسانى فى كثير من الأحيان، ومن هذه المظالم البشعة أن تمتد كراهية الإنسان أو نفوره من شخص يرى أنه قد أساء إليه فى بعض الأحيان إلى آخرين من صلبه أو من ذوى قرباه لم يقترفوا إثمًا فى حقه ولا ذنب لهم ولا جريرة فيما دعاه لكراهية هذا الشخص والنفور منه! وهذا بالتحديد هو جوهر ما يُعانى منه معظم أبناء "الجانب الآخر" التى أطلعتنا رسالتك هذه على صورة صادقة ومؤثرة لمشاعرهم وإحساسهم الأليم بالنبذ والتجاهل والجفاء من جانب أهل "الجانب اللامع" من الصورة!

إنه قصور قديم فى النضج العقلى والعاطفى لدى البعض وتقصير أقدم فى التزام الإنسان بما يهديه إليه دينه وقيمه الأخلاقية من ضرورة أن يكون عادلاً مع الآخرين ومع الحياة بصفة عامة فلا تزر وازرة وزر

أخرى.. ولا يُؤخذ أحد بجريرة أبيه وأمه أو أخوته ولا يرضى لأبناء غيره بما يأباه ويجأر بالصراخ منه لو تعرض له هو نفسه أو أبناؤه وأعزاؤه.

فمسئولية الإنسان عن أفعاله مسئولية شخصية دائمًا ولا تنسحب أبدًا على غيره من البشر ولو كانوا من أقرب الناس إليه. وكل الأديان وقوانين البشر تتفق على مبدأ "شخصنة الجريمة" وعدم محاسبة أحد غير مرتكبها عليها.

لكن البعض يتجاهلون فى حياتهم الخاصة أحيانًا هذا المبدأ العادل فيسحبون كراهيتهم وبغضهم لمن أساء إليهم على أبنائهم وذويهم وربما أصدقائهم أيضًا فى بعض الأحيان! حتى لتصبح "جريمة" بعض هؤلاء عندهم هى أنهم قد جاءوا إلى الحياة وتمادوا فى إجرامهم فصمدوا لأنوائها ولم تنطو صفحة حياتهم وهم فى المهد كما عبرت أنت تعبيرًا صادقًا وفريدًا عن إحساسك بذلك عقب مشهد إنكار أبيك المؤلم لك فى حفل الزفاف. إن بعض الزوجات يبررن كراهيتهن لأبناء الجانب الآخر وحرصهن على المباعدة بينهم وبين آبائهم وإخوتهم بأنهم إنما يلجأون إلى ذلك كإجراء وقائى ضد احتمال تجدد العلاقة الزوجية بين الأزواج ومطلقاتهن فى أى مرحلة من العمر إذا تعمقت صلتهم بأبنائهم من زوجات سابقات وتعمقت صلة الإخوة جميعًا من الجانبين بعضهم بعضا!

ويسعدن "بالانتصار" فى تحقيق هذا الفصل والإبعاد سعادة كبرى مع أنه انتصار خير منه الهزيمة لأن "الغالب بالشر مغلوب"، كما يقول لنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ولأنهن يحرمن بهذا الانتصار الزائف أبناءهن من عطف إخوتهم المبعدين وتراحمهم وتساندهم معهم فى الحياة، كما يأثمن قبل كل ذلك وبعده إثمًا كبيرًا بتشجيع أبنائهن على قطع صلة رحمهم بأخوتهم التى أمرهم الله بها أن توصل.

ومن صور الغباء البشرى التى يحار المرء فى فهمها أن يشجع الإنسان أبناءه على أن يفقدوا محبيهم وأنصارهم الحقيقيين فى الحياة الذين لا يجد سواهم غالبًا حين يحتاج إلى المساندة فى شدائد الدنيا.. واختباراتها.

ومن غرور الإنسان الأكثر مدعاة للعجب أن يضيق أحيانًا بمن يحبونه صادقين أكثر مما يضيق فى بعض الأحيان بمن يكرهونه أو بمن لا يحملون له إلا المشاعر الحيادية الفاترة فيجافى من يحبونه.. وينأى بنفسه عنهم غير مدرك أنه حين يفعل ذلك إنما ينقص من عدَّته وعتاده فى الحياة ومن قدره وقيمته فيها بكل أسف، فلا قيمة حقيقية للإنسان إلا لدى من يحبونه ويحرصون عليه ويعتزون بقرابته وصداقته ومودتهم له. وفيما عدا هؤلاء فهو نقطة فى بحر متلاطم من البشر لا يشعر به أحد.. أو ذرة من ذرات "تراب الإنسانية" الذى لا قيمة له

على حد تعبير الفيلسوف الألمانى نيتشه! فكيف ينقص الإنسان من قدره وقيمته بيديه وكيف يجرِّد نفسه طواعية من بعض أسلحته وعدته فى معركة الحياة بهذا الغباء البشرى العجيب؟

لقد عبَّرت يا سيدتى تعبيرًا صادقًا ومؤلماً عن مشاعرك تجاه أخويك اللذين ظلا يَـجْفوانك ويصدان عنهما مشاعرك الحميمة وإقبالك عليهما حتى زهدت أنت فى ودِّهما.. وكففت يائسة عن خَطْب ودِّهما رغم ما تحملين لهما من مشاعر الحب والخير.. ومشكلة البعض أنهم يحاكون "الدنيا" أحيانًا فى تصرفاتهم فيزدادون إدبارًا عنا كلما ازددنا نحن إقبالاً عليهم.

ولا سبيل للتعامل مع هؤلاء إلا باحترام أنفسنا معهم والترفع عن سكب مشاعرنا تحت أقدامهم مهما كانت عواطفنا تجاههم قوية غلابة. ولا يتعارض ذلك أبدًا مع صلة الرحم التى ينبغى الحرص عليها ولا حتى مع المبدأ العادل الذى يحضنا عليه الحديث الشريف حين يأمرنا بوصل رحم حتى من لا يصلون رحمنا مؤكدًا لنا أنه "ليس الواصل كالمكافىء" وليس أجر من يصل الرحم حتى ولو أعرض عنه كأجر من لا يصل إلا رحم من وصله. نعم لا يتعارض احترام النفس مع المعرضين عن هذا المبدأ الرحيم، إذْ يستطيع الإنسان دائمًا أن يصل الرحم، وألا يكتفى بأن يكون "مكافئًا" لمن يصله فقط مع الحرص فى

نفس الوقت على كرامته الإنسانية وعلى عدم امتهانها فى خطب وِدٍّ من لا يحرصون على مودته.. فيستطيع دائمًا أن يؤدى تجاههم واجباته العائلية والإنسانية غير منتظر أى جزاء من جانبهم لما يفعل، وفى حدود احترام الإنسان لنفسه وعدم مطاردته للمعرضين عنه بمشاعر لا يولونها ما تستحقه من تقدير واعتبار، ويكفيه فى ذلك أن الحياة كثيرًا ما تصحح من بعض أخطائها فيجزى الله أصحاب النفوس الطيبة التى تأسى على جفاء الآخرين لها بمن تتكافأ مشاعرهم مع مشاعرها ويعرفون لأصحابها قدرهم وفضلهم، كما حدث معك أنت شخصيًا حين التقيت بزوجك الفاضل، فكأنما يجزينا الله فى كثير من الأحيان عما قدمناه من خير للبعض فجحدوه ونأوا عنه بخير أشمل وأعم يجيئنا من الاتجاه الآخر.. ولا غرابة فى ذلك ولا عجب فهناك عائد دائمًا لكل ما يقدمه الإنسان للحياة والآخرين من خير ولكل ما تحمله نفسه من مشاعر طيبة تجاههم.. حتى وإن لم يجىء العائد عنها منهم شخصيًا.. وجاء من اتجاه مغاير. فلابد للنفوس الطيبة التى تحزن لجفاء الآخرين لها.. أن يلتقى أصحابها ذات يوم بمن يشاركونها هذه النظرة الودود للبشر وللحياة فيجد كل منهم ضالته.. ويستعيد كرامته الإنسانية المهدرة وحقوقه الضائعة وإحساسه بالجدارة بأن يحبه الآخرون كما يحبهم وشكرًا لك فى النهاية على رسالتك القيمة هذه..

وأرجـو أن تتفـكر فـى مغزاهـا طويـلاً كاتبـة رسـالة "الـجو الثقيل" وأن تستفيد بما أطلعتنا عليه رسالتك من صورة فريدة لمشاعر أهل الجانب الآخر التى يتشاغل عنها البعض أحيانًا خلال سعيهم المحموم لتأمين سعادتهم.. ودفع كل احتمالات الخطر القريبة.. والبعيدة عنها!

* * *

أكتب لك بعد تردد طويل عسى أن أجد لديك الرد الشافى لآلامى التى أعانيها منذ حوالى عام.. فأنا يا سيدى زوجة لمهندس حاصل على الدكتوراه فى تخصصه وأم لثلاثة أبناء وابنة وحيدة، والحمد لله فقد تخرج أبنائى جميعًا فى كليات القمة، وهاجر اثنان منهم إلى أمريكا.. وشق الثالث طريقه هنا فى مصر، وتزوج الثلاثة واستقرت حياتهم. وخلا بيتنا علىَّ أنا وزوجى وابنتى التى تعمل عملاً مرموقًا وتتميز باستقلال شخصيتها ورجاحة عقلها وحنانها الذى يعادل حنان كل أخوتها مجتمعين. فهى دائمًا مشغولة الخاطر بى وبوالدها. ومهتمة بقضاء طلباتنا وتوصيلنا بسيارتها إلى أى مكان نريده. وهى نهر حنان وحب لا ينضبان لنا ولإخوتها وأولادهم، وحين يعود شقيقاها أو أحدهما من الخارج كل سنة تتفرغ لأسرته وله وللسفر معهم لأى مكان داخل مصر.

15

ومنذ حوالى عامين تقدم لابنتى هذه طبيب شاب وتم عقد قرانها بعد قليل وتزوجت وانتقلت إلى مسكنها لكنها كانت كثيرة التردد علينا بشكل لا يتناسب مع ظروف عروس جديدة مفروض أن تكون مشغولة بزوجها فى الشهور الأولى أكثر من أهلها، وبحاسة الأم شعرت بأنها تواجه مشاكل عميقة مع

زوجها ولا تجرؤ على الكلام عنها مع أحد من أسرتها، فلم أحاول مع الأسف سؤالها عنها ولو من باب الاطمئنان أو التشجيع.. واعتمدت في ذلك على شخصيتها المستقلة ورجاحة عقلها التي كانت تساعدها على حل مشاكل إخوتها.. وتوقعت أن يساعدها ذكاؤها على حل مشاكلها مع زوجها الذي لم أسترح له أبدًا.. لكنها استمرت في الذبول والسرحان والتشتت، وأصبحت منطوية على نفسها. ومع هذا وليسامحني الله لم أسألها أيضًا عما بها ولم أحاول استدراجها لتتحدث معي عن متاعبها وتنفس عما تكتمه في صدرها. فلم تمض فترة طويلة حتى فوجئت بطلاقها من زوجها بعد شهور لم تكمل العام من الزواج وبعودتها إلى البيت ذليلة النفس.. حزينة.. وأرجو ألا تقسو عليَّ في ردك حين تعرف أنني رغم ذلك لم أسألها عن أسباب الطلاق.. ولا عن الظروف التي أدت بعلاقتها بزوجها إلى هذا الطريق المسدود بعد فترة قصيرة هكذا وإنما ضقت بفشلها.. وحكمت عليها في نفسي بأنها لا تصلح للزواج.. وينبغي ألا تفكر فيه إلا إذا أصبحت مستعدة له وللدفاع عن بيتها وحياتها، وتحدثت بذلك مع أبيها وإخوتها المهاجرين والمقيم وطلبت منهم ألا يكتبوا لها خطابات.. وألا يهوّنوا عليها ما حدث حتى تحس بخطورته وتتعلم الدرس الذي تستحقه واستجاب لي إخوتها وعملوا بنصيحتي، ورحت أنا ووالدها نضيّق عليها في كل شيء لتعرف أن بيت زوجها مهما كانت متاعبه أهون من

بيت أبيها، بل إننى وأعترف لك بذلك أيضًا.. حاربتها.. فى كل شىء كانت تحبه قبل الزواج وهى صامتة لا تنطق بكلمة وقد أصبحت وحيدة تمامًا فى الحياة. إلا أننى لاحظت عليها بعد فترة أنها على اتصال مستمر بأسرة تمت لنا بصلة الصداقة منذ عشرين عامًا تتكون من زوجة وزوجها وأبنائهما المتزوجين وتقيم بالقرب منا، وأن ابنتى قد أصبحت شديدة التعلق بهم بعد طلاقها وتزورهم كل يوم وتتناول غداءها معهم، فإذا لم تفعل اتصلت بهم مرتين فى اليوم، كما تهتم بمجاملتهم فى مناسباتهم العائلية، حتى بدأ الشيطان يوسوس لى بأنها ربما تكون على علاقة برب هذه الأسرة الذى يماثل أباها فى العمر، فاستعذت بالله من الشيطان الرجيم وهدَّأ من خواطرى أنى وجدتها شديدة الاهتمام بالزوجة نفسها ثم مرضت هذه الصديقة مرضًا عابرًا فساءت حالة ابنتى النفسية للغاية واكتأبت وظلت مشغولة البال بمرضها ولم تسترد نفسها إلا حين شفيت. وحين زرناها فى بيتها لنهنئها بالشفاء فوجئت بابنتى تندفع إليها وتحتضنها وتقبلها بلهفة وحنان وكذلك فعلت صديقتى بحرارة أيضًا حتى بدأت أحس بالغيرة منها، خاصة أن ابنتى أصبحت جافة المشاعر تجاهى وتجاه أبيها منذ شهور، وغاظنى إلى حد الكمد أننى سمعتها تناديها بالكلمة التى لا ينبغى أن تنادى بها أحدًا غيرى.. وهى: "يا ماما". وأحسست بعد انصرافنا أن هذه الصديقة قد سلبت منى ابنتى وبدأت أكرهها رغم

صداقتنا القديمة.. وبدأت أتعمد ذكر عيوبها أمام ابنتى لكى أبعدها عنها وهى لا تبالى بها أقول وتزداد بعدًا عنى واقترابًا منها، وقد أصبحت الآن مع الأسف لا تبالى بأخبارنا أو بمرض أحد من أولادى وأحفادى كما كانت تفعل قبل ذلك، وأصبحت غليظة القلب تجاهنا بعد أن كانت كالبحر الذى يفيض علينا جميعًا حبًا وحنانًا، إننى أعترف لك بأنى قصَّرت فى حق ابنتى قبل طلاقها وقسوت عليها بعده وقد شجعنى على ذلك زوجى وأبنائى، لكنى من ناحية أخرى قد أصبحت وحيدة بعد انصراف ابنتى بمشاعرها عنّى وأريد أن أصلح خطئى معها وأستردها فماذا أفعل لأستعيد ابنتى من هذه الصديقة؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

وماذا كنت تنتظرين منها أن تفعل يا سيدتى بعد أن حجبت عنها عطفك واهتمامك بأمرها وهى تواجه محنتها المؤلمة مع زوجها وحرمتها من مواساتك وتأييدك النفسى لها بعد انفصالها عنه؟

لقد حجبت عنها شيئًا جوهريًا يحتاج إليه كل إنسان مهما بلغ من العمر وهو العطف الإنسانى وإبداء الاهتمام بأمره من جانب أعزائه، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل جفوتها ونبذتها ثم استعديت عليها أباها وإخوتها، دون أن تتبينى أو تهتمى بمعرفة أسباب طلاقها فأصدرت عليها بذلك حكمك بالإدانة دون أن تسمعى دفاعها. فهل كان هذا هو التصرف السليم فى مثل هذه الظروف؟

وهبى أنك قد عرفت من مصادر أخرى أنها مسئولة عن انهيار زواجها أو أنها لم تكافح جديًا لإنقاذه فهل يكون العلاج بالنبذ والجفاء والتضييق عليها وإشعارها بأنها وحيدة تمامًا فى محنتها.. وكل أفراد أسرتها على قيد الحياة؟ أم يكون العلاج بالاقتراب منها وتفهم أسبابها.. وتصحيح أخطاء تفكيرها وشأن زواجها وحياتها؟

إن الإنسان يا سيدتى يحتاج دائمًا إلى عطف المحيطين به وخاصة إذا كان هو نفسه عطوفًا وحنونًا معهم. والمياه تسقط فوق رؤوس الجبال فى موسم الأمطار فتشق لها طريقًا ومجرى عبر الوديان إلى مصب طبيعى لها فى البحر، فإذا اعترضت السدود طريقها ارتدت عنها وتشتت فى الجوار أو صنعت لها بحيرة جديدة بلا شطآن. وابنتك يا سيدتى كانت باعترافك نهرًا صافيًا من الحب والحنان والاهتمام بكم فسددتم عليها مصبه ومجراه بالجفاء والنبذ وعدم المشاركة فساحت مياهها فى الجوار واتجهت إلى أرض طيبة أخرى بادلتها العطف والاهتمام.

ولا عجب فى ذلك.. بل ولا عجب أيضًا فى غضبك وغيرتك من اهتمامها بصديقتك فى مقابل جفاف مشاعرها الآن نحوك. فهى غيرة إنسانية مفهومة يحسها المرء حين يرى مشاعر أعزائه تتجه إلى غيره وتبتعد عنه وهو الأحق بها، لكن هناك من ناحية أخرى أناسًا قدرهم

فى الحياة فيما يبدو هو أن يعطوا دون أن يأخذوا ما يتكافأ مع عطائهم للآخرين؛ فإذا ضاقوا بذلك أو جفت ينابيعهم تجاهنا غضبنا نحن دون أن نفكر لحظة فى أننا لم نقدم لهم ما يشجعهم على استمرار التدفق والعطاء. وأنت يا سيدتى قد غضبت لانفصال ابنتك المتعجل ولك الحق فى ذلك كأم، وأردت إشعارها بخطورة الانفصال رغم أنه لم يتوافر لك الدليل على أنها الجانية فيه وليست الضحية.. والغاية الشريفة العادلة ـ كما يقول لنا زعيم الهند الروحى المهاتما غاندى ـ تحتاج أيضًا إلى وسيلة شريفة وعادلة لبلوغها.. وليس إلى أى وسيلة مهما كانت قاسية أو غير إنسانية.

ولقد أخطأت الوسيلة إلى بلوغ غايتك الشريفة.. فتحولت عنك مشاعر ابنتك إلى صديقتك التى وجدت لديها كل ما تحتاج إليه فى هذه المرحلة من حياتها. وأنت تسألينني فى النهاية كيف تستردين ابنتك من هذه الصديقة؟! وأنا لا أنصحك بمحاولة استردادها منها وإنما بمحاولة استعادة دورك معها كأم وصديقة، دون أن يتعارض ذلك مع علاقتها مع هذه الصديقة وأسرتها، وليست هناك وسيلة للحصول على صديق مخلص لنا سوى أن يكون الإنسان أيضًا صديقًا مخلصًا لمن يرغب فى صداقته، وما ينطبق على الأصدقاء يصحُّ أيضًا على الأبناء حين يكبرون وتصبح لهم شخصياتهم المستقلة عنا. والخطوة الصحيحة فى الاتجاه الصحيح هى أن نمنحهم عطفنا واهتمامنا

وتفهمنا لظروفهم وتأييدنا النفسى لهم فيبادلوننا كل ذلك بما نحبّ منهم وأكثر. ومشاعر الإنسان الصادقة تتسع دائمًا يا سيدتى لأبويه وأسرته وأصدقائه وشركاء الحياة، لهذا فلا تحاولى حرمان ابنتك من صداقة هذه السيدة العطوف التى لبَّت لها احتياجًا إنسانيًا كانت فى أشد الحاجة إليه فى محنتها الشخصية، وإنما قدّمى لها أنت ما تقدمه لها وأكثر.. فيتحول إليك مرة أخرى نهر حبها واهتمامها دون أن يستغنى النهر عن روافده الإنسانية الأخرى.. وبغير أن يتعارض ذلك مع حبها لك واهتمامها بأمرك.

* * *

أودُّ فى البداية أن أشكرك على ما شملتنى به أنت وقراؤك من اهتمام حين نشرت مشكلتى منذ شهور. فأنا يا سيدى الطبيب الشاب الذى كتبت لك رسالة نشرتها بعنوان "السؤال الصامت" ورويت لك فيها أننى قد خطبت فتاة جميلة رشحتها لى أسرتى.. وبدأنا نستعد للزفاف فتعرضت خطيبتى فجأة لحادث سيارة فقدت بسببه قدرتها على السير، ووقفت إلى جوارها فى الأيام الصعبة التالية للحادث.. ورأيت "السؤال الصامت" فى عينيها يسألنى بإشفاق هل سأتخلَّى عنها بعد ما حدث لها أم سأتمسك بها للنهاية كما كنا نخطط قبل الحادث. ثم بدأت أسرتى تدخل معى فى مناقشات طويلة محصلتها أنه رغم الأسف لما حدث لفتاتى، فإننى يجب أن أبحث عن مستقبلى بعيدًا عنها ومعارضتى لأسرتى فى ذلك مؤكدًا لها أننى إذا فعلت ذلك فسوف أفقد احترامى لنفسى لأن فتاتى لا ذنب لها فيما حدث. وقد نصحتنى فى ردك علىّ بالتأنى فى اتخاذ قرارى بشأن مستقبلى لكى يكون صادرًا عن اقتناع كامل، ورويت لى قصة بطلة العالم فى الانزلاق على الجليد التى أصيبت بشلل كلِّى فى حادث مؤلم.. فلم يتخل عنها فتاها وتزوجها، وراح ينتقل بها من مكان إلى مكان حاملاً إياها فوق ظهره وفخورًا بها، وكيف سعد بزواجه منها وأنجب منها عدة

أطفال ونجح زواجهما حتى الآن. وقد شارك قراء آخرون فى التعليق على قصتى وروى لك أحدهم وهو طبيب كبير قصة مماثلة لفتاة جميلة تعرضت لنفس الظروف وهى مخطوبة وأشرف على علاجها ثم زارته فى عيادته بعد سنوات مع خطيبها الذى أصبح زوجها ومعهما طفلهما الأول.. وكيف رأى "جمال الله" يحيط بالزوجين الشابين وأسرتهما السعيدة. وقد وجدت من واجبى أن أطلعك الآن على تطورات قصتى خلال الشهور الماضية. وأبدأ بأن أصارحك القول إننى كنت موزَّع المشاعر خلال تلك الفترة ولا أستطيع الاستقرار على رأى، ومع أنى قد ملتُ بكيانى وروحى إلى حبيبتى فلقد آثرت التريث حتى لا يكون قرارى متأثرًا بظروف فتاتى المؤلمة ثم أندم عليه فيما بعد. واستمرت المناقشات العائلية بينى وبين أسرتى حول هذا الأمر وكلها تطالبنى بالانسحاب فى هدوء. ولأننا قد نشأنا على الاستقلالية وعدم إرغام أحد على ما لا يريد والاكتفاء بتوجيه النصح والمشورة إليه، فقد تركتنى أسرتى فى النهاية لأتخذ قرارى بملء إرادتى وكفَّت والدتى وشقيقتاى بعد فترة عن مناقشتى فى الأمر، لكن شيئًا آخر كان يجرى تحت السطح دون أن أدرى فقد كنت أؤدى عملى بالمستشفى صباح كل يوم ثم أتوجه إلى خطيبتى لأقضى معها فترة الغداء لمدة ثلاث ساعات ثم أتوجه بعد ذلك إلى عيادتى وأعود متأخرًا إلى بيت الأسرة، فلاحظت أننى رغم تأخر الوقت أعود غالبًا فأجد شقيقتىَّ مع إحدى

صديقاتها يتسامرن ثم يحرصن على تناول العشاء معى.. وتطلب منى شقيقتاى توصيل صديقتهما إلى بيتها لأن الوقت قد تأخر بها فلا أتردد فى أداء هذا الواجب رغم إرهاقى. وفى البداية ظننتها مجرد مصادفة لكنها تكررت كثيرًا ومع أكثر من صديقة من صديقاتهما وبنفس الترتيب.. وفطنت فى النهاية إلى أن أمى وشقيقتىَّ يتعمدن إحاطتى بفتيات جميلات صحيحات البدن فى سن الزواج لكى أقارن بينهن وبين وضع خطيبتى وظروفها الصحية المؤلمة.. وتأكدت من ذلك حين اضطرت شقيقتى الصغرى الأكثر قربًا منى لمصارحتى بذلك وتبريره لى بحرصهن على مصلحتى وخوفهن من أن أتخذ قرارًا عاطفيًا ربما أندم عليه فى المستقبل مع التسليم الكامل بأنه لا ذنب لخطيبتى فى سوء حظها ومع التعاطف الصادق أيضًا معها.

ومن ناحية أخرى فقد ظل "السؤال الصامت" يتراءى أمامى فى عيون خطيبتى دون أن أجيب عنه إجابة صريحة.. وقد انفرد بى والد خطيبتى بعد أيام من الحادث وصارحنى وهو متألم أنه لا يلزمنى بشىء لو أردت الانفصال عن ابنته وأنه سيعيد إلىَّ شبكتى فى أية لحظة أرغب فى ذلك وبلا لوم ولا عتاب من جانب أسرته بل سيلتمسون لى العذر إذا رأيت ذلك. ولم أجبه إجابة قاطعة وإنما قلت له إن هذا الأمر سابق لأوانه وأن كل ما يعنينى الآن هو أن تسترد فتاتى صحتها النفسية والبدنية. ثم أقدمت بعد ذلك على خطوة مهمة فقد نقلت

خطيبتى من المستشفى الذى تعالج فيه إلى المستشفى الذى أعمل به مبررًا ذلك بتوفير رعاية أفضل لها. ولكنى فى الحقيقة تعمدت ذلك لكى أقضى معها أكبر وقت ممكن وأستطيع أن أبتعد عن التأثيرات الأخرى. وقد أتاح لى وجودها معى بالمستشفى فرصة قضاء وقت طويل معها كنت خلاله أحتضن يدها بين يدىَّ وأتأملها صامتًا ونستسلم معًا للصمت والسكون والتفاهم الذى لا يحتاج إلى كلام.. وفى هذا الصمت الحانى استمعت بصفاء إلى صوت قلبى وتأكدت من أننى أريدها بكل كيانى وعقلى وقلبى، ولا أريد سواها.. صحيحة كانت أم مريضة وانتهيت إلى قرارى هذا بعد أن وازنت طويلاً بين عقلى وقلبى واستشرت عدّة أطباء نفسيين فى كيفية التعامل مع فتاتى بعد الحادث، كما استشرت أيضًا طبيبها المعالج ووجدت فى فتاتى فى النهاية خير زوجة لى وخير حبيبة. وأعلنت أهلى بقرارى هذا وبعد مناقشات صاخبة وانفعالية وصلت أحيانًا إلى حد التهديد بالقطيعة، أذعنوا لقرارى على مضض.. وبعد استشارتى للطبيب المعالج.. انتظرت حتى جاء والد فتاتى لزيارة ابنته وخلت الغرفة علينا نحن الثلاثة ثم فاجأته بطلب تحديد موعد زفافنا! ومهما حدثتك عن تأثير ذلك على فتاتى فلن أستطيع أن أصف لك تلك اللحظة المؤثرة ولا النظرة الدامعة بالحب والسعادة والابتهاج حين سمعتنى أطلب ذلك من أبيها. وتم الزفاف بعد ذلك بقليل فى حفل بسيط بناء على رغبة

حبيبتى. وحضر أهلى جميعًا حفل الزفاف بعد أن زالت أسباب الخلاف الطارىء وظهرت عاطفة المحبة والمودة الكامنة فى النفوس، وكان من توفيق ربى أن حصلت على مسكن قريب من أسرة زوجتى حيث تقوم والدتها وشقيقتها بمساعدتها فى بعض الأعمال التى لا تقوى عليها، وإن كانت هى تحاول بكل جهدها ألا تقصر فى شىء وأن تثبت لنفسها أولاً أنها قادرة على أداء أى عمل، وكما تآلفتُ مع زوجتى فقد تآلفت مع أسرتها ومع أبيها وهو رجل فاضل وناجح فى عمله ومع شقيقتها وهى طبيبة امتياز تعمل معى بنفس المستشفى.

وقد رأى طبيبها المعالج ضرورة تأجيل الحمل فى أولى سنوات الزواج لأن زوجتى مازالت تجرى العلاج الطبيعى.. ولأن الحادث قد نجم عنه كسر بعظام الحوض والساقين، ومن الأفضل ألا تتعرض زوجتى لمجهود الحمل فى العام الأول رغم شفاء الكسر تماما.. لكن زوجتى كانت تريد إنجاب طفل على الفور.. ولم تقتنع بتحذيرات الطبيب ولا مبرراتى.. وعندما رفضت الاستجابة لرغبتها انتابتها حالة من الاكتئاب والحزن وفسرت رفضى بأننى لا أريد الارتباط بها إلى نهاية العمر.. ولم تُجدِ مناقشاتى معها بأننى قد اخترتها كما هى ولا أريد سواها ولا أقارنها بأى إنسانة أخرى. ومع حيرتى بين تحذير الطبيب، ورغبة زوجتى وغضبها الصامت، فلم أندم لحظة على زواجى منها بل وجدت فى حياتى معها كنزا من الحب والحنان والمودة

ولم أحتمل حزنها واكتئابها طويلاً، فأذعنت أنا والطبيب المعالج وأسرتها جميعًا لرغبتها ترفقًا بها وبشرط أن تظل تحت الرعاية الطبية المستمرة خلال الحمل.. وقد أصبحت زوجتى الآن يا سيدى حاملاً فى شهرها الثانى.. ولا تسلْنى عن تأثير ذلك على حالتها النفسية والمعنوية.. ولا عن فرحتها الطاغية بدبيب الحياة الجديدة التى تنمو فى أحشائها. لقد أطلْتُ عليك فى رواية قصتى، لكنى أردت أن أطمئنك فى النهاية وأطمئن قراءك الأفاضل إلى أن الله سبحانه وتعالى قد وفقنى إلى إجابة السؤال التى سعدت بها ولم أندم عليها، ولكى أقول للجميع إن سعادة الإنسان لا تعتمد على حالته المادية أو الصحية، وإنما على ما يحسُّ فى قلبه من صفاء وسكينة ومودة لمن يحب ومن يبادله هذه المشاعر النقية بإخلاص.. وشكرًا لك ولقرائك والسلام.

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

مهما تخيلتْ فلن تعرف كم أسعدتنى رسالتك هذه! لقد نصحتك بالفعل بأن تتريث فى اتخاذ قرارك بشأن مستقبلك مع فتاتك لأنك كتبت إلىَّ رسالتك الأولى بعد ثلاثة أسابيع فقط من وقوع الحادث، وظلال المأساة تخيم على الموقف، وخجلك من أن تتخذ موقفًا يتنافى مع احترامك لنفسك أو مع الشهامة واضح فى سطور رسالتك، لهذا فقد نصحتك بأن تختبر أولاً صدق مشاعرك تجاه فتاتك وتتأكد من أنها

مشاعر حب حقيقية صادقة غير مختلطة بمشاعر الإشفاق والتعاطف والرغبة فى النأى بالنفس عما لا يليق بها. لأن هذه المشاعر رغم نبلها لا تكفى لزواج متين البنيان، ورجوتك بعد أن تتأكد من عمق المشاعر وصدقها أن تمضى فى الطريق الذى تهديك إليه حكمتك بلا تردد.. وبلا تقصير فى إقناع ذويك بمباركة اختيارك إذا استقر قرارك عليه. وحسنا فعلت حين تريثت وقتًا كافيًا دون أن تجيب عن السؤال الصامت حتى سمعت نداء القلب الصادق فى صفاء السكون والبعد عن المؤثرات.. فجاءت النتيجة فى النهاية لصالح الصدق مع النفس وكسبت الحياة عشًا صغيرًا سعيدًا.. وقلبيْن متعاطفين امتحنت روابطهما الأقدار فصمدا للاختبار، وكسبت الحياة قيما سامية جديدة هى قيم الوفاء والإخلاص والفهم الصحيح للسعادة الحقيقية. لقد أجبت عن "السؤال" أنبل إجابة وأشرفها وفهمت دوافع والدتك وشقيقتيك حين اختلفن معك حول هذا القرار الفهم الصحيح، فعرفت أنه لم يكن سوى خلاف أحباء أرادوا بإخلاص لك السعادة حسبما يتصورونها.. وسرعان مازال الخلاف كأنه سحابة صيف عابرة حين تمسكت باختيارك لسعادتك كما تراها.. وسلم لك الأحباء بما تريد.

إن الحب فى أحد وجوهه هو أن نهتم بأمر من نحب ونطلب سعادته ومصلحته حتى ولو أخطأنا التقدير فيما نتصوره محققًا لهذه

السعادة. وما أجمل أن يجد الإنسان من يهتم بأمره إلى حد الاختلاف معه حرصًا عليه وطلبًا لسعادته. وما أحرى ما حدث بينك وبين والدتك وشقيقتيك أن يزيدك حبًا لهن وإدراكًا لعمق محبتهن لك.. وما أنبل أن تتجاوز زوجتك عن هذا الموقف العابر من جانبهن تقديرًا لدوافعهن الأسرية المخلصة وتسليمًا بأن موقفها هى نفسها لم يكن ليتغير كثيرًا عن موقفها لو كان شقيقها قد واجه نفس الاختيار الذى واجهته أنت وذلك قبل أن تسلم له فى النهاية بما سلمت لك به أسرتك. ولهذا فإنى أتصور أنها سوف تتجاوز عن هذا الموقف العابر الذى صنعته المشاعر العائلية الصادقة ولن تسمح له بأن ينقص من تقديرها لأسرتك المتحابة أو يفسد من روابطها بها..

فأظفر الناس بقلوب الآخرين هم أكثرهم فهما لدوافعهم وقبولاً لأعذارهم وإنصافًا لهم وما أحسب زوجتك إلا من هؤلاء المنصفين مع تمنياتى لك ولها بعمر مديد من السعادة الحقيقية.. والصُحبة الهانئة.. والشركة المخلصة فى مباراة الحياة.

أريد أن أعرض عليك قصتى وأطمع فى سعة صدرك حتى أنتهى من سردها لأنى لا أستطيع أن أتحدث بها لأحد وأحس بالاختناق ضيقا بها أكتمه عن الجميع. أنا سيدة جامعية وأعمل عملاً مرموقًا، وقد عشت طفولة محرومة بين أبوين نزحا من الريف وعمرى حوالى عام وأقاما فى المدينة وعمل أبى فى وظيفة حكومية صغيرة، وكان أبرز ما يميز شخصيته هو الصرامة فى معاملة أبنائه، وأنه لا يعرف من مبادىء التربية سوى الشدة المتناهية معهم وغرس طاعة الصغير للكبير واحترامه، أما أمى فلست أذكر لها فى مخيلتى سوى البكاء والطاعة العمياء لأبى وقد رزقت بى وعمرها ثمانية عشر عامًا فكانت طفلة كبيرة ترعى طفلة أصغر منها، وكان أبى رغم صرامته فى معاملتنا حسن النية وقليل الخبرة بالحياة وبالنفوس البشرية، كما كان كريما يفتح بيته لكل من هبَّ ودبَّ، ليقيموا فيه خاصة من أبناء قريته، فكانت ثمرة هذه الغفلة والسذاجة أن اعتدى أحد هؤلاء الذين فتح لهم بيته وآواهم علىَّ وأنا طفلة صغيرة لا أتجاوز من العمر سبع سنوات.. ولمْ أعِ جيدًا ما حدث لى ولم أخبر به أحدًا فقد تشربت طاعة الكبار والخوف منهم دائمًا.. ولم ألبث أن نسيت كطفلة ما حدث معى ومضت السنوات وتقدمت فى الدراسة وتفتحت مداركى

فبدأت أدرك حقيقة ما جرى لى، وقد تعجب حين أقول لك إننى قد تبينت ذلك وأنا طالبة فى ختام المرحلة الثانوية ومن مشكلة مشابهة نشرت فى إحدى الصحف ووجدتها مطابقة لما حدث معى فانتابنى الهلع وتشككت فى سلامتى كفتاة وتذكرت الشيء البشع الذى حدث لى فى طفولتى وتساءلت ماذا لو كنت حقًا غير سليمة ـ وكيف أواجه الحياة.. وماذا أفعل إذا خُطبت لشاب وكيف أتصرف معه هل أصارحه بشكوكى فى نفسى.. وهل يصدقنى ويتمسك بى أم يحتقرنى ويتركنى مُـجلَّلة بالخزى.. وهل يكون أمامى طريق آخر فى مثل هذه الحالة إلا الانتحار؟

وثقلت علىَّ أفكارى وهواجسى وابتلَّت وسادتى من كثرة دموعى كلما تمثلت هذا المستقبل المحفوف بالمخاطر.. وأخيرًا نزلت علىَّ هداية من السماء وقررت أن أدع أمرى لخالقى يصرِّفه كيف يشاء والتحقت بالجامعة.. وتجنبت كل الشباب كأنى أفر من خطر محتوم.. ورفضت كل محاولات الاقتراب منى فى الجامعة وبعد التخرج حتى لا أبدأ قصة أعرف مقدمًا نهايتها المأساوية.. ورفضت كل من تقدموا للزواج منى بأسباب مختلفة ومتعددة وكاذبة إلى أن التقيت بإنسان لم أستطع مقاومته.. وانهزمتْ أمامه كل محاذيرى وأحببته من أول نظرة.. وأحبنى وتمت الخطبة وسط دهشة أهلى لسرعة قبولى لهذا الخاطب الجديد الذى أسقط بلا عناء كل اعتراضاتى.. وتم عقد القران وتحديد

موعد الزفاف.. وفجأة يا سيدى انتفض المارد النائم فى أعماقى من سنوات بعيدة، واستيقظت كل المخاوف القديمة من سباتها وراحت تنهشنى بلا رحمة حتى بدأت الأمراض تهاجمنى من حين لآخر فأرقد فى الفراش أيامًا غير قادرة على الحراك، ويجىء الطبيب فيفحصنى ويطمئن أهلى بأنها مجرد متاعب نفسية، قد ترجع إلى الخوف المألوف فى مثل هذه الظروف من الحياة الجديدة التى أقدم عليها. ثم تجىء الليلة الحاسمة التى سيتقرر فيها مصيرى ومصير حبى وزواجى وسعادتى إلى نهاية العمر.. وأكتشف أن كل ما خِفْتُ منه كان صحيحًا مع الأسف وأبكى حتى تجف دموعى.. ويبكى زوجى الشاب بكاء حارًا مؤلمًا يضاعف من أحزانى وقهرى وحيرتى وأروى له كل شىء فيصدقنى بلا تردد مؤكدًا لى أنه لا ذنب لى فيما حدث فأبكى أنهارًا أخرى من الدموع إحساسًا بالنقص.. وإحساسًا بجميله وفضله علىّ.

وتمضى الأيام الأولى من الزواج ظاهريًا بسلام ولا يشعر الأهل بشىء أما داخليًا فهناك شرخ عميق فى القلب لا يفارقنى الإحساس به ليلاً ونهارًا.

وتمضى بنا الحياة رغم ذلك فى حب وسعادة وصفاء نفس.. فقد قطعت على نفسى عهدًا ألا أتسبب لزوجى فى أى إيلام مهما كان بسيطًا، وأن أكون له الزوجة المطيعة بالفطرة وبالتربية وبالرغبة أيضًا

فى إسعاده. فلم أحاول أبدًا أن أحاسبه على أى شىء مؤكدةً لنفسى أنه مهما فعل معى فله الحق فيه.. إذ كيف أردّ له جميله الذى طوّق به عنقى وهو الذى صدقنى فى شدتى وحمانى ورعانى ومنحنى ثقته الغالية وتجنب الإشارة إلى "نقصى" طوال خمس سنوات من عمر زواجنا حتى الآن، إننى لا أتسامح مع نفسى إذا نسيت مرة وحدثته بما لا يحب، ومشكلتى الحقيقية الآن يا سيدى هى أننا ككل زوجين تختلف طباعنا وتنتج عن هذا بعض الخلافات البسيطة العابرة أحيانًا.. ورغم أننى أحاول دائمًـا إرضاءه إلا أننى فى بعض الأحيان قد أواجهه أو أثور للحظات على ما لا يعجبنى ثم أفيق إلى نفسى بعد انصرافه فأنفجر فى البكاء وأنهال على نفسى باللوم القاسى والتقريع المؤلم وأتساءل: هل نسيت من أنت ومن هو.. هل نسيت ما فعل من أجلك وما تغاضى عنه نبلا منه وفضلاً وأتذكر من جديد ما حدث لى فى طفولتى وأبكى مرة أخرى، وأحمِّل ذلك الشىء البشع الذى حدث منذ سنوات بعيدة مسئولية وضعى الآن فلولا هذا الشىء الكريه لما كنت بهذه السلبية مع زوجى ولكان لى رد فعل آخر.. لكنى أعدل عن هذا الرأى بعد قليل وأقول إن نشأتى على الطاعة هى المسئولة عن ذلك وليس هذا الشىء الكريه وحده وأتساءل: ترى هل يتذكره زوجى إذا اختلفنا حول أى أمر عابر مما تشهده حياة أى زوجين.. فيسأل نفسه مستنكرًا: هل هذه نفسها الفتاة التى تواجهنى الآن وتثور

علىَّ هى نفسها الفتاة المنكسرة التى أحببتها وصدَّقتها وحميتها وحفظت سرها؟

أم تراه قد نسى ما حدث ولم يعد يذكره لى.. إننى أتمنى من أعماقى أن أسأله هذا السؤال لكنى أخشى أن أذكِّره بانطفاء الفرحة فى ليلة العمر والبكاء المؤلم لكل منا فأجدِّد الذكريات المؤلمة. إننى أحاول نسيانه وأتعمد عدم الاحتفال بعيد زواجنا حتى لا أجدد هذه الذكرى عنده وقد حاولت كثيرًا أن أحكى قصتى لأحد.. أى أحد لكى أخفف منها لكنى خشيت أن يجرح مشاعرى ذلك فعدت لمواصلة الكتمان حتى وجدت القدرة فى نفسى على أن أرويها لك وأقول لك فى نهاية رسالتى.. آه لو يعرف زوجى كم أحبه وكم أشعر بجميله.. وكم أدرك أنه لولاه لكان مصيرى التعاسة والشقاء إلى الأبد.. إنه نعمة كبرى أنعم بها الله علىَّ تعويضًا لى عن قدر لم يكن لى فيه يد.. فقط أسألك لماذا أحس بألم شديد فى جسمى كله وعلى الأخص فى ذراعى كلما حدث خلاف بسيط بينى وبين زوجى وهل يتطور هذا إلى الشلل ذات يوم؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

ولماذا لا يكون التراحم والتراضى وضبط النفس واستعدادك لمواجهة انفلاتات أعصابك مع زوجك راجعًا إلى الحب والرغبة

المخلصة فى تجميل رحلة حياتك مع زوجك المحب المخلص.. وليس إلى الإحساس بالنقص أو الذنب أو العرفان له بالجميل؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تضعك على بداية الطريق الصحيح لترسيخ دعائم سعادتك مع زوجك بدلاً من هدمها على المدى البعيد.. ذلك أنه فارق كبير بين أن يكون ضبطك لنفسك مع زوجك بسبب الحب والفهم الصحيح الراقى للعشرة الطيبة بين زوجين متحابين التى تفرض على أحدهما أن يُرخى دائمًا شعرة معاوية كلما شدَّها الآخر بعنف، وبين أن يكون إذعانًا أو شعورًا بالنقص أو الذنب تجاهه.. أو خوفًا من أن تستدعى مشاحناتك العابرة معه إحساسه بأنك لا تقدِّرين له صنيعه معك، ففى الحالة الأولى لن تعتبرى حسابك لنفسك على أى انفلاتات لأعصابك معه سلبية تندمين عليها أو تتحسرين على أنك "مضطرة" إليها أو مرغمة عليها بسبب موقف زوجك الكريم منك ليلة الزفاف وحفظه لكرامتك وأمانك، أما فى الحالة الثانية فسوف تعتبرينها فعلاً سلبية تتساءلين فى حيرة: هل هى بسبب هذا الحادث القديم البشع فى طفولتك أم بسبب نشأتك التى تشرَّبت فيها طاعة الكبار واحترامهم؟

إن الإنسان ليس مطالبًا بتفسير خصاله الحميدة ولا محاولة تحليل أسبابها إذ يكفى أن يتحلى بها لأنه جدير بها احترامًا لنفسه فى البداية..

وحرصًا على العدل مع الآخرين وتجنبًا لمتاعب النزعات العدوانية تجاههم فى النهاية، ومع أن الخصال الذميمة وحدها هى التى تحتاج إلى تفسير وتحليل ومجاهدة للنفس للعلاج منها، مع ذلك كله فإنى أقول لك يا سيدتى.. إن طاعة الزوج ليست سلبية تضطرين إليها عرفانا بالجميل وإنما هى أمر إلهى أمر به الله سبحانه وتعالى الزوجات وقدمها على طاعة الأبوين بعد الزواج حرصًا على نجاحه واستمراره، إذن فلا مبرر على الإطلاق لتفسير طاعتك لزوجك وضبطك لنفسك معه أية تفسيرات سلبية تُعمِّق لديك الإحساس بالذنب والشعور بالدونية تجاهه فالتناطح بين الزوجة وزوجها ليس شرفًا ـ لأية زوجة ـ تأسين على أنك محرومة منه بسبب ظروفك الخاصة المؤلمة التى لا ذنب لك فيها.

وزوجك يستحق منك أن تضبطى أعصابك معه ليس ردًا لجميله معك.. وإنما لأنه يحبك ويحترمك ويثق بك ويُحسن عشرتك كما أفهم من رسالتك ثم لأنك أيضًا تحبينه وتستشعرين الأمان والكرامة فى كنفه.

وإلى جانب ذلك فإن معايشة هذا الإحساس المؤلم بالنقص أو الذنب تجاهه لن تثمر أبدًا علاقة طبيعية بينك وبينه.. وإنما علاقة متكلفة لا تصمد طويلاً للزمن، وقد تنتهى بالغربة النفسية الكاملة

وربما بالانفصال عنه كلما ضعف تدريجيًا إحساسك تجاهه بالعرفان مع مرور السنين. وإذا كان الأصلاء من البشر هم الذين لا يتنكرون لمن أحسنوا إليهم ولا ينسون لهم صنيعهم، فإن ذلك لا يعنى أبدًا الانكسار والذلة والإحساس بالنقص تجاههم.. ولا أصحاب الفضل يسعدهم أن نحمل لهم هذه المشاعر غير السوية التى تعوق تواصلنا النفسى معهم، وإنما يسعدهم أن نعبرِّ عن عرفاننا لهم بالحب الصادق المبرَّأ من شبهة النقص والإحصاص بالذنب.. وبالوفاء لهم الذى يشرفنا نحن قبل أن يعتزَّوا هم به.. وبالعطاء المخلص لهم من أنفسنا حين يحتاجون إلى العطاء وأبسطه الاهتمام والمشاركة.. هذا هو العرفان الصحيح الذى لا يترك أية آثار سلبية على نفسياتنا، وهو أيضًا ما ينبغى أن تقدميه لزوجك فيبادله هو تقديرًا بتقدير وحرصًا عليك بحرصٍ منك عليه.

وإذا كان زوجك قد جنَّبك بالفعل آلاما قاسية كان من الممكن أن يعرضك لها لو كان قد تصرَّف تصرفًا آخر غير ما فعل معك.. فلقد كان عادلاً وأمينًا معك ومع نفسه حين لم يحاسبك عما لا ذنب لك فيه مدركًا عن حق أن الحساب إنما يسقط عن المستكره وعن الصغار الذين لا يعون ما يفعلون.

ويبقى بعد ذلك ألا تجلدى أنت نفسك بخطأ الآخرين فى حقك فى

طفولتك البعيدة.. وأن تتخلصى من إحساسك الدفين بالذنب الذى يشعرك بعدم الجدارة والذى يمكن أن ينتهى بك إذا لم تتداركى نفسك إلى موقف انهزامى من الحياة يعوق تواصلك مع الآخرين وإقامة علاقات اجتماعية سليمة معهم ويكبِّل حريتك النفسية بأسوأ القيود.. وقد ينتهى بك فى أقصى مضاعفاته إلى المرض الجسمى والنفسى، والحرية النفسية هى تحرر النفس من العوائق النفسية الداخلية التى تحول دون استمرار نموه النفسى ودون ظهور مواهبه وقدراته الخاصة ولعل الآلام التى تحسينها فى جسمك وذراعك هى نتيجة لهذا الصراع المحتدم داخلك بين رغبتك القوية فى التعبير عن نفسك بحرية مع زوجك وبين "الكوابح" التى تكبح بعنف هذه الرغبة بسبب إحساسك بالذنب والنقص والخوف من أن يذكِّره ذلك بما حدث وبما تريدين له أن ينساه حتى لا يتصور فيك الجحود والتنكر له.. وأنت تسألينى هل "يتذكر" لك ما حدث فى ليلة العمر حين تواجهين أو تثورين فى بعض الأحيان، وجوابى هو أننا نتذكر غالبًا ما قدمناه للآخرين حين يصدموننا بجحود جارح لمشاعرنا ولمعانى الوفاء النبيلة، وهذه آفة فى النفس البشرية لم يخْلُ منها إلا الأنبياء.. إذ يدفعنا التناقض الحاد بين جميل العطاء وبين سوء الجزاء إلى أن نتذكر ما قدمناه من قبل لمن يسيئون إلينا الآن وأن نتحسر على ضياع الوفاء فيهم.. لكن ذلك لا يحدث إلا فى "الكبائر" التى يرتكبها الآخرون ضدنا وليس فى هفواتهم وصغائرهم العابرة معنا.

وفى كل الأحوال فلن يصل بك الحال أبدًا إلى التعرض للشلل لا قدر الله.

لكنك يجب أن تُعفى نفسك من هذا الصراع المستمر والمخاوف الكامنـة فالخلافات العابرة البسيطة بين الأزواج من طبيعة الحياة.. ولا بأس بأن يعبِّر كل طرف فيها عن نفسه بحرية فى حدود الالتزام باحترام مشاعر الآخر وكرامته وحقه عليه.

فالتعبير عن الرأى الحقيقى لكل طرف أو حتى مشاعره الانفعالية المؤقتة فى لحظة الخلاف ليس شجارًا ولا جحودًا مادام يلتزم بآداب الحوار واحترام المشاعر.

ولم تَخلُ حياة ـ حتى حياة الأنبياء أنفسهم ـ من مثل هذه الملاحاة البسيطة بينهم وبين زوجاتهم فى بعض الأحيان. والمهم دائمًـا هو أن تؤمن الزوجة باستمرار بزوجها إيمانًا كاملاً وألا تكون لها أية اعتراضات جوهرية على شخصيته، وألا تنطوى على أى إحساس بالاستعلاء عليه، ولا بالنقص والدونيَّة تجاهه، وكذلك ينبغى أن يفعل الزوج، أما فيما عدا ذلك فلا يؤثر على الزواج ولا الحب مثل هذه الملاحاة البسيطة بل لربما عمقتهما أحيانًا.. كما يُصلح القليل من الملح مذاق الطعام ويفسده الكثير منه.. وشكرًا.

أنا سيدةٌ شابةٌ متزوجةٌ منذ عشر سنوات حرمنى الله نعمة الأمومة التى لا تعادلها فى نظرى نعمة أخرى من النعم وبسبب عجزى عن الإنجاب فقدت زوجى الذى وهبته كل ما أملك من حب ومشاعر، فقد تزوج من أخرى لتهبه ما فشلت أنا فى أن أقدمه له، وفعلاً وهبته ما أراد واستأجر لى مشكورًا مسكنًا صغيرًا متواضعًا لأقيم فيه وبقى هو وأولاده منها فى المسكن الوثير الذى تستحقه من أدَّت دورها فى الحياة وأنجبت البنين والبنات.

إننى أكتب رسالتى هذه لأُفضى لك بما فى داخلى لعل فى ذلك ما يخفف عنى وطأته، فأنا رغم ثقافتى العالية وعملى بالمجتمع لا أشعر بدفء الحياة، وأعتبر أنه لا دفء للمرأة إلا باحتضانها لوليدها الذى هو أملها وهدفها فى الحياة.. إننى أعرف كل ما يقال فى مثل حالتى، وقد تلفَّت حولى ورأيت النعم الأخرى التى أنعم الله بها علىَّ ولم أجدها تغنينى عن حاجتى لنعمة الأمومة.. وعرفت أيضًا أن من الأبناء من كانوا مصدر شقاء لأمهاتهم.. ولم أجد فى ذلك ما يعزينى عن حرمانى منهم، وحاولت أن أكون أمًا لأطفال العائلة الكثيرين .. لكنه لا أمَّ صدقنى إلا الأم الحقيقية، فكثيرًا ما

18

أصطحب طفلاً منهم ليقضى معى يومًا وأعطيه فيه كل ما أملك من مشـاعر وتدليـل، وفى المسـاء يـجرى بعيدًا عنى إلى حضن أمه الذى لا يعادله حضن آخر.. إننى لا أستطيع أن أصف لك معاناتى كلما جاء يوم عيد الأم، ففيه أشعر بوحدة داخلية قاتلة ويلتف الأبناء والأحفاد والأزواج حول الأمهات وأجدنى مخلوقًا مهملاً لا قيمة له، يتضاءل بعلمه وثقافته أمام دوره الأساسى فى الحياة وهو الأمومة. لقد حاولت أن أُعزِّى نفسى بكل ما يقال فى مثل ظروفى فوجدتنى أرفض العزاء وكان شوقى للأمومة أكبر، وأرجو ألا تعتبرنى مغالية فى تجسيم هذا الإحساس المرير فهو إحساس لا يستطيع أن يدرك مرارته إلا من عاناه، كما أرجو ألا ترانى غير راضية بما قسمه الله لى فهذا هو شعورى الذى لا حيلة لى فيه، لقد فكرت جديًا فى أن أحصل على طفلة يتيمة وأحاول أن أعوضها عن فقدها لأمها.. وأن تعوضنى هى عن حرمانى من الأمومة وليحدث بعد ذلك ما يحدث فى المستقبل.. فما رأيك فى ذلك يا سيدى؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

سيظل لكل إنسان دائمًـا ما يفتقده من أسباب السعادة.. وما يتعذب بالرغبة المستحيلة فيه وهذا هو قدر الإنسان يا سيدتى منذ الأزل.. ولا جديد تحت الشمس، غير أن نداء العقل يهمس لنا دائمًـا

بأن الرضا بما أتيح لنا من أسباب والتسليم بإرادة الخالق فيما لا حيلة لأحد فيه سيظلان دائمًا الطريق الوحيد لمواجهة التجارب الأليمة فى حياتنا وللتواؤم مع ظروفنا والتعايش معها، ومن واجب الإنسان دائمًا تجاه نفسه أن يتعزَّى عن نواقص حياته بما أُتيح له من أسباب التعويض النفسى عنها، حتى لو كانت غير كافية أو غير مشبعة إشباعًا كاملاً لاحتياجاته الإنسانية.. فهذا أفضل كثيرًا من الحرمان الكامل من أى قدر من الإشباع وأفضل كثيرًا من موقف "رفض العزاء" الذى تتخذينه مع نفسك الآن والذى لا عائد له إلا مكابدة المعاناة النفسية بلا نهاية وتضاعف البلاء بالخسائر النفسية والصحية الأخرى، تمامًا كمن "علم الداء ورفض الدواء.. فكان له من إثم المنتحر نصيب" كما يقول أحد الفقهاء الأجلاء.

إننى قد لا أراك مغالية فى تضخيم إحساسك بالحرمان من الأمومة، لأنى أدرك جيدًا أنه "لا يعرف الجرح إلا من به ألم" لكنى أعرف أيضًا من ناحية أخرى أنه لا مُعْطى لما منع الله ولا مانع لما هو مُعْطٍ.. فماذا نملك تجاه هذه الحقيقة الأزلية؟

لقد استشهدت مرةً بكلمة للأديب الأيرلندى العظيم برنارد شو يقول فيها إن "كل من تؤلمه ضروسه يظن أن جميع من لا يشكون من أسنانهم سعداء"!

وهذا صحيح إلى حد كبير لأنه حين تهيج آلام ضروسنا، فإننا نركز على تفكيرنا فيها ويصبح أملنا الوحيد فى الحياة لحظتها أن نتخلص من هذا الألم وحده ولربما حسَدْنا الآخرين الذين لا يشكون من أسنانهم واعتبرناهم لبضع لحظات أسعد البشر جميعًا، وهكذا حال الإنسان دائمًا حين يركز على مشاعره وتفكيره فيما يعانى منه وحده.. ويرفض أن يتعزَّى عنه بجوانب حياته الأخرى ويرفض أن يستعين على آلامه بالمسكنات الآمنة.. وبدائل التعويض النفسى المتاحة. إننى أؤيدك بشدة فى فكرة رعاية طفلة يتيمة تشعرك بدفء الحياة وتعوضينها أنت عن حرمانها منه، ولن يحدث بعد ذلك إلا خير بإذن الله.. وأرجو أن أستطيع مساعدتك فى تحقيق هذه الرغبة فى وقت قريب إن شاء الله.

* * *

أكتب إليك هذه الرسالة ونحن فى شهر رمضان المبارك لما فى هذا الشهر من ذكريات تتعلق بالقصة التى سأرويها لك. فأنا محاسب شاب أعمل بمدينة ساحلية وأسرتى مكونة من خمسة أشقاء وثلاث شقيقات، وقد تزوج أبى صغيرًا وعمل بشركة بترول بمدينتنا الساحلية وهو فى الثامنة عشرة من عمره، واتخذ لأسرته كبيرة العدد مسكنًا من 4 غرف وواصل كفاحه الشاق لإعالتنا وتعليمنا حتى اجتاز ثلاثة منا الثانوية العامة، والتحق أخى الأكبر بكلية الحقوق والتحق أخى الأوسط بكلية الزراعة والتحقت أنا بكلية التجارة، فى حين واصل إخوتنا دراستهم فى مراحل التعليم المختلفة وواجه أبى مشكلة نفقات تعليمنا الجامعى الباهظة وناء كاهله بالمسئولية الثقيلة، ففوجئنا به ذات يوم يتقدم إلى رئيس مجلس إدارة الشركة التى يعمل بها يطلب قرضًا ليواجه به نفقات دراستنا الجامعية الباهظة، فرفض رئيس الشركة طلبه رفضًا نهائيًا وتحدث إليه بجفاء جرح مشاعره، وكان من بين ما قاله له إنه إذا لم يرض عن رفض طلبه فإنه يستطيع ترك العمل فى الشركة إذا أراد! وأحس أبى بالإهانة بعد أن أمضى فى الشركة 27 عامًا وضاعف ما يعانيه من ضيق وكرب لتلبية مطالبنا من أزمته النفسية، فما كان منه إلا أن قدم إلى رئيس الشركة على الفور

طلبًا بإحالته إلى المعاش المبكر وعمره 45 عامًا فقط، فلم يفهم رئيس الشركة ظروفه النفسية والاجتماعية وإنما قبله على الفور وأبلغه بذلك وعاد إلينا أبى مهمومًا وأبلغنا بما حدث فعاتبناه برفق. وحاولنا أن نخفف من ضيقه وطلبنا منه أن يكتب طلبًا آخر بالعدول عن رغبته الأولى، مراعاة لظروفنا فرفض بإصرار فى البداية ثم استجاب لضغطنا عليه فى النهاية وكتب طلب العدول وسلمه للموظف المختص بالشركة، وواصل عمله.. وبعد أسبوع واحد فوجىء بعدم النظر فى طلب العدول وبخروجه إلى المعاش المبكر!

وسلمته الشركة مكافأة نهاية الخدمة البسيطة.. فتسلمها قانطًا وقام بتوزيعها علينا لكى نستعين بها على تكاليف الدراسة ورتب حياة إخوتنا الصغار وبيته بقيمة المعاش الذى يتقاضاه، وفى هذه الأثناء قرأ أخى طالب الحقوق فى كتب القانون أن رفض طلب العدول يعتبر تعسفًا فى استعمال الحق وأقنع أبى بمقاضاة الشركة لإعادته إلى عمله وأقمنا دعوى ضدها فى عام 1982 واستمرت القضية فى المحاكم 11 عامًا كاملة.. ما بين حكم ابتدائى واستئناف وأحكام أخرى بأحقية أبى فى فروق المرتب على المعاش المتأخرة إلخ.

فعاش أبى هذه السنوات الطويلة وهو فى حالة نفسية ومعنوية مضطربة يتجدد أمله أحيانًا ويقترب من بلوغ هدفه.. ثم يتأجل الحكم ويضطر للانتظار من جديد حتى لم يعد له من شاغل فى الحياة إلا

الحكم لصالحه وعودته لعمله وزملائه الذين زاملهم معظم سنوات العمر، خاصة أنه كان محبوبًا بينهم لصفاء قلبه وحلاوة لسانه ونقاء سريرته وتدينه. وقد حكم لصالحه لكن الشركة استأنفت الحكم وفى ليلة صدور الحكم النهائى فى الاستئناف نهض أبى من نومه مبكرًا وصلى الفجر، وروى لى فى الصباح أن هاتفًا باطنيًا قد هتف له وهو يصلى: وعزّتى وجلالى لأنصرّنك. فاستبشر بذلك وأمِل خيرًا.. وبشرته أنا أيضًا بكسب القضية إن شاء الله. وبالفعل صدر الحكم النهائى لصالحه وفرح بصدوره فرحة طاغية وسافر سعيدًا مع والدتى إلى القاهرة لتنفيذ الحكم وتسلم العمل وقبض فروق المرتب المتأخرة. وبلغت فرحته بعودته لعمله عنان السماء.. وبدأ يذهب إلى عمله صباح كل يوم بأتوبيس الشركة كما كان يفعل قبل إحالته للمعاش.. وارتفعت روحه المعنوية للقمة واستقبله زملاؤه بالحفاوة مرحبين "بالحاج" الطيب الذى ظلمه رئيس الشركة السابق 11 عامًا. وكنا نحن الأبناء الكبار قد تخرجنا خلال ذلك فى كلياتنا وعملنا ولم يبق من إخوتنا فى التعليم إلا اثنان. وقد ساهم مبلغ الفروق المتأخرة الذى قبضه أبى فى حل معظم مشاكلنا.. وابتسمت الحياة للأسرة المترابطة التى كافح أبى كفاح الأبطال لإعالتها وتعليم أفرادها.. وبعد 40 يومًا فقط من عودة أبى إلى عمله رن جرس التليفون فى البنك الذى أعمل به ودعيت إلى الذهاب إلى الشركة حيث يعمل أبى لأمر مهم، فذهبت

إلى هناك على الفور واستقبلنى أحد زملاء أبى ثم قادنى إلى مسجد الشركة، فإذا بى أرى أبى الطيب ممددًا على نقالة ومغطى؛ وإذا بى أتلقى كلمات العزاء والمواساة فى فقده.. وأعرف من زملائه أنه قد جاء إلى العمل فى الصباح فحيًّا زملاءه باستبشار وابتهاج ووقَّع بالحضور ثم صعد إلى مكتبه، فما إن دخله حتى سقط على الأرض بلا مقدمات وفارقت روحه الحياة على أرض المكتب الذى ظل 11 عامًا يتعلق بالأمل فى أن يعود إليه ورحل أبى عن الدنيا فى مثل هذه الأيام من شهر رمضان الماضى وهو صائم.. ومات فى عمله الذى كان يحبه وعمره 55 عامًا وبعد أن كافح كفاح الشرفاء على أولاده كبارهم وصغارهم، ولم أنتبه إلى مغزى دعائه حين حصل على الحكم النهائى حيث ظلّ يردد مع فرحته وابتهاجه - "اللهم اجعل هذه الفرحة خيرًا لنا ولا تجعلها شرًا علينا" إلا وأنا أراه أمامى ممددًا فى نفس المسجد الذى كان يؤذن فيه منذ عودته لعمله.. فعرفت أنه كان يستكثر الفرحة على نفسه ويتوجس مما سيليها من خطوب. لقد أردت أن أروى لك قصته تكريمًا له فى ذكراه الأولى رحمه الله.. وتذكيرًا للآخرين بألا يظلموا أحدًا.. حتى لا يبددوا أعمار المظلومين فى محاولة استرداد الحقوق.. فإذا ما استردوها يكون العمر قد انقضى فى المعاناة، ولم يبق منه ما يتمتعون فيه باستعادة الحقوق. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

قدر الإنسان أحيانًا ألا يبلغ آماله فى الحياة إلا وهو يتسمَّع لحن الوداع الحزين فيزداد إحساسًا بالمرارة ويتساءل متحسرًا: ما جدوى بلوغ الآمال وقد حان وقت الرحيل؟!

إنها لحظة للتأمل فى مفارقات الحياة ومأساويتها تجدد الإحساس بالشجن.. كلحظة سقوط العدَّاء عند مشارف خط الوصول وبعد أن قطع الشوط كله وأوشك على الاحتفال بالنجاح. أو كلحظة مجىء التكريم متأخرًا بعد أن يرحل الأعزاء ويصبح الإنسان وحيدًا لا يجد من يتحدث معه عنه أو يبتهج له معه، أو كاللحظة التى يصدق فيها أحيانًا ما يقوله الكاتب المسرحى الفرنسى جان آنوى فى فلسفته المتشائمة من أنه "كثيرًا ما تكون أسعد لحظات حياة الإنسان هى نفسها اللحظة التى يفقد فيها.. هذه السعادة"!

.. لكن لماذا نستسلم معًا لهذه التأملات الحزينة.. ونتناسى الجانب الآخر من القصة؟

لقد بلغ أبوك فى النهاية آماله رغم مفارقة وفاته بعد 40 يومًا فقط من عودته للعمل الذى ظل 11 عامًا يحلم بالعودة إليه. صحيح أن العمر لم يمهله طويلاً ليسعد بها حققه لكنه قد حققه وهو الأهم..

نعم لقد جاء إليه الحق متأخرًا والعدل البطىء كالظلم العاجل

كلاهما مؤلم للنفس ومدمر لإيمان الإنسان بخيريَّة الحياة، لكن العدل قد جاء على أية حال واتسع العمر رغم قصره لأربعين يومًا رضى خلالها المظلوم عن نفسه وأحس بجدارته بما نال واسترد اعتباره بين الآخرين. وفى ذلك بعض العزاء بكل تأكيد فعسى أن يستفيد البعض من رسالتك هذه ويتخفف بعض المتعنتين من تعنتهم لكيلا يهدروا حياة الآخرين فى دفع الظلم وانتظار العدل الذى قد ينقضى العمر بغير أن يجىء، وقد يجىء بعد فوات الأوان وفى الأجواء تتردد أنغام الرحيل فيتضاعف الأسى.. وتتجدد الأشجان.. وشكرًا لك.

* * *

أنا شابٌ فى الأربعين من عمرى.. أعيش فى إحدى مدن الجنوب الصغيرة نشأت فى أسرة مكونة من أبى وأمى وستة أبناء أنا أكبرهم، وبعد حصولى على مؤهلى المتوسط اتجهت إلى الجيش لأؤدى فريضة الوطن. وأوشكت فترة التجنيد على الانتهاء، وبدأت أعد الأيام الباقية لأخرج إلى الحياة وأبنى حياتى وأتزوج، فإذا بأبى يتزوج وهو فى الخمسين من عمره من امرأة أخرى تصغره بعشرين سنة، فخرجت من الجيش لأؤدى الفريضة الثانية وهى رعاية أمى وإخوتى بعد أن أصبحت مسئولاً عنهم وعملت فى وظيفة حكومية فى بلدتى وأجَّلت أحلامى فى الزواج والسعادة إلى أن يصل أخوتى إلى بر الأمان، خاصة أن أبى لم يكتف بأبنائه الستة من أمى، وأنجب من زوجته الجديدة أربعة أبناء آخرين، وترك لى وحدى عبء مسئولية الأسرة الأصلية كأنما انتهى دوره معها بحصولى على مؤهلى، ولن أروى لك ما عانيته من عناء وحرمان وتقشف لكى أوفر لأمى وأخوتى ما يكفل لهم أدنى مستوى من الحياة الكريمة.. ولا ما تحملته من ضغوط نفسية ومعيشية لكى أؤدى مسئوليتى على خير وجهٍ، فشقيقى الذى يلينى فى العمر حصل على مؤهل متوسط وعمل بوظيفة مؤقتة بالقاهرة، فلم يكفه مرتبه لتكاليف الحياة فى العاصمة، وكان

يستنجد بى لأسعفه فأرسل إليه ما أستطيع الاستغناء عنه، ثم فُصِلَ من عمله بعد فترة، وعاد إلى بلدتنا فلم يخفف عنى تخرجه شيئًا من أعبائى..

وأمضيت 15 عامًا طويلة طويلة.. وأنا أكافح ولا أطلب شيئًا من ربى سوى أن يُعيننى على أن تظل السفينة طافية فوق الماء ولا تغرق حتى تزوجت شقيقتاى، وساهمت فى زواجهما بكل ما كان فى يدى، ووجدت نفسى فى الرابعة والثلاثين من عمرى، ولم أبدأ بعد الخطوة الأولى فى طريق بناء حياتى لكى أتزوج، واطمأننت قليلاً بعد زواج الشقيقتين فاستأذنت أمى فى السفر لأعمل فى الخارج، وسافرت إلى إحدى الدول العربية وعملت بها لمدة عامين ونصف العام وعدت ببعض المدخرات ورجعت إلى وظيفتى، وبدأت أبحث لنفسى عن فتاة أحلام تشاركنى ما بقى من عمرى، فلم أكد أبدأ البحث وأنشغل بما ينشغل به الشباب الراغب فى الزواج من حديث جميل عن فلانة بنت فلان أو فلانة بنت علان، حتى أصيب أصغر أشقائى فى حادث أليم وظل يصارع المرض فترة قصيرة ثم اختاره الله إلى جواره، وعادت التعاسة تخيِّم من جديد على بيتنا الحزين، وعشنا عامًا طويلاً نجتر أحزاننا، ثم دفعتنى أمى دفعا لأن أستأنف البحث عن شريكة الحياة، ووفقنى الله إلى إنسانة وجدت فيها كل ما أتمناه من أخلاق وجمال وأصل طيب تعمل مدرسة بالمرحلة الابتدائية وتزوجنا وأنا

أخطو نحو الثامنة والثلاثين، وأحسست بعد زواجى بأن رحلة العناء التى فرضتها علىَّ الظروف طوال 18 عامًا قد انتهت، وبدأت أتطلع للغد بقلب مشوق إلى السعادة وتعويض ما فات، فلم تمض شهور حتى وجدتنى أمام مشكلة جديدة تفسد علىَّ حياتى وتحرمنى من الراحة والسلام فقد مضت الشهور ولم تظهر بوادر الحمل على زوجتى، وأنت تعرف أهمية هذا الأمر فى مجتمعى فبدأنا الرحلة مع الأطباء والتحاليل ثم تركنا الأطباء ولجأنا إلى الوصفات الشعبية، ونحن نتضرع إلى الله تعالى أن يحقق أمنيتنا، ورحت أهتف لربى فى سجودى "ربِّ لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين" وأقوم الثلث الأخير من الليل وأتهجد وأقرأ ما تيسَّر من سورة "يس" ونصوم أنا وزوجتى الاثنين والخميس ونهب صومنا لله لكى يرزقنا بالذرية الصالحة.. ولم يستجب الله لدعائنا حتى الآن.. فلماذا لم يستجب لنا يا سيدى ونحن عباده المخلصون.. الصائمون المصلون. إننى لا أتصور أن أطُلق زوجتى أو أسعد مع إنسانة أخرى فلقد شقيت يا سيدى 18 عامًا متصلة كأنها حكم بالأشغال الشاقة المؤبدة، واغتربت عامين ونصف العام لكى أستطيع أن أتزوج وأهنأ بأسرة وأولاد يملأون حياتى، وكنت أظن أن أيام المعاناة قد انتهت، فإذا بها تتجدد وتستمر فماذا جنيت يا رب لكى تستمر معاناتى وكلما رأيت شابًا أصغر منى ومعه طفله.. يزداد اشتعال قلبى.

وزوجتى تعمل مدرسة أطفال وترى الأطفال حولها بالمئات وهى محرومة منهم.. إن الله يعطى البنين لمن يشاء فلماذا لا يعطينا من فضله كما يعطى الآخرين.. إننى أرجوك أن تجيبنى بكلمة تطفىء نارى المشتعلة ونار زوجتى وتخفف عنا.. والسلام عليكم ورحمة الله.

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

ما تواجهه الآن يا صديقى واجهه كثيرون قبلك فلم ييأسوا من رحمة الله ولم يتولّهم القنوط وتتشبع روحهم بالمرارة مثلك، وإنما واصلوا بصبر ورجاء التماس العلاج فبلغ منهم مراده بعد سنوات طويلة من بلغ، وتقبّل أقداره ورضى عن حياته منهم من لم تشأ لهم إرادة الله أن يكونوا من المنجبين، لكنى رغم ذلك ألتمس لك بعض العذر فى نفاد صبرك وتشبع روحك بالمرارة لأن العناء الطويل فى الحياة يرسِّب فى نفوس البعض الشجن ويقلل من ميلها للتفاؤل. وهذا ما عبَّر عنه عالم نفس أمريكى بقوله: إن شقاء الإنسان قد ينتهى بعد سنوات ويصبح ذكرى.. لكن ما يخلفه فى نفسه من شجن وميل غامض للمرارة والحزن قد يرافقه حتى نهاية العمر، ما لم يستنهض إرادته للتخلص منه.

وهذا صحيح فى كثير من الأحيان.. فلو لم تكن قد شقيت 18 عامًا حافلة بالعناء لكى تحقق حلمك البسيط فى الزواج والسعادة لما

انعكس عليك تأخرك فى الإنجاب ثلاث سنوات فقط بكل هذه المرارة والشجن غير المفهومين.

فاستنهض إرادتك وإيمانك بالله تعالى للتخلص من رواسب المرارة، وافعل ما يفعله المسافر الذى يضل الطريق فى الغابة فتهديه حكمته إلى ألا يتوقف حيث هو، وإنما يواصل السير فى خط مستقيم بلا كلل ولا يأس، فإن لم يبلغ المكان الذى يقصده فإنه سيصل على الأقل إلى مكان أفضل مما كان فيه.

والخط المستقيم ـ الذى إن لم يبلغ بك غايتك المنشودة فسوف يصل بك إلى "مكان" أفضل من الاستسلام للمرارة والقنوط ـ هو أن تستأنف محاولات العلاج لدى الأطباء الذين هجرتهم إلى الوصفات البلدية بلا يأس، وأن تستمر فى تهجدك ودعائك برجاء لا يخيب فى رحمة ربك فى أن يحقق لك ما تصبو إليه مع استعدادك فى أسوأ الاحتمالات لأن تهيىء نفسك لتقبُّل كل ما تقضى به المقادير، فتكون بذلك قد أديت واجبك تجاه نفسك كاملاً.. وتهيأت لتقبل إرادة ربك غير ساخط إن لم تشأ لك حكمته التى تخفى على الأفهام غير ما تأمل فيه. ولالتماس العزاء والسلوى فى غير ما حُرِمت منه.. أما نارك المشتعلة فلن تطفئها كلماتى أو كلمات غيرى ولكن يطفئها إيمانك بربك وتسليمك بإرادته.. والرضا بكل ما تقضى لك به مشيئته

سواء أنعم عليك بما تريد، أم ادخر لك ما هو أفضل منه فى الدار الباقية، فأطفىء نارك بذلك يا صديقى.. ولا تسل لماذا لم يستجب لنا الله.. ولا لماذا لا يعطينا ما أعطى الآخرين، فليس من حسن الإيمان أن تدعو ربك وأنت تعتبر دعاءك طلبًا واجب القبول يحق لك أن تتساءل بعده لماذا لم يتم قبوله.. إنما هو رجاء وأمل ودعاء، أم هل نسيت فى غمرة أحزانك أنه جلَّ شأنه ملك الملوك الذى إذا وهب لا يُسألنَّ عن السبب، وأنه "لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون".

استعد نفسك يا سيدى.. وتوجه إلى ربك بقلب يأمل فى رحمته ولسوف يعطيك ربك فترضى بإذن الله.

* * *

نحن يا حضرة الأستاذ الفاضل ممن أدمنوا قراءة بابكم الأسبوعى فى جريدة الأهرام يوم الجمعة حيث تعرضون فيه لمشكلات بالغة الأهمية والحساسية والصدق وأنا على ثقة من أن قراء الأهرام ينتظرون مثلنا أن تبادروهم بتلك الأعاجيب من "حيوات" الناس كل أسبوع، غير أنى لم أكن أعرف أننا سنكون واحدة من أعاجيبكم التى سيقرؤها قراؤكم فى أنحاء الدول العربية سيدى الأستاذ: هذه الرسالة أكتبها إليك بإذن من زوجى وبعد إلحاح شديد منى.. وإليكم حكاية عمرنا.. أما زوجى فهو فى حدود الستين من العمر، وأما أنا فقد تجاوزت الخمسين وقد تم زواجنا منذ بضعة عشر عامًا وزوجى يقترب من الخمسين وأنا تجاوزت الخامسة والثلاثين، وكان زوجى ناجحًا فى حياته وكثير التنقل بين البلاد العربية وغير العربية، وقد ملأت عليه أعماله الناجحة واتصالاته الكثيرة واهتماماته الثقافية والاجتماعية حياته فلم يحس بأى فراغ لأنه لم يتزوج فضلاً عن عاطفة جارفة من جانبه تجاه أبويه وإخوته كانت تشغل حياته ويرضى عنها ولو انتهى به الأمر دون زواج إلى الوحدة فى شيخوخته. ويبدو أن إحساسه بمضى الزمن كان ضعيفًا لكن أحد أصدقائه وقد توفاه الله منذ زمن قصير ـ ظل يلح عليه بأن يتزوج فى هذه السن المتأخرة..

ولا أريد أن أقول إن بعض ذويه لم يكونوا راضين عن زواجه خشية أن تحول الزوجة بينهم وبين ما كان يصل إليهم من خيرات وفيرة منه. لكنه قد وقع الاختيار عليّ وفقًا للمواصفات المطلوبة لأكون هذه الزوجة وتم الزواج السعيد منذ بضعة عشر عامًا.. وأقسم لك أنى كنت نعم الزوجة المخلصة والصديق الوفى والشريك فى كل ما كان يَلْقى من سراء وضراء ولا أريد أن أثقل عليكم بذكر تفاصيل كثيرة عن أحوالنا بعد الزواج، لكنى أقول لك إن كل الملابسات كانت تشير إلى أننا سنسعد بطفل أو أكثر يملأون علينا حياتنا، فلم يصل بنا زواجنا إلى ما كنا نطمح فيه من إنجاب، لكن زوجى أصبح له اهتمام جديد ينافس اهتماماته الأسرية السابقة هو اهتمامه بزوجة تسافر معه شرقًا وغربًا ويهتم بسعادتها وتوفير ما تستحقه من ملبس ومأكل ومسكن، وكان طبيعيًا مع هذا أن تنحسر بعض الروافد التى كانت تصب فى الجهة الأخرى أى جهة الأسرة الكبيرة.. فبدأنا نسمع وشايات كاذبة من هنا وهناك من أجل الإيقاع بينى وبين زوجى لأنى لم أنجب له أطفالاً..

ولهذا أصبحت تجربتنا مع الزواج فى أخرياتها جدَّ مريرة، خاصة بعد وقوفنا على أطماع مَنْ حولنا، ولم يكن ليزعجنا كثيرًا أنا وزوجى حرماننا من الأطفال فى البداية، ولكن المسألة أخذت مسارًا آخر حين راح الأقرباء ينظرون إلينا كوديعة فى بنك الموروثات ينتظرون بفارغ

الصبر أن يحصل كل منهم على نصيبه منها. ففكرت مليًّا وعرضت على زوجى الانسحاب من حياته لأترك له فرصة الزواج من أخرى تنجب له لكنه رفض ذلك رفضًا قاطعًا، وفى نفس الوقت لم يكن مقبولاً عندى أو عنده الجمع بين امرأتين.. وبعد مناقشات وجلسات طويلة ورجاءات متصلة منى وافق زوجى على أن أكتب لعلنا نجد لديكم بابا للرجاء.

سيدى: نحن نبحث عن إنسانة فى سن مناسبة مؤهلة للإنجاب بغير أن تكون هناك ملابسات الزواج المألوفة من معاشرة ومساكنة. كأن يكون زواجًا عرفيًا أو زواجًا عاديًا بشروط يتفق عليها مع تحمل جميع الأعباء المادية.. ومع منح هذه الإنسانة عن كل طفل تنجبه مبلغًا مناسبًا من المال شريطة التنازل عن هذا الطفل، ومن غير حرمانها فى نفس الوقت من رؤيته والتعرف عليه وزيارته هنا فى مصر أو حيث نقيم. ولعلكم فى غنى عن أن أذكر لكم أن الأساليب الطبية الحديثة قد أصبح لا يقف أمامها أى عائق لإتمام هذه العملية الإنسانية "الرحمانية" الملتزمة بشرع الله وسنة رسوله.

سيدى: إننى الحريصة على هذا الموضوع أكثر من حرص زوجى والله يعلم أننى أحببت أن أرد إلى زوجى ثقته بنفسه وبالحياة فهل لكم أن تكونوا عونا لنا فى مسألة بالغة الحساسية كهذه؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

ما هذا يا سيدتى؟ هل تقصدين حقًا ما فهمته من رسالتك هذه التى أرسلتها إلىَّ من قبل وتجاهلتها عمدًا لشذوذ الطلب أو لنقل بلا حرج.. لعدم إنسانيته؟ لقد حرصت على ألا أغيرِّ شيئًا تقريبًا من أسلوب رسالتك حتى أستطيع فهم مدلولها على وجه الدقة، فهل تقصدين فعلاً أن أساعدك أنت وزوجك فى "استئجار" رحم إنسانة بائسة تحت مسمَّى الزواج العادى أو الزواج العرفى وبلا أى ركن من أركان الزواج المشروع كالمعاشرة والمساكنة والإشهار والرحمة والمودة والمسئولية الأدبية والاجتماعية، لكى يقوم "الطب الحديث الذى لا يقف أمامه عائق" بتلقيح رحم هذه الإنسانة بماء الزوج بغير تلامس بينها وبينه.. ولا أية صلة إنسانية بينهما.. فإذا نجحت هذه "العملية الإنسانية الرحمانية" وأثمرت جنينا جاء إلى الحياة بعد تسعة شهور، تنازلت لكما عنه مقابل مبلغ من المال مع استعدادكما بالسماح لها برؤيته "والتعرف" عليه بعد عام أو عامين ولا بأس بتكرار العملية أكثر من مرة بمبلغ جديد عن كل رأس؟!

هل تقصدين ذلك حقًا؟ إذا كانت الإجابة بنعم وهى كذلك مع الأسف.. فلا شك أنك قد أخطأت العنوان الذى تتوجهين إليه بطلب المساعدة فى تحقيقه.. فلست أنا من أساعد فى مثل هذه العملية غير

الإنسانية يا سيدتى.. أما عن جوازها شرعًا.. فالجائز هو تلقيح الزوجة التى تكتمل لزواجها أركانه المعروفة بماء زوجها بالوسائل الطبيِّة كما هى الحال الآن فى عملية أطفال الأنابيب، أما استئجار رحم إنسانة لها قلب ومشاعر وأحاسيس بعقد زواج مؤقت لتلقيح رحمها حتى يتكون داخله جنين لزوج صورى لم تعرفه ثم الاستيلاء على هذا الطفل عقب ولادته فلا تراه بعدها إلا بعد فترة طويلة ولا تنشأ بينهما علاقة الأم الغريزية بابنها. وعلاقة الطفل الطبيعية بأمه فليس هذا جائزًا لا شرعًا ولا دينًا ولا إنسانيًا ولا فى أى عرف، وسألجم قلمى عن وصفه بما يستحقه من كلمات احترامًا لمشاعرك أنت وزوجك وتقديرًا لظروفكما الإنسانية لكنى سأسألك فقط يا سيدتى سؤالاً محددًا هو: هل ترضين لنفسك بأن تكونى فى موضع هذه الإنسانة البائسة من زوجك.. ومن طفلها المنتظر الذى ستحرم منه بمجرد ولادته.. ولن يكون دورها فى حياته سوى دور الرحم الذى تم شحنه وتفريغه بالمال؟ وبماذا كنت ستشعرين لو اضطرتك الحاجة إلى قبول هذا العرض المؤلم؟

إنك تعرفين الجواب جيدًا وتدركين تمامًا حجم الإهانة والامتهان البشرى الذى كنت ستشعرين به لو عرض عليك أحد مثل هذا العرض، ومن المؤكد أن إحساسك بهما سوف يتضاعف عشرات

المرات لو أرغمتك ظروف الحياة القاسية على قبوله.. فلماذا ترضين لغيرك يا سيدتى بما يقشعر جسدك لمجرد تصور أن يعرضه أحد عليك ثم ولماذا كل هذا العناء والتحايل وحياتكما تمضى على ما يرام والحمد لله وكلاكما حريص على الآخر وراض بحياته معه.. وماذا يضيركما أن ينظر إليكما الأقارب كوديعة فى بنك الموروثات أو لا ينظرون.. ولماذا تحاولان تغيير حكمة الله سبحانه وتعالى فى المواريث.. وحرمة الإضرار بالورثة الشرعيين ثابتة بغير حاجة إلى دليل، وماذا يضير المرء بعد رحيله أن تتقاسم ثروته زوجته مع إخوته وقد فرغ من الحياة وهمومها ولم يعد يمثل له ماله شيئًا أو يغنى عنه من شىء.. وحتى لو نجح هذا المشروع الغريب.. فما هى حكمة إنجاب طفل لأب تجاوز الستين وترشيحه لليُتم صبيًا بحكم طبائع الأمور ومتوسطات الأعمار المعروفة ولماذا لا تختصان طفلاً محرومًا برعايتكما وعطفكما.. بغير قلاقل ولا مشاكل ولا معاناة الخوف على طفل وليد من أن تعصف به الحياة وهو مازال غضًّا بعد رحيل من يهمهم أمره.

يا سيدتى: إصرفى نظرًا عن هذا الأمر فإما زواجًا مشروعًا تتوافر له كل أركان الزواج المعروفة بغرض الإنجاب وهو أمر جائز ومشروع وإن كنت لا أنصح زوجك به فى مثل عمره.. وإما أن ترضيا بحياتكما كما هى الآن وتحاولا تعويض الحرمان من الإنجاب برعاية طفل أو

أطفال محرومين وبالاستمتاع بمباهج الحياة الأخرى دون معاندة للأقدار ولا لشرع الله فى نظام المواريث بمثل هذه الأساليب "الرحمانية" وشكرًا.

* * *

أنا سيدةٌ عمرى 28 عامًا.. تزوجت منذ عامين ونصف العام تقريبًا من صيدلى شاب زواجًا تقليديًا فقد رشحه لى أحد أقاربنا بعد تخرجى فى كليتى. واصطحبه فى زيارة لنا ورأيته للمرة الأولى ورآنى وتم القبول.. وتقدم لخطبتى بعد هذه الزيارة بأسبوعين. ورغم أن زواجنا قد بدأ تقليديًا، فإنه تحول إلى زواج عن حب ملتهب من ناحيتى على الأقل وخلال وقت قصير، فلقد بدأ خطيبى يتردَّد علينا. وفى كل زيارة أجد نفسى منجذبة إليه بعض الشىء.. وأتحدث إليه كثيرًا.. ونضحك كثيرًا إلى أن جاءت الزيارة الرابعة.. ووجدت نفسى فجأة غارقة فى حب هذا الرجل الذى لم أره إلا من شهر أو أكثر، وأحببته باندفاع كأنه قد كانت هناك نافورة معطَّلة فى قلبى وجاء مَنْ ضغط على أزرارها.. فعملت.. وأغرقته بمشاعرى حتى شعر رأسه.. ولم أخف مشاعرى عنه ولا عن أحد ونصحتنى صديقاتى بأن أتحفظ فى إظهار حبى له حتى "لا يركبنى خطيبى ويدلدل قدميه" كما قلن لى.. لكنى لم أستجب للنصيحة لأنى لا أعرف كيف أُخفى مشاعرى.. وما فى قلبى دائمًا على لسانى منذ صغرى.

وهكذا تركت نفسى على سجيتها ورضيت بأن تعتبرنى

صديقاتى عبيطة أو "مدهولة" كما قلن لى.. وقلت لخطيبى "أأمر يا قمر أمرك ماشى"، وأصبحت رغباته أوامر عندى وعندما بدأنا نستعد للزواج وافقته على كل مطالبه.. فإذا تردد أبى وأمى فى الموافقة على شيء ظللت أرجوهما وأقبّلهما حتى يوافقا على ما يريد خطيبى فيوافق أبى وأمى وهما يضحكان.. وتبدى أمى مخاوفها من طيبتى الزائدة ويطمئنها أبى إلى أن الطيبين للطيبات ولن يتخلى الله عنى.. والحمد لله صدقت فراسة أبى فى زوجى بعد أن تزوجنا وكشفت لى العشرة عن أنه إنسان جوهرة شهم وكريم وطيب ويحبنى، ولكن ليس كما أحبه وهيهات أن يتسع قلبه لكل ما فى قلبى تجاهه.. وقد أنجبت طفلة مثل "العسل" بعد عام واحد ورفعت يدى إلى السماء أشكر ربى على سعادتى وأدعو الله لاستمرارها.. إذن ما هى المشكلة مادمت أكتب إليك.. المشكلة هى أننى كنت منذ صغرى فتاة بدينة.. لكن بدانتى ظريفة ومقبولة لأن جسمى متناسق وطولى 175 سم ووزنى أقل من الثمانين كيلو جرامًا.. ووجهى جميل وقلبى أجمل لأنه لا يحمل كراهية لأحد فى الدنيا.. وفى بداية خطبتنا وزواجنا كان زوجى سعيدًا بى كما أنا سعيدة به ولم يكن يشير إلى بدانتى بكلمة أو إشارة.. لكنه بعد الزواج بدأ يداعبنى ببدانتى.. ويناديني أحيانًا "يا فيل" وكنت أضحك وأبادله الضحك ولا أغضب منه.. لكن المسألة طالت فبكيت مرة حين نادانى بهذا اللقب وانزعج وأكد لى أنه لم يقصد

الإساءة إلىَّ وإنما كان يداعبنى.. وكفَّ بعدها عن مناداتى بهذا اللقب.. لكنه لم يكف تمامًا عن مداعبتى من حين لآخر عن بدانتى.. إننى لست غاضبة من زوجى لكنى بدأت أخشى أن تكون هذه المداعبات تنفيسا عن رغبة لديه فى أن أكون رشيقة.. فحاولت إنقاص وزنى بكل السبل دون فائدة.. والغريب أننى آكل ربع ما يتناوله زوجى فى الوجبة الواحدة، ومع ذلك فهو نحيف ولا يسمن أبدًا.. وأنا بدينة ولا ينقص وزنى أبدًا.. لقد نصحتنى بعض صديقاتى بإجراء عملية شفط للدهون لكنى أخشى من أن ترهقنى. فهل تنصحنى بإجرائها وهل يمكن أن يموت الحب لديه فعلاً لسبب مثل بدانتى مع أنها مقبولة جدًا لدى الآخرين؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

أنت سيدة طيبة القلب فعلاً وصادقة فى مشاعرك.. وخفيفة الظل أيضًا.. ومن كانت لها هذه المميزات فضلاً عن ميزاتها الأخرى المؤكدة لا خوف عليها من أن تتغير مشاعر زوجها تجاهها بسبب بدانة أو رشاقة أو أى سبب عضوى آخر، ذلك أن الحب الحقيقى يا سيدتى لا يتعامل مع جسم الإنسان وإنما مع روحه وقلبه ومشاعره وشخصيته، ومؤكد أن زوجك حريص عليك كحرصك عليه وأكثر وإذا كان يستجيب أحيانًا لشيطان المعابثة ويداعبك ببدانتك المقبولة..

فالأفضل للحب ولإحسان العشرة أن يتجنب ذلك حتى ولو من باب الدعابة، حرصًا على المشاعر وعلى عدم تراكم الحساسيات شيئًا فشيئًا.. فالعشرة الطيبة تتطلب من شريك الحياة أن يتجنب دائمًا الإشارة إلى ما قد يثير حساسية الطرف الآخر خاصة فيما لا حيلة له فيه، ولقد ذكَّرتنى رسالتك برسالة كتبها روائى فرنسى من القرن الثامن عشر هو "دى لاكلو" إلى زوجته التى أحبها حين لامت نفسها على بدانتها وعجزها عن إنقاص وزنها فقال لها فى رسالته "كلما كان لى منك قدر أكبر ازددت فى قلبى قدرًا" وكتب لها أيضًا: "أننى أدين لك بسعادتى طيلة السنوات الاثنتى عشرة الماضية ولاشك أن الماضى أكبر ضمان للمستقبل.. ولهذا فإنى مطمئن إلى غدى معك".

ولم تكن البدانة شيئًا محببًا لدى الرجال فى عصره.. لكن الزوج المحب لا يرى فى زوجته إلا كل ما يرضيه.. ولا يرغب فى أن تسرف على نفسها فى شىء لا حيلة لها فيه لإرضائه.. وهكذا ينبغى أيضًا أن يفعل من أغرقته زوجته الطيبة بنافورة عواطفها منذ اللقاء الثالث أو الرابع.. ومازال طوفان حبها له عالى الأمواج.. وأحسب أن هذا أيضًا هو موقف زوجك منك أيضًا لكن دعاباته تسىء التعبير عن عمق مشاعره تجاهك.. لهذا كله فإنى أقول لك إنك إذا كنت ترين نفسك مقبولة ولا تعانين من أية متاعب صحية بسبب البدانة فلا داعى لأن تُرهقى نفسك بأية جراحة.. أما إذا كانت هناك ضرورة

صحية لها فلا بأس بما يراه الطبيب المختص وحده، ولكن فى كل الأحوال لا تفعلى ذلك إحساسًا منك بنقص لا مبرر له أو استجابة لمخاوف لا نصيب لها من الحقيقة، مع تحياتى لك ولزوجك العزيز ومع رجائى له بأن يتجنب هذه المداعبات المرهقة ماديًا وصحيًا ونفسيًا وشكرًا.

* * *

23

أنا سيدة مسنة فى السبعين من عمرى أعيش فى مدينة ساحلية، وقد مضت رحلة العمر بأفراحها وأحزانها وزوّجت كل أبنائى وبناتى ويعيشون الآن جميعًا فى استقرار والحمد الله. وبقيت معى فى وحدتى الآن صغرى أولادى وهى فتاة فى الثانية والعشرين من عمرها تمتلئ جمالاً وحيوية، وقد تخرجت فى إحدى الكليات النظرية وعملت بوظيفة لا بأس بها ثم رزقها الله بمهندس شاب تقدم لخطبتها وسعدت به وسعد بها وراحا يرسمان معًا خطتهما للمستقبل المشرق.. وفجأة يا سيدى حدث ما لم يكن فى حسبان أحد. فلقد أُصيبت ابنتى دون أية مقدمات بانفصال فى الشبكية وأجريت لها عدة عمليات جراحية عند أشهر الأطباء فلم تنقذها من الظلام مع الأسف.. فسلّمت أمرها لله ولم تفقد الأمل فى الحياة وعادت إلى طبيعتها المرحة وراحت تقوم بالأعمال المنزلية بلا مشاكل، لكن خطيبها سامحه الله تركها وتخلى عنها وأثرت فيها هذه "الخيانة" غير المتوقعة أكثر مما أثر فيها ما حكمت به الأقدار عليها، وبعد فترة من الألم والحزن تمالكت نفسها واستعادت ثقتها فى الله وقالت لنفسها "قدّر الله وكما شاء فعل" ثم عاشت حياتها بطبيعية، وقمت بكتابة الشقة التى أعيش فيها معها باسمها احتياطًا للمستقبل. وبفضل روحها المرحة وإيمانها

بالله راح جيرانُنا الطيبون يحاولون مساعدتها على أن تشق طريقها ويقدمون لها خطَّابا مناسبين من جميع النواحى وبعد أن يتقدموا لها يتراجعون ولا يستكملون المشوار، ثم تصادف أن تقابلتْ مع أحدهم وكان مدرسًا لابنة الجيران وسألته عن سر تراجعه فصارحنى بأن "البعض" قد "حذروه" وأثاروا مخاوفه من أن وجودى مع ابنتى بعد الزواج سوف ينغص حياة من سيتزوجها.. فتعجبت لذلك وتألمت له لأنى كنت أتصور أن وجودى مع ابنتى بعد زواجها سيساعدها على مواجهة حياتها ويخفف من مشاكلها وليس العكس.. ومنذ ذلك اليوم وأنا أفكر فيما قاله لى هذا المدرس.. وانتهيت بعد التفكير إلى أنى على استعداد لأن أفعل أى شيء يحقق لابنتى سعادتها، وقررت أن أقيم مع أحد أبنائى المتزوجين أو بناتى وأترك لها الشقة لتعيش فيها حين يتقدم لها من يستحقها فهل توافقنى فى ذلك.. وهل أستطيع أن أفعل لها شيئًا آخر؟ وما رأيك فى الشاب المهندس الذى تخلى عن خطيبته بلا رحمة.. ولسبب لا ذنب لها فيه؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

جرح "الخذلان" قبل بداية الرحلة وإن كان مؤلمًا للنفس إلا أنه أخف وطأة عليها من جرح "التخلى" بعد الإبحار فى المياه العميقة وتشابك الروابط واعتمادنا فى حياتنا على مَنْ ليسوا على استعداد للوفاء لنا حتى نهاية الرحلة.

و"خيانة" خطيب ابنتك المهندس الشاب لها وتخلّيه عنها بعد ما امتحنتها الأقدار، وإن كانت قاسية بحق إلا أنها تبدو منطقية مع شخصيته ومع ضعف استعداده للتضحية وقدرته على العطاء، ولكل إنسان يا سيدتى حدوده التى يعجز عن تخطيها فى العطاء من نفسه للآخرين، وليس من حقنا أن نطالب الآخرين بما لا تسمح لهم طبائعهم بالاستجابة له.. وإنما علينا أن نقبل ما تسمح به هذه الطبائع ونشكر لهيب الاختبار الذى جلا لنا معادنهم الحقيقية قبل بداية الرحلة فعرفنا أنهم لا يصلحون لنا.. ولا نصلح لهم.

وتصرف المهندس الشاب مع ابنتك بهذا المفهوم لا تفسير له إلا أن روابطه العاطفية معها لم تكن قد ترسخت وتأكدت حين فاجأتها نيران المحنة فصهرتها. وإحجام الخطاب الذين يتقدمون إليها بعد الخطوة الأولى لا معنى له أيضًا إلا أن ابنتك لم تلتق بعد بمن يرتبط بها عاطفيًا ويكتشف جوهرها ويتمسك به. فلا تفعلى شيئًا أكثر مما فعلت وثقى من أن ابنتك سوف تنال نصيبها العادل من السعادة حين تلتقى بذلك الفارس المجهول الذى سيتعامل مع روحها الطيبة وجوهرها الأصيل ولا يتوقف أمام أى شىء آخر، وحين يأذن لها بذلك لن تكون إقامتك معها أو بعيدة عنها موضوعًا للنقاش أو الخلاف وإنما ستتم تسوية كل الأمور بروح الفهم والتعاون.. وربما كانت إقامتك معها من أسباب سعادتها مع زوجها وليس العكس.

أكتب رسالتى هذه لأعلق على رسالة "الرهينة" التى تحكى قصة الزوج الذى تمردت عليه زوجته بعد عودتها من أمريكا فى أجازة، ورفضت العودة معه إلى المهجر، وفشلت كل الجهود لإقناعها بذلك فخطف طفلهما الوحيد وعاد به إلى أمريكا حيث يعانى الطفل الآن من الحرمان من أمه.. وتعانى أمه من حرمانها منه، وفى البداية أريد أن أقول لهذا الزوج إن ما فعل ليس الطريقة المناسبة لاسترداد زوجته وتصفية ما بينهما من خلافات، وأن الأفضل هو أن يعيد الطفل الصغير لأمه ليكون ذلك بادرة طيبة قد تُعيد المياه إلى مجاريها بينهما وتساعدها على أن تراجع نفسها وتكتشف مكامن الخطأ فى علاقتها به.

وقصتى مثال لذلك أرويها لهذه الزوجة ولكل زوجة قد تتصرف ذات يوم كما فعلت، فأنا سيدة فى التاسعة والعشرين من عمرى، تعلمت فى أرقى المدارس الأجنبية والتحقت بالجامعة الأمريكية، لكنى لم أكمل تعليمى بها لأنى تزوجت وعمرى 20 عامًا. وقد تزوجت من رجل ممتاز فى مشاعره وأحاسيسه وقوته ورجولته، وأيضًا فى إمكانياته المادية الكبيرة. وحين تزوجته كان قد بدأ مشروعًا سياحيًا جديدًا فى مدينة بعيدة على شاطىء البحر الأحمر لم تكن معروفة جيدًا وقتها ،

فلم أمض فى مسكن الزوجية بالقاهرة سوى ليلة الزفاف ثم سافرت معه فى اليوم التالى إلى هذه المدينة حيث عمله ومقر إقامته. وبعد وصولنا إليها أمضى معى ثلاثة أيام أخرى كزوجين فى شهر العسل لا يشغل أحدهما عن الآخر شىء ثم تركنى بعدها وتفرغ لعمله الجديد، فشعرت بوحدة شديدة وافتقدت أهلى وأصدقائى، ولم أطق الصبر على وحدتى وانشغاله عنى فى هذه المدينة البعيدة طويلاً وبدأت المشاكل بيننا.

وأعترف لك صادقة الآن بأننى لم أُقدِّر ظروف عمله ومتاعبه، وأنه حين كان يحاول أن يتحدث معى عن متاعبه كما يفعل كل زوج، كنت لا أسمع له، وإنما أثور عليه وأتهمه بأنه لا يقدر مشاعرى، وبأنه لا يصطحبنى للنزهة وأننى لا أعيش حياتى كما تعيشها زوجات فى مثل سنى.. إلخ، وأحلْتُ حياته بالفعل إلى جحيم وأصبحت أستمتع استمتاعًا غامضًا عجيبًا حين أراه وهو يكاد ينفجر من الغيظ ويكتم غضبه، وقد كان دائمًا صبورًا عطوفًا معى. وبعد أسابيع قليلة من زواجنا طلبت منه أن يسمح لى بالعودة للقاهرة لزيارة أهلى فوافق بشرط أن أقيم فى شقة الزوجية ووافقته على ذلك وأنا أضمر فى نفسى شيئًا آخر، وعدت للقاهرة فأقمت فى بيت أسرتى وصارحتهم بأنى أريد الطلاق وأتمسك به، وتعجب أهلى لرغبتى هذه وحاولوا معى بكل الطرق إقناعى بمزايا زوجى وبأن الحياة ليست نزهات مستمرة

ولهوا وخروجًا فقط كما أتصور، وأن زوجى يحتاج إلى مساندتى له فى مشروعه لكى يحقق نجاحه ويستقر. وبعد ذلك يسهل عليه أن يعطينى من وقته الكثير وأن نسافر معًا إلى أى مكان، لكننى بغباء شديد أعترف به الآن، رفضت كل المحاولات وأصررت على الطلاق للنهاية، وفى نيتى أن أرغم زوجى على الخضوع لى والعودة للإقامة معى فى القاهرة.. لأستطيع أن أحيا الحياة التى أحلم بها ورأيتها فى الأفلام من سهر كل يوم وخروج وأماكن عامة وحياة اجتماعية وزيارات عائلية إلخ.. وتمسكت بطلبى هذا حتى بعد علمى بأننى حامل من زوجى وأن طفلاً فى عالم الغيب سوف يأتى إلى الدنيا بعد شهور، وحذرتنى أمى من أننى ألعب بالنار التى ستحرقنى وأنى أفعل ما أفعل من باب الدلع فقط لا غير، وسأدفع ثمن ذلك غاليًا، فلم أستمع لها وحاول زوجى بكل الطرق إقناعى بالعدول عن الفكرة دون جدوى، وضاقت بى أمى وقالت له أمامى: لاشك أنك تستحق من هى أفضل منها ألف مرة.. فلا تحزن عليها وطلِّقها لتتعلم درسها بنفسها، وأيقن زوجى من تمسكى بطلبى فطلَّقنى.. ووصلتنى ورقة الطلاق وأنا حامل فى الشهر السادس وفرحت بها كأنها وثيقة عتقى من الرق! وانتظم زوجى فى إرسال مبلغ محترم لى أول كل شهر، ثم جاء موعد الولادة فتكفل بكل نفقاتها وضاعف لى المبلغ الشهرى بعدها. ومضت أسابيع ثم ظهرت مشكلة جديدة فى حياتنا، فلقد أراد شقيقى

أن يتزوج ويقيم فى شقة الأسرة التى لا تتحمل إقامته وزوجته مع أبى وأمى وأختى ومع إقامتى وطفلى الوليد بها، وعلم زوجى أو مطلقى بالأمر فعرض علىَّ أن أعود للإقامة فى مسكن الزوجية الخالى بصفة مؤقتة لأنه يقيم بصفة شبه دائمة فى المدينة الساحلية، وقبلت ذلك مضطرة رغم معارضة والدى له، أما أمى فلقد واصلت مقاطعتها التامة لى منذ يوم طلاقى، وواصلت معاملتها الجافة لى. وانتقلت مع طفلى إلى مسكن الزوجية المنهار.. وأنا أتصور أنى سأعود لأحيا حياتى كما كنت أحياها قبل الزواج، ومرت الأسابيع والشهور فإذا بى أكتشف أنى لم أعد كما كنت ولا أستطيع.. فلا أنا فتاة فأعود لأصادق الفتيات وأجد سعادتى معهن، ولا أنا زوجة فأصادق الزوجات وأقترب منهن. كما أن وضعى غريب فأنا أعيش فى مسكن مطلقى.. مع وجود شقة أهلى بالقرب منى وأحسست بوحدة موحشة قاتلة بين جدران البيت الخالى ووجدت نفسى للمرة الأولى مسئولة عن بيت وطفل وعن نفسى، ولم أعش حياة الأفلام التى حلمت بها.. فلا سهر.. ولا خروج كل يوم.. ولا نزهات ولا صديقات مرحات، ولا شىء سوى الوحدة.. وبكاء الطفل وطعامه وأمراضه، وجفاء أمى، وانتقاد أبى وإخوتى.. وإذا بالملكة المتوَّجة التى كنت أتصور نفسى فيها تنكشف عن مطلقة شابة معها طفل رضيع تعيش وحيدة.. وتقف حائرة أمام أى مشكلة صغيرة من مشكلات الحياة اليومية

فتبحث عمن يحلها لها من إخوتها أو أهلها. وبدأت أراجع نفسى.. وأقارن تصرفاتى مع زوجى أو مطلقى بتصرفاته معى، فأجدنى مع الأسف نموذجًا للرعونة والطيش والغباء والدلال السخيف، فى حين كان هو نموذجًا للرجولة والأخلاق والتهذيب وعرفت بالتجربة المرة أن إحساس المرأة بأنها متزوجة يحميها من شرور كثيرة أهمها شرور نفسها هى.. واستغرقنى هذا التفكير طويلاً حتى وجدتنى أصحو ذات يوم من النوم والفجر لم يطلع بعد، ثم أحمل طفلى وحقيبة صغيرة وأستقل سيارة أجرة إلى موقف الأتوبيس الذى يسافر إلى تلك المدينة الساحلية البعيدة، وركبت ذاهبة إلى زوجى أو مطلقى بغير علم أهلى، وتوجهت إليه باكية ومعتذرة وطالبة العفو وأن نبدأ معًا صفحة جديدة.. فهل تعرف ماذا صنع معى؟ لقد استقبلنى بكل الحفاوة وكل الترحيب وقَبِلَ اعتذارى بسماحة وكرم، وطلب منى أن أعود فى نفس اليوم إلى بيت أهلى وأقيم فيه لمدة أسبوع ريثما يأتى ويطلب يدى منهم كما لو كنا سنتزوج للمرة الأولى، وشكرته بدموعى الغزيرة وعدت للقاهرة، وأبلغت أهلى بما فعلت وأقمت لديهم وبعد أسبوع جاء زوجى الرائع فى موعده تمامًا وتقدم لأبى يطلب يدى وتزوجنا من جديد وعدت معه إلى مقر عمله ولكن شتان بين الزوجة الأولى التى رافقته فى نفس الرحلة قبل عامين وهذه الزوجة الجديدة التى سافرت معه وفى يدها طفلها منه. فقد عرفت قيمة زوجى وأدركت جيدًا أنه

رجل فى زمن عزَّ فيه الرجال، وأصبحت أنظر إليه وكأنه الرجل الوحيد فى العالم، وأنام وأصحو على حبه والاعتراف له بفضله ونبله. وحرص هو من جانبه على تجنب الأخطاء المزعومة التى ادعيتها عليه فى البداية، لتكتمل لنا السعادة وقد مضت الآن على عودتنا للحياة معًا عدة سنوات أنجبنا خلالها بنتا وولدا آخرين وأحمد الله فى كل وقت على ما أنعم به علىَّ من نعم كثيرة، وأطالب كل سيدة وكل فتاة وكل إنسان بمراجعة نفسه وحياته لأن من يفعل ذلك بحياد وعدالة يستطيع أن يصلح من نفسه ومن أخطائه.. وأقول لهم جميعًا: تأكدوا دائمًـا أن الوقت لم يفت لإصلاح الأخطاء مهما تأخر الزمن، وهذا ما أريد أن أقوله أيضًا لبطل قصة "الرهينة" المهاجر لأمريكا ولزوجته، فبقليل من العدل فى مراجعة النفس سيعرف كل منهما أخطاءه ويرجع عنها وتعود المياه لمجاريها بينهما ويستريح هذا الطفل الرهينة المعذب بينهما، والذى يذكرنى بطفلى الأول الذى كدت أعرضه لنفس المصير لولا أن هدانا الله.. والحمد لله كثيرًا على ذلك والسلام..

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

أهم ما أنعم الله به عليك يا سيدتى هو عودة الرشد الذى هيأ لك استرداد السعادة بعد أن كادت تضيع من بين يديك إلى الأبد. ذلك أن عقل الإنسان وأفكاره وليس الظروف الخارجية التى تحيط به، هما

اللذان يتحكمان إلى حد كبير فى سعادته أو شقائه. وقصتك أبلغ دليل على ذلك، فلقد كانت كل الظروف المتاحة لك منذ البداية ترشحك للسعادة، من زوج محب عطوف صبور، إلى إمكانيات مادية سخية تهيىء لك الحياة المريحة، إلى شباب وجمال وظروف عائلية طبيعية.. ورغم ذلك فلقد أحلْتِ الحياة مع زوجك إلى جحيم.. وهجرت بيت الزوجية وحكمت على نفسك بحياة مطلَّقة تواجه الحياة بطفل رضيع وتبحث عن الحياة اللذيذة التى تراها فى الأفلام فلا تجد سوى مشاكل الحياة اليومية ووحشة الوحدة، وهوان النفس على الآخرين بعد عزتها.. فإذا سألت نفسك عن المسئول عن تحول أحلام السعادة إلى سراب وشقاء لن تجدى جوابًا سوى فى هذه الكلمة السحرية: عقل الإنسان وأفكاره!.. وإذا سألت نفسك وكيف استرددت السعادة أو على الأصح كيف اكتشفت ما كان متاحًا لك منها فقبضت عليه قبل أن يضيع للأبد فلن تجدى جوابًا آخر سوى نفس الكلمة السحرية دائمًا.. فنحن دائمًا كما نفكر.. نفكر فى السعادة.. فننال منها بقدر ما يصدق عزمنا على أن نناله، ونفكر فى الشقاء فتقودنا خطواتنا وتصرفاتنا إليه، ونفكر فى الخير فنصبح أخيارًا ونكف أذانا عن الآخرين ونفكّر فى الشر فنكره الآخرين ونتمنى لهم أسوأ الأمنيات، وربما يكون هذا هو ما عناه أرسطو حين قال إن السعادة فى "الحكمة" وليس فى أى شىء آخر.. لأنها وسيلة الإنسان لإدراك قيمة ما يستحق

منه أن يحرص عليه وما لا يستحق أن يتمسك به أو يسعى إليه أو يضحى بسعادته الحقيقية من أجله. ومن أهم أسباب الشقاء الإنسانى يا سيدتى هو هذا الغباء البشرى الذى يعجز معه الإنسان عن إدراك حقيقة بديهية مهمة هى أنه لا قيمة لنا ولا اعتبار إلا لدى من يحبوننا ويحرصون علينا، وأننا خارج دائرتهم لا نساوى الكثير ولو توهمنا ذلك.. لهذا فمن الحكمة أن نحرص عليهم وألا نتمادى فى الدلال والقسوة عليهم فنفقدهم ونفقد معهم كل ما كنا نمثله لديهم من قيمة واعتبار. وكل ما لن نجده لدى غيرهم منهما. واعتراف الإنسان بأخطائه ومراجعته لنفسه بحياد وتجرد، هو الخطوة الأولى فعلاً على الطريق الصحيح وإقراره بالخطأ والرجوع عنه واجب دينى وأخلاقى مطلوب دائمًا وفى أى مرحلة من العمر حتى ولو فات أوان إصلاح الأخطاء.. من باب إبراء الذمة.. والإشفاق على النفس من المثول مع من ظلمناهم وأخطأنا فى حقهم بين يدى العادل الذى لا تضيع عنده الحقوق جلَّ شأنه، وكما أن الظلم شر القبائح.. فإن العفو والصفح عن المعترف بخطئه من فضائل النبلاء أيضًا ولاشك أن زوجك قد أعانك بمسلكه النبيل الكريم معك خلال فترة الطيش على الرجوع سريعًا إلى نفسك واكتشاف مزاياه، وإدراك حقائق الحياة الأولى بالاعتبار وبالانتباه، وهى أن الزوج المحب العطوف العادل قيمة كبرى تستحق العناء للفوز بها والحفاظ عليها وليست أوهام

الحياة اللاهية التى تخيلتها، ونحن نتعلم من تجارب الفشل والألم أكثر مما نتعلم من تجارب السعادة والنجاح، لهذا فقط اكتسبت أنت خبرة ثمينة بالحياة أعانتك وسوف تعينك دائمًا على حراسة سعادتك والدفاع عنها ضد معاول الطيش والحمق والأنانية بإذن الله.. وهنيئًا لك اكتشاف السعادة الحقيقية.. وشكرًا لك على رسالتك المفيدة للآخرين.

* * *

أبدأ بأن أعرفك بنفسى فى عجالة أنتقل بعدها إلى صميم المشكلة التى أكتب لك بشأنها، أنا يا سيدى شاب أعزب يعمل عملاً ممتازًا، تزوج أبى الجامعى من أمى الجامعية منذ 33 عامًا بعد قصة حب جمعت بينهما، وضد رغبة أهله بسبب تأزم العلاقات بين الأسرتين وقتها لفشل علاقة مصاهرة سابقة بينهما، وتزوج أبى وحدثت قطيعة مؤقتة بينه وبين أهله بعد الزواج، وأنجب ولدين وبنتين.. وعقب ولادة الابنة الرابعة تخلى أبى عن مسئوليته الأدبية فى تربيتنا لأمى ربما بسبب معارضته من الأصل فى إنجابها، ورغبته فى الاكتفاء بثلاثة أولاد، وقبلت أمى المهمة بروح التحدى، فأصبحت مسئولة مسئولية كاملة عن تربيتنا وتعليمنا وتمريضنا إذا مرضنا ومذاكرتنا، بل وعن أجازاتنا أيضًا فتقضيها معنا فى الخروج للنزهة أو زيارة الأهل، أو فى زيارة أهل أبى أيضًا نيابة عنه بعد عودة العلاقات.

25 وزادت نفقاتنا فخرجت أمى للعمل بشهادتها وأصبحت تصحو فى الخامسة صباحًا وتُعدُّ لنا طعام الإفطار وتشرف على خروجنا لمدارسنا ونعود فنجدها قد أعدت لنا طعام الغداء، ثم تُشرف على مذاكرتنا وتساعدنا فيها، وإذا مرض أحدنا

اصطحبته إلى الطبيب أو المستشفى أو إلى معمل التحاليل، وإذا طلبت المدرسة ولى أمرنا ذهبت إليها معنا.. وكل ذلك وأبى لا يشارك ولا يتدخل ولا يفعل شيئًا بعد عودته من عمله واستيقاظه من نوم الظهيرة سوى الاستماع إلى الراديو أو الجلوس أحيانًا أمام التليفزيون، وتقدمنا فى مراحل الدراسة واحتجنا إلى دروس خاصة فى الثانوية العامة، فعملت أمى وقتًا إضافيًا لمواجهة نفقاتها الباهظة، واستمرت الحال هكذا 25 عامًا من الكفاح المتواصل المنفرد حتى تخرجنا جميعًا فى كليات القمة أربعة أبناء على دين وخلق ومحبوبين من الجميع والحمد لله. وتزوجت شقيقتاى ثم تزوج أيضًا شقيقى زيجات ناجحة وسعيدة بفضل الله، فى حين تأخر نصيبى أنا فى الزواج بعض الشىء فخلت الشقة علىَّ مع أبى وأمى. ثم أُحيل أبى إلى المعاش بعد أن وصل إلى مركز كبير فى عمله فأصبح يقضى ليله كله فى الصلاة والدعاء وقراءة القرآن، ونهاره نائمًا أو مستمعًا لإذاعة القرآن الكريم لا يحوِّل مؤشر الراديو عنها، وبلا أية هواية أو أصدقاء أو وسيلة تسلية حتى النادى رفض أن يذهب إليه للجلوس مع زملائه من أصحاب المعاشات، بينما نخرج أنا وأمى للعمل كل صباح، وتقدمت أمى فى عملها حتى أصبحت تشغل مركزًا كبيرًا، واستمرت الحال هكذا ثلاث سنوات ثم بدأ أبى ـ الذى كان دائمًا إنسانًا هادئًا رقيقًا مهذبًا لا يعلو صوته ولا يلتفّظ أبدًا بلفظ بذىء ـ يتغير ويثور ويغضب بلا

أسباب ويعلو صوته بسيل من أقذع أنواع السباب والإهانات لأمي ولأهلها!.. وفى كل مرة كنت أهدىء من ثورته وأواسى أمى وأطلب منها ألا ترد عليه حتى لا تزداد ثورته.. ولكن بلا جدوى. واستمرت الثورات والانفجارات والإهانات إلى أن فوجئت به يا سيدى يوجه لها خلال إحدى ثوراته تهمة خيانته.. ومتى؟ منذ عشرين سنة حين كانت تخرج معنا ونحن أطفال صغار للنزهة ثم يسوق الشواهد والبراهين التى لا أدرى إن كانت حقيقية أو من نسج أوهامه على صحة اتهامه لها، ولأول مرة فى حياته معها مدَّ يده عليها بالضرب واضطررت للتدخل بينهما فإذا به يندب حياته ويتمنى الموت ليستريح من عذابه.. وبعد فترة قصيرة أمرها بترك حجرة نومه والإقامة فى حجرة أخرى وانقطع حبل الحديث بينهما نهائيًا، وأصبحت أنا حلقة الوصل بينهما أبلغ كلا منهما بما يريده من الآخر، وخيَّم جو ثقيل من الحزن والكآبة على البيت وعلى حياتى أنا على وجه الخصوص. وزاد من اكتئابى وضيقى أن أصبح أى حديث أو نقاش يجرى بينى وبين أبى عن أى أمر من الأمور، حتى ولو لمجرد أن أخفف عنه صمته ووحدته لابد أن ينحرف به أبى: إلى الحديث البغيض المؤلم عن الخيانة.. والأدلة.. والبراهين! حتى أصبحت أتحاشى الحديث معه إلا للضرورة وبأشد الاختصار حتى لا تسوء حالتى النفسية أكثر، ورغم ذلك لم تتوقف ثورته وإنما تواصلت وازدادت عنفًا وفى إحدى

هذه الثورات هدد أمى بالطلاق إن لم تطع أوامره المعقول منها وغير المعقول، وفى مرة أخرى هددها بقتلها والانتحار بعدها، مما جعلنى أعيش فى حالة من التوتر المستمر والتأهب للفصل بينهما إذا سمعت صوت أحدهما يتحدث فى الشقة حتى ولو كان يتحدث فى التليفون، إذ ما إن أسمع صوت أحدهما فى صمت الشقة الكئيبة، حتى أسرع إليه جريًا خوفًا من أن تكون مشاجرة قد تتطور إلى جريمة أو فضيحة، كما أصبحت أخشى على صحة أبى من انفعالاته الشديدة، وعلى صحة أمى التى تعيش تحت التهديد بالطلاق أو القتل من ارتفاع ضغطها، وأخشى على مستقبلنا نحن جميعًا كأبناء وعلى وضعنا الاجتماعى وعلى وضع أخوتى المتزوجين ولهم أبناء من تأثير هذه الفضائح.. وبسبب هذا التوتر المستمر أصبت مع الأسف بقرحة فى المعدة وبدأت أعانى من آلامها كلما ارتفع مؤشر التوتر فى حياتنا الكئيبة.. فماذا أفعل يا سيدى لأنقذ الجميع من هذا الجحيم؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

من نكد الدنيا أن يجد ابن مثلك نفسه فى هذا الموقف العصيب بين أبوين فى سن الجلال والاحترام يخيم على حياتهما وحياته معهما هذا الجو الثقيل من الكآبة والاتهامات المخجلة. لكن ماذا نفعل والحياة تأبى إلا أن تمتحننا أحيانًا بكل عجيب وغريب؟! فواصل دورك

يا صديقى كحلقة وصل بين الأبوين اللذين تكدرت الحياة بينهما، ودورك كمنقذ متأهب دائمًا للفصل بينهما ومنع الفضائح والكوارث، وأضف إلى مهمتك هذه مهمة إضافية أخرى، هى أن تزيد من اهتمامك وعنايتك بأبيك وألا تتركه للوحدة والصمت الموحش بالأيام، وألا تتهرب من حديث الخيانة الكئيب الذى لا يتحدث أبوك إلا فيه، وأن تحاول معه بحذر وصبر ورفق لفت نظره إلى أن هذا الحديث يجرح مشاعرك كابن فى الصميم، ويجرح كرامته هو كزوج وأب فى مقتل، ويمس شرف أم وزوجة لا حدود فاصلة بين شرفها وشرف زوجها، فإذا كانت بريئة مما يرميه بها فرمى المحصنات بالباطل إثم شنيع نربأ به أن يحمله وهو من يعرف ربه ويقضى ليله داعيًا متعبدًا، وإن كانت تستحقه ـ وعفوا مرة أخرى ـ وتجاوزت عنه فى وقته حرصًا على صالح الأبناء، فإن نفس هذا الدافع أدعى الآن لأن يتعفف من أجله عن ترديد هذا الاتهام البشع بلا رويَّة، وقد كبر الأبناء وكونوا أسرهم الصغيرة وأصبح كل صدع يصيب أسرتهم الكبيرة يحرجهم أكبر الحرج مع أبنائهم وأصهارهم، ثم ما الفائدة العملية من إطلاقه الآن ولن يترتب عليه تغيير فى علاقة الزوجية وقد انقضت عشرون سنة طويلة تكفى لإسقاط عقوبة جريمة القتل نفسها عن مرتكبها.. وما العائد من وراء ذلك إلا إيلام النفس والإساءة لمن يعاشرها وإحراج الأبناء وتكدير صفو أيامهم؟

إن من الحكمة أن يُحافظ الإنسان على كرامته ويتحفظ فى إطلاق اتـهام مؤلم كهـذا الاتهـام إن لـم يصح فقد أساء به إلى نفسه كثيرًا، وإن صح كانت إساءته له أشد وأبلغ.

هذا ما أطالبك به مع أبيك وهى مهمة شاقة أما ما أطالبك به مع أمك فهو أن تتفهما معًا بعض أسباب هذا التغير المفاجىء فى شخصية الأب بعد 3 سنوات مع تقاعده وعلى عكس طبعه وتاريخه معكم طوال رحلة الحياة أنه موقف الانسحاب الاكتئابى الذى يتخذه الآن من الحياة بوجه عام.

ويعبر عن نفسه فى القبوع فى بيته بلا أصدقاء ولا هوايات ولا أى محاولة للتسلية مع خروج الأم كل يوم إلى عملها وانشغالها به عنه.. لقد أحس بتشاغل الجميع عنه، وربما أيضًا بإهمالهم له فتفاعل إحساسه بذلك مع تأثير الوحدة والفراغ وانعدام الدور وانعدام الأصدقاء فى اضطراب أصابه وأثَّر سلبًا على حالته النفسية.. وهكذا بدأ التغير.. وبدأت الانفجارات والإهانات واتخذت ثوراته زوجته هدفًا لها لأنه يعتبرها فى باطنه مسئولة بشكل ما عن وحدته وإهماله وفراغه العاطفى، مع استمرارها فى العمل وانشغالها به، لهذا لم تتجه إليك هذه الثورات لأنه يدرك أن خروجك للعمل وانشغالك به عنه من طبيعة الحياة فى حين كان يتوقع من زوجته فيما يبدو أن تتفرغ له

بعد تقاعده وصبر على ذلك ثلاث سنوات وبدأت الانفجارات والإهانات حين افتقد الاهتمام والإيناس. ومن أنواع الأفكار الضلالية أى التى لا سند لها من الحقيقة، نوع يسمى بضلالات الخيانة وعدم الاستبصار، وتسيطر على الشخص الذى يعانى منها فكرة ضلالية هى خيانة شريك حياته أو من يحبه، فيقذف بالاتهامات بلا تروٍّ، وينشغل بالحديث عن الأدلة والبراهين ولا يملُّ حديثها كأنها قضية حياته الوحيدة، ولاشك أن لوحدته وإحساسه بإهماله ورفض زوجته إطاعته فى بعض ما يراه حقًا له أثر كبير فى استسلامه لهذه الضلالات.. وإلا فلماذا لم تعبر هذه الأفكار عن نفسها إلا الآن وبعد عشرين سنة؟.

إن المشكلة هى أننا قد نسىء إلى الآخرين أحيانًا بعدم الإدراك وسوء الفهم أكثر مما نسىء إليهم أحيانًا بالقسوة والظلم، ولهذا فمن واجب أمك أن تتفهم أسباب هذا الانقلاب الخطير فى شخصيته وأن تتعالى على آلامها وما تحسه من جرح غائر فى كرامتها، وتساعده على النجاة مما يعانى منه بتجنب إثارة جروحه وأوهامه وبطاعته فيما لا معصية فيه، إرضاءً له وغرسًا للاطمئنان فى قلبه، وبزيادة جرعة الاهتمام والحنان له، ولو شقَّت على نفسها فى ذلك حماية لأسرتها وكرامتها من الهوان، ولها فى صبرها عليه واحتمالها منه ما تكره فضل عظيم ثم تحاول بعد ذلك مناقشته بهدوء.. ونفى هذا الاتهام البشع

عنها بالقول والتصرف ودحض أدلته وبراهينه بالعقل والمنطق، وأن تذكِّره بأنه مازال رجلها الوحيد الذى تزوجته بعد قصة حب على غير إرادة الأهل وعاشت معه رحلة طويلة سعيدة فى مجموعها. ومن السفاهة أن تنتهى هذه النهاية المخجلة، ولا بأس من طلب استشارة طبية متخصصة فى هذا الأمر ولابد أن تنجح والدتك بالعطف والفهم والصبر فى نزع فتيل هذه القنبلة الزمنية المتأخرة وإعادة الهدوء والاطمئنان إلى قلبه، ولو تطلب الأمر أن تحصل على أجازة طويلة من عملها لتبقى إلى جواره وتخفف عنه وحدته وتعيد المياه إلى مجاريها بينهما.

فإذا فشلت كل هذه الجهود.. وأصر على ما لا يليق به ولا بزوجته وأبنائه، ولم ترغب هى فى الانفصال أو لم تكن قادرة عليه نفسيًا وماديًا.. فتحمَّل أنت يا صديقى قدرك ولا تكف عن المحاولة معه إلى أن يقضى الله أمرًا كان مفعولا.

* * *

26

أنا سيدة عمرى 48 سنة أُقيم فى مدينة ساحلية تزوجت وأنا فى السادسة عشرة من عمرى من شاب كان فى العشرين من عمره وقتها، ويعمل مع أبيه التاجر الكبير وأنجبت ولدين وبنتين ومضت حياتى كرحلة جميلة وسعيدة، وكان أولادى فيها هم كل حياتى فكنت أسهر معهم وأوفر لهم الجو الملائم للمذاكرة فكانوا دائمًا من الناجحين، وكان الابن الأكبر من الأوائل لذكائه، فكنا ننشر له صورته مع التهنئة بالنجاح كل سنة فى جريدة المدينة المحلية، وكنت دائمًا فخورة بهم وبأخلاقهم وبحبهم لبعضهم وللناس، إذْ كنت المسئولة عن تربيتهم لانشغال أبيهم الدائم بعمله. ومضت السنوات وتخرج الأبناء جميعًا فى كلياتهم وتخرج الابن الأكبر فى كلية الشرطة والثانى فى كلية الهندسة وتخرجت البنتان فى كلية نظرية وسعدت بأدائى لرسالتى على أكمل وجه.. وسعدت أكثر بتفاهمنا جميعًا وقربنا من بعضنا البعض، إذ كنت أبدو بينهم كواحدة منهم رغم احترامهم الكبير لى، حتى كان ابنى الأكبر يكتب الشعر فى حنانى وحبى لهم وكان لنا شاليه صيفى نقضى فيه أيام الصيف ونجتمع فيه والحب يرفرف علينا.. والسعادة تحلق فى سمائنا.. كما أدينا معًا الحج والعمرة والحمد لله ثم ترقى ابنى الأكبر إلى رتبة نقيب لاجتهاده وذكائه وفرحت بترقيته

الأخيرة فرحة زائدة ووضعت له بيدى النجوم الثلاث اللامعة فبدت على كتفه جميلة براقة وزاد من جمالها تواضعه وحرصه على أداء فروض دينه وعطفه على الضعفاء والمحتاجين ورقة قلبه مع الناس كلهم، ثم اكتملت فرحتنا حين خطب فتاة جميلة ظهر إلى جوارها فى حفلة الخطبـة كالقمـر المنير بأخلاقه قبل أن يكون بشكله الوسيم، وقررنا أن يتزوج بعد 6 شهور وأعددنا له الشقة ليتزوج فيها ثم جاء فى أجازته الأسبوعية من مقر عمله فقضاها معنا وخرج ظهر يوم الجمعة عائدًا إلى عمله على بعد نصف ساعة من مدينتنا.. فصلى الجمعة فى المسجد ورجع إلى البيت ليبدِّل ملابسه ويرتدى البدلة الميرى البيضاء وسألنى قبل أن يخرج: هل تريدين شيئًا يا ماما، فأجبته بأنى لا أريد إلا سلامته وسعادته وودعنا وخرج وركب السيارة وخرج إلى الطريق فصدمه إنسان جاهل تخطى الطريق من الجانب العكسى وصدم سيارته صدمة عنيفة ونقله فاعل خير إلى المستشفى فى عربته وهرعنا إلى المستشفى فرأيته فى فراشه سليمًـا ووجهه الجميل كالملاك النائم فى غيبوبة وكان المفروض أن تنقله طائرة فى التو واللحظة إلى مستشفى المعادى لعلاجه قبل أن تتفاقم الأمور، فمضت 12 ساعة دون أن تحضر الطائرة.. ووصل الأمر إلى أن ينقل بعربة إسعاف سارت به ثلاث ساعات وضاع الوقت وضاع ولدى بسبب الإهمال، وأمضى ثلاثة أيام وهو فى الغيبوبة ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى، وصار ابنى من

الشهداء الذين عند ربهم فى جنات ونعيم لأنه كان ذاهبًا إلى عمله.. وفى سبيل الله، ورحل ابنى الذكى الطيب المتدين المتواضع المحب للناس والعطوف على الفقراء وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ورحل معه كل شىء حلو فى حياتنا ولم يبق لنا من العمر إلا المر والعذاب.. لقد مضت 5 سنوات حزينة كئيبة على رحيلة تزوجت خلالها البنتان.. وخطب شقيقه مؤخرًا بعد أن ظل مُضْربًا عن الزواج لفترة طويلة بسبب حزنه على شقيقه حتى أقنعته بأنها سنة الحياة ولابد من أن يتزوج ذات يوم.

إننى الآن يا سيدى أحب الوحدة ولا أرغب فى أن أرى أحدًا وأقرأ القرآن وأهب ثوابه لابنى الحبيب ونذهب إلى زيارة بيت الله الحرام كل سنة أنا وأبوه وابنى الآخر فى نفس الموعد الذى انتقل فيه إلى جوار ربه ونوزع الصدقات ونهب ثوابها له، وحجرته فى بيتى مازالت كما هى كل شىء فيها كما وضعه فى موضعه بيده.. صورته مع الوزير وهو يتسلم منه الجوائز وشهادات التقدير.. أراها أمام عينى وأبكى وأتذكر ما كنت فيه من سعادة وما أصبحت فيه من عذاب ثم أقول إنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله.. إنها إرادة الله ولا رادَّ لقضائه فادعُ الله معى أن يرحم قلب كل أم قدِّر عليها أن تفقد فلذة كبدها وأن يتلطف بها ربها فيأخذها إلى جواره قبل أن يرحل ابنها.. اللهم إنى أسألك الجنة ونعيمها واستبرقها وأعوذ بك من النار وسلاسلها

وأغلالها إنك سميع مجيب الدعاء، ولقد كتبت لك هذه الرسالة بعد أن قرأت فى بريديك منذ فترة رسالة لأب يحكى عن حزنه لرحيل ابنه الشاب فتشجعت وكتبت هذه الرسالة لأخفف عنه وكل المكلومين وأقول لهم إننا كلنا فى الحزن الأليم سواء والسلام عليكم ورحمة الله.

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

أحزان الحياة كثيرة يا سيدتى.. وأشدها وطأة على النفس هى مرارة الثكل خففها الله عنك وعن كل المبتلين. وعلى قدر العناء يكون الجزاء عند رب العالمين. ولقد اعتصر الحزن قلوب الأنبياء وكانوا دائمى الفكر متواصلى الأحزان وعند الصوفية أن الحزن الصادق من مقامات السالكين لأنه يبعث على النهوض إلى الطاعات، وفى التوراة: أن الله إذا أحب عبدًا نصب فى قلبه نائحة وإذا أبغض عبدًا نصب فى قلبه مزمارًا، وقال بعض الصالحين: من لم يذق الحزن.. لم يذق لذة العبادة. ومع كل ذلك فإن الإنسان مطالب دائمًا بأن يواجه الأحزان بما تطالبنا به الحياة من شجاعة على احتمالها وصبر على بلائها، وأنت يا سيدتى من الصابرات القانتات.. وقد أسمح لنفسى دون أى اجتراء على نبل أحزانك.. بأن أطلب منك أن تخرجى من عزلتك وأن تتشاغلى عن آلامك بلقاء الآخرين والاهتمام بشئون الحياة بل وبتوافهها أيضًا.. ليس تخلصًا من الأحزان بل تهدئةً لها وترطيبًا للسع آلامها وتواصلاً مع الحياة.. وتطلعًا إلى جوانبها الأخرى التى تستحق

منك أن توليها أيضًا عطفك وحنانك ورعايتك ففى كل ذلك بعض الراحة للقلب الحزين.. وبعض العزاء، ولقد فعلت خيرًا حين أقنعت ابنك بأن يُقدم على الزواج لأن الحياة لابد أن تستمر مهما كانت الآلام، ويبقى أن تقنعى نفسك أيضًا بحكمتك بأن خروجك إلى الحياة وتواصلك معها لا يتعارضان أبدًا مع الوفاء لذكرى الأحباء الذين حفروا فى القلوب مكانتهم للأبد فزورى الآخرين وتزاورى معهم.. وواصلى ما تفعلين من تلاوة للقرآن وتوزيع الصدقات.. وتمثلى حين تضيق النفس بهذين البيتين:

عزائـــى نبـــىُّ الله مـــن كـــل مـــيت

وحــسبى ثــواب الله مــن كــل هالــك

إذا مـــا لقـــيتُ الله عنـــى راضـــيا

فـــإن ســـرور الـــنفس فـــيما هـــنالك

نعم.. يا سيدتى سيكون سرور النفس وجوائزها فيها هنالك وفيها ينتظرك من جزاء المحتسبين الصابرين بإذن الله لكن لا تحرمى نفسك أيضًا من السلوى فى الحياة ومن حقك العادل فى مصادقة الأحزان لكى تخف وطأتها عليك.. مع كامل احترامى وصادق دعائى لك ولكل المكلومين.

* * *

كتب للمؤلف

1- أصدقاء على الورق	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 1998
2- يوميات طالب بعثة	أدب رحلات	الطبعة الثالثة 2004
3- هتاف المعذبين	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 1998
4- صديقى لا تأكل نفسك	مقالات وصور أدبية	الطبعة السادسة 2001
5- نهر الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة 2001
6- العصافير الخرساء	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة 2001
7- صديقى ما أعظمك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة 2001
8- افتح قلبك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة 2001
9- اندهش يا صديقى	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة 2001
10- أزواج وزوجات	قصص إنسانية	الطبعة الثالثة 2001
11- أرجوك لا تفهمنى	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2001
12- رسائل محترقة	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2000

13- أماكن فى القلب	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2000
14- لا تنسنى	قصص رومانسية	الطبعة الثالثة 2000
15- نهر الدموع	قصص إنسانية	الطبعة الثالثة 2000
16- أقنعة الحب السبعة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة 2000
17- مكتوب على الجبين	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2000
18- أوراق الليل	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2000
19- طائر الأحزان	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2000
20- أعط الصباح فرصة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية 2000
21- الحب فوق البلاط	قصص قصيرة	الطبعة الثانية 2000
22- سائح فى دنيا الله	أدب رحلات	الطبعة الرابعة 2004
23- قالت الأيام	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2001
24- صور من حياتهم	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية 1997
25- أهلاً.. مع السلامة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية 2001
26- قدمت أعذارى	خواطر وتأملات	الطبعة الثانية 2001
27- أيام السعادة والشقاء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 1999
28- حصاد الصبر	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 2001
29- صوت من السماء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 2001

* كتب للمؤلف من إصدارات "الدار المصرية اللبنانية"

30- العيون الحمراء	قصص إنسانية	الطبعة السادسة 2003
31- وقت للسعادة وقت للبكاء	مقالات وصور أدبية	الطبعة السادسة 2003
32- شركاء فى الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة 2002
33- خاتم فى إصبع القلب	صور أدبية	الطبعة الرابعة 2001
34- وحدى مع الآخرين	مقالات	الطبعة الرابعة 2001
35- ساعات من العمر	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثالثة 2001
36- عاشوا فى خيالى	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية 2001
37- ترانيم الحب والعذاب	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة 2003
38- الثمرة المرة	قصص إنسانية	الطبعة الرباعة 2003
39- دموع القلب	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة 2003
40- أرجوك أعطنى عمرك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثالثة 2002
41- من المفكرة الزرقاء	صور ومقالات أدبية	الطبعة الثانية 2001
42- الأرض المحترقة	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2002
43- سلامتك من الآه	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية 2003

44- هو وهى والآخرون	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2003
45- حكايات شارعنا	صور ومقالات أدبية	الطبعة الثانية 2003
46- قالت الأيام	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2003
47- الرسم فوق النجوم	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2003
48- تحية المساء	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2003
49- الزهرة المفقودة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 2004
50- يوميات طالب بعثة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى 2004
51- سائح فى دنيا الله	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى 2004
52- أرض الأحزان	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 2006
53- نافذة على الجحيم	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 2006
54- بعد مغيب القمر	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 2006
55- فتاة من قاع المدينة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 2006

المحتويات

طائر الأحزان

الحياة حافلة بصور المعاناة الإنسانية .. لكن مسئوليتنا نحن البشر هى أن نحاول قدر الجهد والطاقة ، أن نفيق من دوائر الأنانية والفردية والقسوة والظلم الإنسانى فيها ، وأن نوسِّع ونعمِّق دوائر المشاركة والتكافل والعطاء للآخرين .. لنكون كما يقول أنطوان تشيكوف : " لو أن كل إنسان فعل مافى وسعه لتجميل رقعة الأرض ، التى يقف عليها لأصبح كوكبنا فتنة للأنظار" ..

هكذا كانت مسئولية عبد الوهاب مطاوع وإحساسه بقرائه..

ولا تعليق !!



★ عبد الوهاب مطاوع 1940 ـ 2004

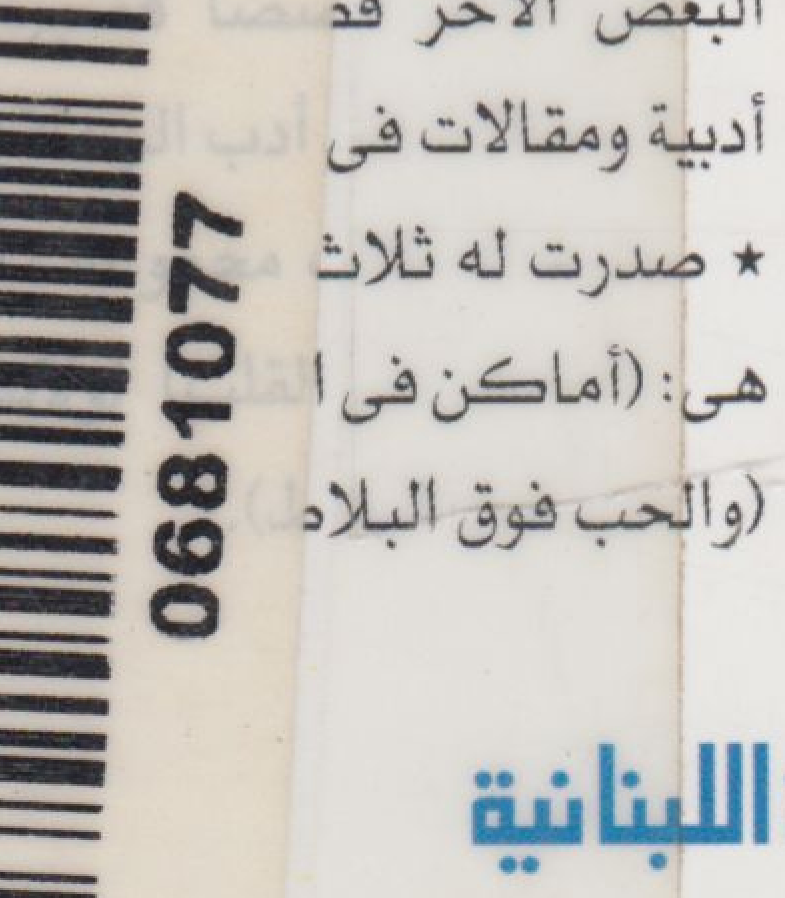
★ شغل منصب مدير تحرير جريدة الأهرام ورئيس تحرير مجلة الشباب.

★ حصل على جائزة مؤسسة على أمين ومصطفى أمين عام 1992 كأحسن كاتب صحفى يكتب فى المسائل الإنسانية.

★ كان يكتب باب (بريد الجمعة) الإنسانى فى الأهرام كل أسبوع بانتظام منذ عام 1982 ، ويشرف على باب بريد الأهرام اليومى بصحيفة الأهرام.

★ صدر له 52 كتابًا ، يتضمن بعضها نماذج مختارة من قصص بريد الجمعة الإنسانية وردوده عليها ، ويتضمن البعض الآخر قصصًا ... أدبية ومقالات فى أدب ال...

★ صدرت له ثلاث ... هى: (أماكن فى القل... (والحب فوق البلا...



الدار المصرية اللبنانية

